

جاك دريدا: أنا في حالة حرب مع نفسي

يتابع الفيلسوف العالمي الشهير جاك دريدا (في الرابعة والسبعين من عمره) طريقه في الفكر بقوة فريدة، وذلك رغم مواجهته للمرض. في منزله في الضاحية الباريسية ريس – أوراغيس، يعرض دريدا لصحيفة « لوموند » مساره وأثره.

– منذ صيف ٢٠٠٣ وحضوركم بالغ الوضوح. فأنتم لم تقوموا فقط بإصدار العديد من الاعمال، بل أيضاً جُبْتُم العالم للمشاركة في عدة مؤتمرات عالمية نُظِّمَتْ حول عملكم: من لندن إلى كويمبرا (في البرتغال)، مروراً بباريس، وفي هذه الايام في ريو دي جانيرو. كما تمّ إنجاز فيلم ثانٍ عنكم بعنوان « دريدا »، من إخراج آمي كوفمان وديربي ديك، وذلك بعد الفيلم الرائع « دريدا، من جهة أخرى »، إخراج صفاء فتحي عام ٢٠٠٠. فضلاً عن عدة أعداد خاصة وتحديداً: المجلة الأدبية[1]، ومجلة أوروبا[2]، وعدد خاص من « دفاتر الإرن »[3] الغني بالجديد من وعن دريدا، والذي يُنتظر صدوره في الخريف. هذا كثير في سنة واحدة. ومع ذلك فأنتم لا تُخفون أنكم . . .

– فلنقولوها إذاً: إنّ مرضي خطير بما يكفي. هذا صحيح. وأنني في حالة التصدّي لمعالجة مريعة. ولكن لندع ذلك جانبًا إنْ أردتم، فنحن لسنا هنا من أجل تحقيق تقرير صحي علني أو سري . .

– فليكن. لنعُدْ في منطلق هذا اللقاء إلى كتابكم « أشباح ماركس » (دار غاليليه، ١٩٩٣). فهو عمل أساسي، وكتابٌ يفتتحُ مرحلة جديدة، خُصِّصَ بكامله لقضية عدالة مستقبلية، والذي يَفتتحُ باستهلالٍ لُغزيّ: (شخصٌ ما، أنت أو أنا، يُفصحُ قائلاً: أريد أن أتعلم الحياة أخيراً). أين أنتم اليوم، وبعد عشرة سنوات، بالنسبة

لهذه الرغبة في معرفة الحياة؟

- الأمر يتعلق خصوصًا بـ « أهمية جديدة » وهي موضوع الكتاب المركزي، وعنوان فرعي فيه . ويتطرق الكتاب لـ « المواطنة العالمية » ، ولـ « مواطن ينتمي للعالم ككل » ، عالم يبدو كأنه شكلٌ جديد وعالمي لمفهوم الدولة – الأمة[4]، وعلاوة على ذلك فهو يستبق كل إلحاحات العولمة الأخرى اللاليبرالية التي أعتقد بضرورتها والتي تظهر الآن بشكل أفضل. وفي عام ١٩٩٣ قلتُ إنّ ما أدعوه إذن « أهمية جديدة » ، يفرض علينا عددًا كبيرًا من الطفرات في القانون الدولي والمؤسسات التي تضبط نظام العالم (صندوق النقد الدولي، ومؤسسة التجارة العالمية، والثمانية الكبار، وخصوصًا الأمم المتحدة والتي يتوجّب على الأقل تغيير ميثاقها وتكوينها، وقبل كل شيء ليكن مكان تواجدها أبعد ما يكون عن نيويورك) .

أمّا بالنسبة للعبارة التي ذكرتموها « تعلّم الحياة أخيرًا » فهي تأتيني عند انتهاء الكتاب . فهي قبل كل شيء تُخاطر جديًا بمعناها الاعتيادي . فتعلّم الحياة هو النضج والتربية أيضًا . إنّ توبيخ شخص ما والقول له « سأعلّمك الحياة » يعني أحيانًا بنبرة وعيد وتهديد : سأدرّبك وأثقفك بل سأروّضك .

إنّ غموض والتباس هذه المخاطرة يهمّني أكثر، فالتنهّد بهذه العبارة ينفتح على سؤال أكثر صعوبة : هل يمكن تعلّم فعل العيش ؟ أو تعليمه ؟ وهل يمكن أن نتعلّم بواسطة مادة تعليمية أو بالتمرين، إنّ بالتجربة أو بالتجريب، القبول بأنّ الحياة شيء ثابت ؟ ترن أصداء هذا القلق في الكتاب كله، قلق الإرث والموت . هذا القلق يُوجع الآباء والأبناء معًا : متى ستصبح مسؤولاً ؟ وكيف ستجيب أخيرًا عن حياتك وعن اسمك ؟

حسنًا إذن، للإجابة على سؤالك فأنا بدون لف أو دوران أقول لا . أنا لم أتعلّم أبدًا ومطلقًا كيف أعيش ! فتعلّم الحياة أو تعلّم كيف نعيش يجب أن يعني تعلّم الموت، وتعلّم أن نأخذ بعين الاعتبار الموت المطلق لكي نقبل أننا لسنا خالدين، لا نحن ولا الآخرين (فلا خلاص ولا قيامة ولا فداء بالمفهوم المسيحي) فهذا الأمر الفلسفي موجود منذ أفلاطون : التفلْسُف هو تعلّم الموت .

يقل إيماني بهذه الحقيقة يومًا بعد يوم ولن أستسلم لها . لم أتعلّم قبول الموت . فنحن جميعًا ناجون من الموت مع وقف التنفيذ . فمن وجهة نظر الجغرافية السياسية لكتابي « أشباح ماركس » ، يلحّ الكتاب على أننا نعيش في عالم تزداد فيه الفوارق بين البشر بما لم نشهده من قبل، وعلى أن مليارات من الأحياء (البشر وغيرهم) لا

حقٌ لهم في حياة جديرة بأن تعاش، وعلاوة على ذلك فلا حقٌ لهم في هذه البديهية المسماة بـ « حقوق الإنسان » والتي صار عمرها قرنين والتي ما زالت تغتني باستمرار.

ولكنني ما زلتُ غير قابل للتربية فيما يخصّ حكمة تعلم الموت. فإلى الآن لم أكتسب أو أتعلّم شيئًا عن هذا الموضوع. إنّ وقت « وقف التنفيذ » يقلّ بشكل مطرد. ليس لأنني، وآخرين، الوريثون الوحيدون لأشياء عديدة حسنة أو مرعبة: (فغالبًا ما يصفونني بالباقي على قيد الحياة، لأن غالبية المفكرين الذين وجدتني مجموعًا معهم، قد ماتوا). فأنا الممثل الأخير لجيل الستينات بشكل عام. وكل هذا الأمر غير الصحيح تمامًا يُلهمني اعتراضات وأحاسيس بالتمرُّد، حزينة بعض الشيء. ومثلما تضغط عليّ بعض المشكلات الصحية، فإنّ قضية البقاء حيًا أو وقف التنفيذ، والتي استحوذت عليّ دومًا في كل لحظة من حياتي بطريقة واقعية مستمرة، تأخذ لونًا مختلفًا اليوم.

لقد اهتممتُ دومًا بموضوع البقاء هذا، والذي لا يُضاف معناه إلى فعل العيش أو الموت. فمعناه هو أصلٌ وأساس: الحياة هي البقاء. والبقاء حيًا بالمعنى المتداول يعني استمرار العيش، ويعني أيضًا الحياة بعد الموت. وبخصوص الترجمة، فإنّ والتر بنجامين[٥] يميّز بين البقاء بعد الموت (مثل كتاب يُمكن أن يَخلُد بعد موت مؤلفه، أو طفل بعد موت والديه) وبين الاستمرار في الحياة. وكل المفاهيم التي ساعدتني في العمل - وخصوصًا مفهوم الأثر أو ماله صفة الطيف أو الشبح -، كلها مرتبطة بفعل البقاء حيًا كبعد بنيوي، بقاء لا يُستمدُّ من فعل العيش أو الموت. مثلما أنّ ما أسميه بـ (الحِداد الأصلي) لا ينتظر وقوع الموت الحقيقي.

- استعملتم كلمة « جيل »، وهو مفهوم ذو استخدام حسّاس، كثيرًا ما يخُطُّه قلمكم: كيف يُسمّي دريدا ما ينتقل من جيل لآخر؟
- استخدمتُ كلمة الجيل هنا بطريقة فضفاضة نوعًا ما. فيمكن لأحدنا ألاّ يتماشى مع عصره ويكون معاصرًا لجيل مضى أو سيأتي. وأن تكون مخلصًا لأولئك الذين يُجمّعونهم في « جيلي »، يجعلك حارسًا لإرث مميّز ولكنه عام، وهذا يعني شيئين:

أولاً: التمسُّك (بشكل معاكس لكل شيء وللآخرين) بنفس الشروط (من لاكان[٦]، إلى ألتوسر[٧]، مرورًا بـ ليفيناس[٨]، فوكو[٩]، بارت[١٠]، دولوز[١١]، بلانشو[١٢]، ليوتار[١٣]، سارة كوفمان[١٤]، إلخ..)، ولم تذكر العديد من الأحياء لحسن الحظ والذين أرثُهم أيضًا، وهم كتّاب مفكرون وشعراء وفلاسفة ومحللون

نفسيّون، وهناك آخرون خارج فرنسا أكثر عدداً وأحيانًا أكثر قربًا مني.

وأنا أشير هنا مجازًا إلى أخلاقيات صارمة للكتابة والفكر لا تقبل الإفساد (تطلق هيلين سيكسو[١٥] علينا لقب: غير القابلين للإفساد) ولا تتنازل حتى تجاه الفلسفة، ولا يدخلها الوجل مما يمكن للرأي العام ووسائل الإعلام وإرهاب التصوّرات التخيّليّة لقرّاء محلّة، كل ذلك لا يمكنه إكراهنا على التبسيط أو الكبت. ونتيجة لهذه الصرامة يأتي الميل الشديد للتفنّن وللإشكال، والمعضلة.

ثانيًا: هذا الخيار يظل هو أيضًا التزامًا. فهو الذي يُوَفّقُ بين كل الأسماء التي ذكرتها عرضًا فيما سبق ومن ثم بشكل غير عادل، ويربطها أيضًا بالوسط الذي دعمها. والأمر لا يتعلّق فقط بانتهاء هذا الشخص أو ذاك، بل بحقبة انتهت مؤقتًا. إذن علينا إنقاذ أو إعادة خلق روح هذه الحقبة بأي ثمن. والمسؤولية اليوم عاجلة: فهي تدعو لحرب صارمة ضد الرأي السائد، وضد من ندعوهم من الآن فصاعداً «المثقفين الإعلاميين»، وضد هذا الخطاب العام الموجّه من السلطات الإعلامية والتي تقع هي نفسها (ناشرون وأكاديميون) تحت رحمة اللوبيات الاقتصادية – السياسية الأوروبية والعالمية بالطبع. والمقاومة لا تعني وجوب تجنّب وسائل الإعلام، فعلينا مساعدتها وتطويرها وتنويعها وتذكيرها بهذه المسؤولية كلما سنحت لنا الفرصة.

وعلينا ألا ننسى، في الوقت نفسه، أن تلك الحقبة «السعيدة» الماضية، لم تكن وردية. فالاختلافات والخصومات كانت تثير الحنق في هذا الوسط الذي لم يكن متجانسًا أبدًا، وهكذا فإنّ إدراج هذا الوسط في تسمية مثل: «فكر ٦٨»، هو فعل أخرق تمامًا، وغالبًا ما تُستعمل اليوم هذه التسمية في الصحافة والجامعة شعارًا ووجه اتّهام لتلك الحقبة.

وحتى لو أخذ هذا الإخلاص أحيانًا شكل عدم الإخلاص والابتعاد، فعلينا أن نظل مخلصين لهذه الاختلافات، أي: أن نستمرّ في التحاور. فأنا مثلاً مستمرّ في مناقشة بورديو[١٦]، ولاكان، ودولوز، وفوكو، والذين ما زالوا يثيرون اهتمامي أكثر من هؤلاء الذين تلهث وراءهم الصحافة اليوم (مع بعض الاستثناءات طبعًا). أحتفظ بهذا الحوار حيًا لكي لا يتسطّح ولا يتدهور إلى القدح والتشهير.

والذي قلته عن جيلي ينطبق طبعًا على الماضي منذ «الكتاب المقدس» إلى أفلاطون فكانْط[١٧] فماركس وفرويد وهايدجر[١٨]، إلخ. لا أريد التخلّي عن شيء، فأنا لا أستطيع ذلك. وأنتم تعلمون أنّ تعلُّم الحياة هو دائمًا فعلٌ نرجسي: فنحن نود أن نعيش أطول وقت ممكن وأن ننجو وأن نثابر ونرعى كل هذه الأشياء

العليا والاقوى من الذات نفسها. بيد انّ هذه الاشياء تؤلّف جزءًا من هذا «الانا» الصغير، وتفيض عليها من كل الجهات. إنّ الطّلب مني ان اتخلّى عمّن ثقفني وعمّا احببته كثيرًا، كطلب الموت مني. وفي هذا الإخلاص نوع من غريزة البقاء.

فمثلاً، التخلّي عن طرح صياغات صعبة، أو عن عرض الاوجه المختلفة لمسالة ما، أو مفارقة أو تناقض إضافي، بحجة انّ ذلك لن يُفْهَم، أو بالأحرى لانّ هذا الصحافي لا يجيد قراءته ولا حتى قراءة عنوان كتاب، ويعتقد جازمًا انّ القارىء أو المستمع لن يفهم، وانّ المشاهدين أو المستمعين (ونسبتهم هي مصدر دخله) لن يحتملونه أو يطيقونه، هذا التخاذل بالنسبة لي هو فجورٌ غير مقبول. وهذا الامر كمن يطلب مني الانحناء او الخضوع او الموت حمقًا.

- لقد ابتكرتم شكلاً أو كتابة عن البقاء حيًّا، تلائم هذا التلهّف للإخلاص، كتابة عن الوعد الموروث والاثر الباقي والعهد بالمسؤولية.
- لو انني ابتكرت كتابتي، لكنت جعلت منها ثورة لا تنتهي. في كل حالة يجب خلق صيغة مناسبة لعرض الافكار، وابتكار قانون الحدث الفريد، واخذ المتلقي المُفترض أو المرغوب فيه بعين الاعتبار، والتطلّع في الوقت نفسه إلى انّ هذه الكتابة ستحثّ القارىء الذي لم يكن معتادًا ان يستقبل ما اكتبه من جهات أخرى، ستحثّه على تعلّم قراءة (أو ان يعيش) ما اكتبه. وتامل في انه سيجد في هذه الكتابة ما يجعله يولد من جديد: تطعيم الشعر بالفلسفة دون التباس، أو استخدام بعض اساليب الجناس، أو عرض معضلات غير قابلة للبت، أو الحيل اللغوية التي يقرؤها الكثيرون في غموض مقصود كي يتجاهلوا ضرورتها المنطقية الصرفة.

كل كتاب هو منهج تعليم موجّه لتثقيف قارئه. والإصدارات الهائلة التي تُغرق الصحافة والنشر لا تثقف القرّاء، فهي تفترض استيهامًا قارئًا مبرمجًا سلفًا، وهذا يؤدي إلى تاطير القارئ المتواضع الذكاء الذي تمّ افتراضه من قبل. بيد انّه وبسبب من هاجس الالتزام - كما تقولون - ففي اللحظة التي اترك فيها اثرًا ما، لا استطيع إلّا أن أجعل هذه الكتابة مُيسّرة لاي شخص: ولذا فلا أستطيع أن أتوجه لقارىء وحيد.

في كل مرة نحاول فيها ان نكون مخلصين في كتابتنا، نخون خصوصية القارىء الذي نتوجّه له. وبالاحرى، عندما نكتب كتبًا عريضة التوجّه: فنحن لا نعلم من نخاطب، إنّما نبتكر ونخلق أشباحًا، ولكن في الجوهر فهذا لم يعد ينتمي إلينا.

كل هذه الأفعال تفارقنا، شفويّةً كانت أم كتابية، وتبدأ بالتأثير بشكل مستقل عنّا، كالآلات أو العرائس – وأنا أوضح هذا بشكل أفضل في كتابي «ورقة الآلة» (دار چاليليه، ٢٠٠١). في اللحظة التي أدع فيها كتابي للنشر (دون أن يُكْرِهني أحد على ذلك)، أُصْبِحُ ظاهراً – مختفيًا، كهذا الطيف غير القابل للتربية الذي لن يتعلّم أبدًا كيف يعيش. إنّ الأثر الذي أتركه يعني لي موتي القادم أو الذي حدث بالفعل، وهو في الوقت نفسه رجاء في أن يعيش بعدي. هذا ليس طموح للخلود، هذا بنيوي. أترك هنا قصاصة ورق، أتركها وأموت: يستحيل الخروج من هذه البنية، فهي الشكل المستمر لحياتي. وفي كل مرة أدع كتابًا يغادرني، أعيش موتي في الكتابة. محنةٌ قُصوى: فنحن ننتزع من أنفسنا ملكيّة الشيء، دون معرفة لأيّ شخص سيُعْهَدُ به إليه؟ من سيرث؟ وكيف؟ بل هل سيكون هناك ورثة؟ هذا سؤال يمكننا طرحه على أنفسنا اليوم أكثر من أيّ وقت مضى. سؤال يؤرقني باستمرار.

وقد غيّر هذا السؤال زمن ثقافتنا التقنية جذريًا. وتعوّد أبناء جيلي، أو بالأحرى القدماء منهم، على إيقاع تاريخي آخر: فقد كنّا نستطيع أن نحكم تبعًا لجودة عمل ما، على أنه سيبقى أو لا، لمدة سنة أو اثنتين أو ٢٥ قرنًا مثل عمل أفلاطون. ولكن تسارع أشكال الأرشفة اليوم، وأيضًا الاستنزاف والدمار، كل ذلك يحوّر 12
بنية وآنية الإرث. وأما بالنسبة للفكر، فقضية بقائه تأخذ من الآن فصاعدًا أشكالاً لا يمكن التنبّؤ بها مطلقًا.

وأنا على استعداد في عمري هذا للفرضيات الأكثر تناقضًا في هذا الموضوع: أرجو أن تصدّقوني، فأنا لديّ في نفس الوقت الشعور أنه من جهة – وأقوله بابتسام ودون تواضع – لم تبدأ قراءتي بعد. يوجد العديد من القرّاء الجيدين جدًا طبعًا (ربما بضعة عشرات في العالم)، والحقيقة ثمّة فرصة لحدوث هذا فيما بعد.

ومن جهة أخرى، لن يتبقّى شيء بعد خمسة عشر يومًا أو شهر من وفاتي، لن يتبقّى شيء. فقط سيبقى ما هو محفوظ بالإيداع القانوني في المكتبة. وأُقسم لكم بأنني أعتقد بإخلاص بهاتين الفرضيتين معًا.

– في قلب هذا الأمل تقبع اللغة، واللغة الفرنسية أولاً. فعندما نقرؤك، نشعر في كل سطر بحدّة شغفك بها. وفي كتابكم «لغتي الوحيدة هي لغة الآخر» (دار چاليليه، ١٩٩٦)، تقدّمون نفسكم ساخرين على أنكم «آخر مدافع وشارح للغة الفرنسيّة..».

– . . والتي ليست ملكي رغم أنها الشيء الوحيد الذي في حوزتي وما زلت أغرف منها. طبعًا تجربة اللغة حيوية وبالتالي فهي فانية ومن ثم سابقة على ذلك. جعلتني الظروف يهوديًا فرنسيًا جزائريًا من الجيل الذي وُلِدَ قبل حرب الاستقلال: هذه خصوصيّة حتى بين اليهود وحتّى بين يهود الجزائر. ولقد اشتركت في تحوّل غير عادي لليهودية الفرنسية الجزائرية: فوالدا جدّيّ كانا لا يزالان كثيرا القرب من العرب في اللغة والعادات، إلخ.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبعد مرسوم (كريميو)[19] تُبَرْجِزَ الجيل الثاني لهذه العائلة: ورغم أنّ الزواج كاد يتمّ خلسة في الساحة الخلفية لبلديّة الجزائر بسبب فتنة مطاردة اليهود (في زمن قضية درايفوس)[20]، قامت جدّتي لوالدتي بتربية بناتها كما البرجوازيّات الباريسيّات (نفس آداب الدائرة السادسة عشرة الباريسية في السلوك، دروس بيانو. . إلخ). ثمّ أتى جيل والديّ: ثقافة متواضعة، تجّار صغار أو لا، وبعضهم استغلّ الحالة الاستعمارية وأصبحوا وكلاء احتكاريين لماركات شهيرة فرنسية: مكتب صغير بمساحة خمسة عشر مترًا مربعًا دون سكرتير، بمكنه تمثيل وكالة صابون مرسيليا في إفريقيا الشمالية، وأنا أبسّط الأمر بعض الشيء.

ثمّ أتى جيلي (مثقفون غالبًا: مهن حرة، تعليم، طب، محاماة، إلخ). وكلّهم تقريبًا أتوا إلى فرنسا عام ١٩٦٢. أما أنا فأتيت مبكرًا، عام ١٩٤٩. وبالكاد أبالغ لو قلت إنّ الزواج المختلط بدأ معي، بطريقة شبه مأساوية وثورية ونادرة ومجازفة. وبنفس الطريقة التي أحب من خلالها الحياة، وحياتي، فأنا أحبّ ما ساهم في تشكيلي، والعنصر الأساسي هو اللغة الفرنسية، اللغة الوحيدة التي علّموني رعايتها، والوحيدة أيضًا التي أستطيع القول بإنني مسؤول بشكل أو بآخر عنها.

ولهذا السبب ثمّة طريقة في كتابتي لمعالجة اللغة لا أقول إنها منحرفة، ولكنّها بعض الشيء عنيفة حبًا. وحبّ اللغة جزء من الحبّ عمومًا، حبّ ليس قوميًا ولا محافظًا ولكنّه يخضع لبراهين، ومحن. نحن لا نعبث باللغة، فوجودها يسبقنا وستستمرّ في الحياة بعدنا. وعلينا أن نكون مرهفين فيما لو أردنا التأثير في اللغة مع احترامنا لقانونها الخفيّ دون تقديسه. وهذا هو الإخلاص غير المخلص: فعندما أقسر اللغة الفرنسية، أفعل ذلك باحترام مرهف لما أراه قانون هذه اللغة خلال حياتها وتطوّرها. ولا أقرأ دون ابتسام وأحيانًا احتقار أولئك الذين يعتقدون بانتهاكهم لغةً فرنسية دون حبّ لحرمة قواعد الإملاء والنحو الكلاسيكي، أولئك لهم سحنة صبي بكر يعاني من قذف مني مبكر، في حين أنّ اللغة الفرنسية العظيمة غير القابلة أبدًا

للإفساد، ترمقهم يفعلون منتظرةً القادم الجديد . أصف هذا المشهد السخيف بطريقة فظّة في كتابي « كارت بوستال » (دار فلاماريون، ١٩٨٠) . يهمّني أن أترك أثرًا في تاريخ اللغة الفرنسية . أعيش على هذا الهوى، وهو إن لم يكن حبًا لفرنسا، فهو حبًا لأشياء اندمجت باللغة الفرنسية منذ قرون .

اعتقد أنني أحبّ هذه اللغة مثلما أحب حياتي، وأحيانًا أكثر مما يحبّها هذا الفرنسي الاصل أو ذاك، وذلك لانني اعشقها كغريب تلقفته هذه اللغة فاستولى عليها باعتبارها اللغة الوحيدة المتاحة له . هذا هوى ومزايدة .

كل فرنسيي الجزائر يهودًا ام لا، يشاركونني هذا الامر. أما أولئك الذين أتوا من فرنسا إلى الجزائر فكانوا غرباء في نهاية المطاف : طغاةٌ، وواضعو مبادىء، وغلاظٌ ومشرّعون. هذا طراز الفرنسيين الذين اتوا إلى الجزائر، وكان عليهم الرضوخ للصفات السابقة لتكون رداءهم ومثلهم. وكنّا لجد الأستاذ الآتي من فرنسا مضحكًا بلهجته الفرنسية هذه! ومن هنا تاتي المزايدة: لي لغةٌ واحدة فقط، لكنها ليست ليَ. تاريخٌ فريد أثار لديّ هذا القانون العام : اللغة ليست حكرًا على أحد لا بالسليقة ولا بالماهيّة . وعدم فهم هذا الامر أدى إلى استيهامات الملكيّة والاستيلاء والإكراه الاستعماري.

– لديكم صعوبة عمومًا في قول « نحن »، « نحن الفلاسفة » أو « نحن اليهود » على سبيل المثال. ولكن مع اتساع الفوضى العالمية، يبدو انكم اقل تحفظًا في قول « نحن الأوروبيين ». ففي كتابكم « الإبحار في الاتجاه الآخر » (دار چاليليه، ١٩٩١) الذي كتبتموه في فترة حرب الخليج الأولى، قدّمتم نفسكم كـ « أوروبي قديم »، وكانكم نوعٌ من هجين أوروبي .

– أريد ان أذكُر بشيئين: اولاً : لديّ صعوبة حقًا في قول « نحن »، ولكنني اقولها احيانًا . رغم كافة مشكلات هذا الموضوع التي تعذبني بصدد ذلك، بدءاً بسياسة إسرائيل الكوارثية والانتحارية، والسياسة المماثلة لنوعٍ من الصهيونية (لانّ إسرائيل لم تعد في نظري ممثلاً لليهودية ولا للدياسپورا – شتات اليهود في العالم – ولا للصهيونية العالمية أو الأصلية التي كانت متعددة ومتناقضة. وعلاوة على ذلك فهناك الأصوليون المسيحيون الامريكيون الذين يرون أنفسهم صهاينة حقيقيين، ووزن اللوبي الذي يمثلوه اقوى من طائفة اليهود الامريكيين. وهناك تاثير السعوديين في التّوجه المتعدد للسياسة الامريكية–الإسرائيلية) . رغم هذا وغيره

من المشكلات التي أعانيها بسبب يهوديتي، فأنا لا أنكر يهوديتي مطلقًا.

سأقول دائمًا في بعض الحالات: «نحن اليهود». وهذه «النحن» المعذّبة دائمًا موجودة في فكري، وتحديدًا في قلبه الأكثر قلقًا وتوترًا. وهذه النحن هي لمن أسميه – وأنا بالكاد أبتسم – «آخر اليهود». وهي في فكري مثلما كانت الصلاة لدى أرسطو: «لا صحيحة ولا خاطئة». ومن ثم فهي حرفيًا مثلها مثل الصلاة. ولذا أقول دون تردّد في بعض الحالات «نحن اليهود»، وأيضًا «نحن الفرنسيين».

ثانيًا: منذ بداية عملي في «التفكيكية»، ظللت ناقدًا إلى أبعد حد لفكرة المركزية الأوروبية مهما كانت حداثة صياغاتها لدى ڤاليري[٢١] وهوسرل[٢٢] أو هايدجر مثلاً. وبصورة عامة فالتفكيكية مؤسسة اعتبرها الكثيرون، وهم على حق في ذلك، حملة للتشكيك تجاه مجمل المركزية الأوروبية. وإذا اتفق وقلت في هذه الأيام، «نحن الأوروبيين» فذلك لأسباب ظرفيّة ومختلف تمامًا عما يعنيه عندما يقوله الآخرون.

فبسبب ما حدث في أوروبا في عصر التنوير، وانكماش هذه القارة، والشعور الهائل بالذنب الذي يتمازج من الآن فصاعدًا مع ثقافتها (التوتاليتارية، والنازية، والإبادة والمحرقة والاستعمار وتفكيك الاستعمار، إلخ)، فاليوم، وفي حالتنا الجغرافية السياسية الراهنة، فإن كل ما يمكن أن يكون مفككًا للتقاليد الأوروبية لا يمنع إمكانية أن تتجمّع أوروبا – أوروبا أخرى محتفظة بنفس الذاكرة – وأن تتحدّ في نفس الوقت (وهذه هي على أي حال أمنيتي)، ضد سياسة الهيمنة الأمريكية (تقرير وولفوڤيتز، وتشيني، ورامسفيلد، إلخ)، وضد التيوقراطية (حكم رجال الدين باسم الله) العربية الإسلامية غير المتنوّرة والمفتقدة لمستقبل سياسي، (ولكن علينا ألاّ نهمل التناقضات بين تلك الهيمنة وهذه التيوقراطية، ولنضع يدنا في يد أولئك الذين يقاومون من داخل هاتين الكتلتين).

لا مفرّ لأوروبا من أن تتحمّل مسؤوليّة جديدة، لا أتحدّث عن المجموعة الأوروبية كما هي الآن أو التي تتشكل في أغلبيتها الحالية (ليبرالية جديدة)، والمهدّدة ضمنًا بالعديد من الحروب الداخلية، لكنني أتحدّث عن أوروبا مستقبليّة تبحث عن نفسها، إنْ في أوروبا الجغرافية أو خارج حدودها. فما نطلق عليه جبريًا لقب أوروبا يجب أن يتحمّل مسؤولياته من أجل مستقبل الإنسانية والقانون الدولي وهذا هو ما أعتقد وأومن به. وهنا لا أتردد في القول «نحن الأوروبيين». وهذا الأمر لا يعني أنني أتمنّى تكوين أوروبا عظمى عسكريًا لتحمي سوقها وتكون ثقلاً

مقابلاً للكتل الأخرى، ولكنه يعني إنني آمل في أوروبا مستقبلية ترمي بذور سياسة جديدة لعولمة مختلفة غير ليبرالية. وهذه السياسة هي المخرج الوحيد الممكن في نظري.

هذه القوة (أوروبا الجديدة) آخذة في الظهور. وأعتقد أنه ما من شيء سيوقفها حتى لو كانت دوافعها ما تزال مبهمة. وعندما أقول أوروبا فهذا ما أعني: أوروبا ذات عولمة مختلفة، تُغيِّر مفهوم وممارسات السيادة والقانون الدولي. وذلك بامتلاكها قوة عسكرية حقيقية مستقلة عن الحلف الأطلسي والولايات المتحدة، قوة عسكرية ليست هجومية ولا دفاعية ولا وقائية، تتدخّل في التو لفرض احترام قرارات أمم متحدة جديدة (بشكل عاجل على سبيل المثال في إسرائيل وغيرها أيضًا). وستكون أوروبا المكان الذي سيتيح لنا التفكير بشكل أفضل في وجوه مختلفة للعلمانية أو العدالة الاجتماعية واللتان هما إرثان أوروبيان أيضًا.

لقد ذكرت كلمة العلمانية، فاسمحوا لي باسترسال طويل. فالأمر لا يتعلّق بالحجاب في المدرسة، بل «بحجاب الزواج». لم أتردد في التوقيع على مبادرة نويل مامير[23] الشجاعة والمنتظرة. فزواج مثليي الجنس يُعدُّ مثالاً على هذا التقليد الجميل الذي أرساه الأمريكيون في القرن المنصرم باسم «العصيان المدني»: وهو لا يعني تحدي القانون، بل عصيان حكم شرعي باسم قانون أفضل مستقبلي أو موجود سلفًا في روح أو حرفية الدستور. حسنًا، أنا وقعت في هذا السياق القانوني الشرعي الحالي لأنه يبدو لي غير منصف لحقوق مثليي الجنس، ومنافق وغامض في روحه وحرفيته.

لو كنتُ مشرِّعًا لاقترحتُ ببساطة إلغاء كلمة ومفهوم الزواج من القانون المدني والعلماني. فالزواج قيمة دينية مقدّسة، ومغايرة الجنس، وموجهة للإنجاب والإخلاص الأبدي.. إلخ، وهذا تنازل من الدولة العلمانية للكنيسة المسيحية وخصوصًا في الزواج الأحادي (عدم تعدُّد الزوجات أو الأزواج)، وهو ليس قيمة يهودية، فقد فرضه الأوروبيون على اليهود في القرن المنصرم، وهو لم يكن إجباريًا على يهود المغرب قبل عدة أجيال. ونعلم تمامًا أنه ليس قيمة إسلامية. وبإلغاء كلمة ومفهوم «الزواج» (هذا الغموض والرِّياء الديني القدسي الذي لا مكان له في دستور علماني)، سنستطيع استبدالهما بـ «اتحاد مدني» تعاقدي، شكل من أشكال الـ «باكس» (وهو عقد تعايش بين شخصين مثليي أو مغايري الجنس) عام ومحسن ومهذّب وسلس يمكن أن يلائم شركاء من جنس وعدد غير محدّد سلفًا.

أما أولئك الذين يريدون الارتباط ببعضهم بـ« الزواج » - واحترامي للزواج كامل طبعًا - فسيستطيعون التقدم إلى السلطات الدينية التي يختارونها (وبعض هذه السلطات في بعض البلدان تقبل بتزويج مثليي الجنس دينيًا) . سيستطيع البعض الاتحاد بهذا الشكل أو ذاك والبعض بالشكلين معًا وبعضٌ آخر لن يريدوا لا القانون العلماني ولا الديني . انتهى استرسالي في موضوع العلمانية والزواج، وكل هذا ما هو إلا أوتوبيا ولكني على موعد معها .

إنّ ما أدعوه تفكيكية، حتّى عندما يكون موجهًا ضد عنصر من العناصر الأوروبية، ما هو إلا أوروبي، وهو نتاج أوروبي، وعلاقة مع النفس تأخذ فيها أوروبا شكل التجربة الجذرية مع الآخر . فمنذ عصور التنوير وأوروبا تنقد نفسها باستمرار . وفي هذا الميراث الذي يقبل الإصلاح، هناك وعد بالمستقبل . أستطيع على الأقل أن أتمناه، وهذا ما يغذّي سخطي أمام الخطابات التي تدين أوروبا نهائيًا، كما لو كانت فقط مسرحًا لجرائمها .

- بالنسبة لأوروبا، ألستم في حالة حرب مع نفسكم؟ فمن جهة أنتم تلاحظون أن اعتداءات الحادي عشر من أيلول تدمّر القواعد القديمة الجغرافية السياسية للقوى العظمى، وتدل هكذا على أزمة مفهوم ما للسياسة والذي تعرّفونه بأنه أوروبي صرف . ومن جهة أخرى، فأنتم تحافظون على تمسككم بهذه الروح الأوروبية، وتمسككم أولاً بمثالية المواطنة العالمية لقانون دولي تصفون تمامًا شيخوخته أو بقاءه على قيد الحياة .
- يجب إنعاش المواطنة العالمية (أنظر: « يا مواطنو العالم من كل البلدان، جهد أخير »، دار چاليليه، ١٩٩٧) عندما نقول: سياسة (پوليتيك)، فنحن نستخدم كلمة يونانية ذات مفهوم أوروبي يفترض معنى الدولة . والكلمة بهذا المعنى ترتبط بأرض الوطن وبأهل البلاد الأصليين . ومهما تكن هذه التمزّقات داخلَ تاريخ هذا المفهوم السياسي، فهو لا يزال مسيطرًا حتى عندما تقوم قوى عديدة بتصديعه: فلا سيادة الدولة ولا تكنولوجيا الاتصالات ولا الاستراتيجيا العسكرية بقيت مرتبطة بأرض الوطن، وهذا التصدّع يؤدي بالطبع إلى تأزم المفهوم الأوروبي القديم للسياسة والحرب وللتمييز بين مدني وعسكري وبين الإرهاب القومي والإرهاب الدولي .

ولكنني لا أعتقد بوجوب الاحتداد تجاه السياسة، ولا تجاه السيادة والتي أعتقد

يجدواها في بعض الأحوال للنضال ضد بعض قوى السوق العالمية. وهنا أيضًا يتعلّق الامر بإرث أوروبي علينا الحفاظ عليه وتغييره معًا. هذا ما أقوله أيضًا في كتابي «بلطجية»، (دار چاليليه، ٢٠٠٣) عن الديموقراطية كفكرة أوروبية والتي، في الوقت نفسه، لم توجد ابدًا بطريقة مُرْضية، وارجو ان يتم هذا مستقبلاً. في الحقيقة فانتم ستجدون دومًا هذا التناقض الداخلي فيَّ، وليس لديَّ تبرير أخير له سوى أنني هكذا، وأنني في هذا الموقع.

أنا في حالة حرب مع نفسي، هذا صحيح. لا يمكنكم ان تتخيّلوا إلى أيّ حدّ أقول أشياء متناقضة ولكنها تبنيني وتجعلني أعيش وستجعلني أموت، لا يمكنكم ان تتصوّروا هذا. وأنا أرى هذه الحرب أحيانًا حربًا مرعبة ومؤلمة، ولكنني في الوقت نفسه أعلم أنها الحياة. لن أجد السلام إلاّ في الراحة الأبدية. فإذًا أنا لا أستطيع ان أقول بأنني أتحمّل مسؤولية هذا التناقض، ولكنني أعلم أيضًا أنّ هذا ما يدعني أعيش وأطرح على نفسي السؤال الذي ذكرتموه أعلاه: كيف نتعلّم الحياة؟

- في كتابيكم الأخيرين (فريدٌ في كل مرة)، (نهاية العالم والحَتل)، (دار چاليليه، ٢٠٠٣)، تعودون للسؤال الكبير عن الخلاص، وعن الحداد المستحيل، وباختصار سؤال عن البقاء حيًا. وإذا كان يمكن تعريف الفلسفة بأنها «همّ استباق الموت» (أنظر كتابي «إعطاء الموت»، دار چاليليه، ١٩٩٩)، فهل يمكننا تأمّل «التفكيكية» وكأنها أخلاقيات لا نهاية لها للبقاء على قيد الحياة؟

- قبل الحديث عن تجاربي في البقاء حيًا والتي أعيشها حاليًا، أشرتُ في البدء إلى أنه مفهوم أساسي، يدخل في بنية ما نسمّيه بالوجود. فنحن باقون أحياء بنيويًا، وموسومون بهذه البنية، بنية الأثر والوصيّة. ولكنني لا أُريد بعد قولي هذا أن أدع مجالاً لتفسير البقاء على قيد الحياة بأنه علاقة بالموت والماضي، وليس بالحياة والمستقبل. لا، فالتفكيكية تقف دائمًا في صف «نعمْ» وهي تأكيد على الحياة.

كل ما أقوله عن البقاء حيًا والذي يجعل التعارض بين الحياة - الموت يزداد تعقيدًا (على الأقل منذ «خطوة» في كتابي «أنحاء»، دار چاليليه، ١٩٨٦)، ينشأ عندي من التأكيد غير المشروط على الحياة. فالبقاء هو الحياة فيما وراء الحياة، والحياة التي تفوق الحياة، وكلامي هذا ليس سوداويًا، بل على العكس من ذلك، هو تأكيد الكائن الحيّ الذي يفضّل الحياة - وبالتالي الاستمرار في الوجود - على الموت، لأنّ البقاء موجودًا هو ليس ببساطة ما يبقى، إنّه الحياة الأكثر ذخرًا. لم تتسلّط عليَّ

ضرورة الموت هكذا، إلاّ من خلال لحظات السعادة واللذة، وبالنسبة لي، فإن المتعة ترتبط بالبكاء على الموت المترصّد، وهما شيء واحد. وعندما أتذكر حياتي، أميل إلى التفكير بأنني كنت محظوظًا في حبّ ومباركة كل اللحظات التعسة فيها تقريبًا، عدا استثناء وحيد. وعندما أتذكّر اللحظات السعيدة أُباركها أيضًا بالطبع، وهي تدفعني في الوقت نفسه إلى فكرة الموت، ونحو الموت، لأنّ ذلك صار ماضيًا وانتهى . . .

نقله من الفرنسية: أنس الحكيم – باريس / فرنسا

هوامش

١ Magazine littéraire المجلة الأدبية، العدد ٤٣٠ الصادر في نيسان ٢٠٠٤.

٢ Europe مجلة «أوروبا»، العدد ٩٠١ الصادر في أيار ٢٠٠٤.

٣ Cahiers de l'Herne «دفاتر الإرن» (دفاتر السبخة)، مجلة فصلية، العدد ٨٣، خريف ٢٠٠٤. (Lerne) كلمة تعني السبخة والمستنقع، وهي سبخة في منطقة بلوبونيز في اليونان، وإليها تنتسب ثعبان أسطوري ذو تسعة رؤوس. (من مكالمة هاتفية بتاريخ ٢٧/١٠/٢٠٠٤ مع أسرة تحرير المجلة التي اختارت أن تبدأ الكلمة بحرف الهاء وليس اللام كما في أصل الكلمة).

٤ Etat-nation الدولة – الأمة، وهي دولة يؤلف مواطنوها شعبًا أو مجموعة سكانية، ويرون أنفسهم منتمين جوهريًا إلى سلطة سيادية انبثقت عنهم وتعبّر عنهم.

٥ Walter Benjamin (١٨٩٢–١٩٤٠) كاتب ألماني، ومنظّر ماركسي وباحث في علم الجمال.

٦ Jacques Lacan (١٩٠١–١٩٨١) محلل وطبيب نفسي فرنسي.

٧ Louis Althusser (١٩١٨–١٩٩٠) فيلسوف فرنسي ومنظّر ماركسي، مولود في الجزائر.

٨ Emmanuel Levinas (١٩٠٥–١٩٩٥) فيلسوف فرنسي ليتواني الأصل.

٩ Michel Foucault (١٩٢٦–١٩٨٤) فيلسوف فرنسي بحث في فكر ماركس وفرويد.

١٠ Roland Barthes (١٩١٥–١٩٨٠) مختص في السيميولوجيا وناقد فرنسي استخدم مفاهيم التحليل النفسي واللسانيات والبنيوية في نقد الاعمال الادبية .

١١ Gilles Deleuze (١٩٢٥–١٩٩٥) فيلسوف فرنسي مؤلف فلسفة الاختلاف التي ترى الإنسان آلة ذات رغبات .

١٢ Maurice Blanchot (١٩٠٧–٢٠٠٣) روائي وكاتب مفكّر فرنسي .

١٣ Jean-François Lyotard (١٩٢٤–١٩٩٨) فيلسوف فرنسي تميّز عمله بالابتعاد عن الماركسية والتحليل النفسي .

١٤ Sarah Kofman (١٩٣٤–١٩٩٤) فيلسوفة وكاتبة مفكّرة، أستاذة في جامعة السوربون .

١٥ Hélène Cixous (١٩٣٧–) روائية وكاتبة مسرح ومفكرة فرنسية .

١٦ Pierre Bourdieu (١٩٣٠–٢٠٠٢) فرنسي، مختص في علم الاجتماع .

١٧ Emmanuel Kant (١٧٢٤–١٨٠٤) فيلسوف الماني مؤلف فلسفة النقد .

١٨ Martin Heidegger (١٨٨٩–١٩٧٦) فيلسوف الماني .

١٩ Adolphe Crémieux (١٧٩٦–١٨٨٠) سياسي فرنسي كان الاصل في إصدار مرسوم حمل اسمه ومُنح بموجبه الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر (١٨٧٠) .

٢٠ Alfred Dreyfus (١٨٥٩–١٩٣٥) ضابط فرنسي يهودي أدين دون وجه حق بتهمة التجسس لحساب المانيا، وفي أثناء هذه القضية كتب إميل زولا مقاله الشهير «إني أتهم» .

٢١ Larbaud Valery (١٨٨١–١٩٥٧) كاتب وناقد أدبي فرنسي .

٢٢ Edmund Husserl (١٨٥٩–١٩٣٨) فيلسوف الماني ومختص بالرياضيات ومؤسس فلسفة الفينومينولوجيا .

٢٣ Noel Mamére فرنسي، عمل سابقًا مقدّمًا لبرامج التلفزيون، ثم أصبح نائبًا في البرلمان عن جماعة «الخضر»، وأصبح رئيسًا لبلدية مدينة بيغل . وقام بوصفه رئيسًا لبلديتها بتزويج (ولاول مرة في فرنسا) اثنين من مثليي الجنس، معرّضًا نفسه للملاحقة القانونية .

نشرت هذا الحوار صحيفة «لوموند» الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ ١٨ / ٨ / ٢٠٠٤، وأعادت نشره في عددها رقم ١٨٥٧٢ الصادر بتاريخ ١٢ / ١٠ / ٢٠٠٤

جاك دريدا : أطيافٌ فلسفيّة

التفكيكية، كلمة ابتكرها الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا ليصف من خلالها طريقته في مقاربة الفلسفة، وكانت نقطة البداية في الستينات من القرن المنصرم تفكيكًا للميتافيزيقيا الغربية وخاصة لفلسفة الظواهر لدى هوسرل Edmund Husserl، واللتين فضّلتا دومًا القول على الكتابة. وهكذا قدّمت التفكيكية قراءة جديدة للنصوص الفلسفية الكبرى، قراءة حذرة تتتبّع تفاصيل المُحاجّات الفلسفية لافتة النظر إلى نهاياتها المغلقة.

واتسعت حقول بحث التفكيكية مع مرور الأيام، فدرست بدقة لا مثيل لها الأدب أولاً ثم التحليل النفسي والحقوق والسياسة والأخلاق والدين والفن التشكيلي والعمارة والإعلام.

ألّف دريدا أكثر من ثمانين كتابًا تُرجمت إلى لغات عديدة ودُرست على نطاق عالمي، ولم يتوقف عمله الفريد والرشيق عن مساءلة وإثارة اهتمام وإغواء قرّائه. ويعود التفكيكية هذا إلى قراءة كتابة دريدا التي ما انفكّت تطوّع أساليب البلاغة لصالحها، وتتنوّع تبعًا للموضوع أو المؤلّف الذي عالجته. فمن الضروري إذن تقديم لمحة عن دريدا وفلسفته المنفتحة على المستقبل[1].

بيوغرافيا:

- في الخامس عشر من تموز ١٩٣٠ وُلد جاكي دريدا Jackie Derrida لأبوين يهوديين في قرية البيار بالقرب من العاصمة الجزائرية، حيث التحق هناك بالمدرسة التحضيرية والابتدائية بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٤١.
- في الثالث من تشرين الأول ١٩٤٠ سنّتْ حكومة بيتان الفرنسية المرسوم رقم (٢) الذي استبعد اليهود من سلك التعليم والقضاء، مما أدى إلى طرده من المدرسة في بداية العام ١٩٤٢ الدراسي.

- وبين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٧ أمضى فترة مضطربة في ثانوية ابن أكنون في الجزائر العاصمة، وكان يحلم باحتراف كرة القدم. وهناك قرأ طويلاً روسو[٢] وجيد[٣] ونيتشه[٤] وفاليري[٥] وكامي[٦]: (« في البداية لم أكن أميّز بين الفلسفة والأدب، كنت أرغب في كتابة الروايات أو الشعر، وأن أصبح أستاذًا للأدب »). ثمّ قرأ بشغف أعمال كيركجارد[٧] وهايدجر[٨].
- ١٩٤٩: أتى إلى فرنسا ليكون طالبًا داخليًا في ثانوية لويس لوجراند (« كان عمري تسعة عشر عامًا وكنت أبكي مثل طفل صغير لشعوري بالسجن في هذه المدرسة الداخلية... لقد أعجبت بسارتر[٩] وحلمت بسذاجة أن أصبح مثله فيلسوفًا يكتب روايات »).
- ١٩٥٢: التحق بدار المعلمين العليا في باريس، وهناك تعرّف على ألتوسر[١٠].
- ١٩٥٣: ارتبط بصداقة مع فوكو، وكتب « مشكلة التكوين في فلسفة هوسرل » الذي نُشر فيما بعد، عام ١٩٩٠.
- ١٩٥٦: ذهب إلى الجزائر لتأدية خدمة العلم، فدرّس اللغة الفرنسية والانكليزية للطلاب الجزائريين والفرنسيين هناك.
- ١٩٥٩: عاد إلى فرنسا ليدرّس في ثانوية مدينة لومان.
- ١٩٦٠: درّس الفلسفة العامة والمنطق في جامعة السوربون.
- ١٩٦٦: شارك في ندوة كبرى في جامعة جون هوبكينز في مدينة بالتيمور الأمريكية، حيث طبّقت بعدها شهرته الآفاق، وكانت بداية لاستقبال مجموعة من المنظّرين الفرنسيين في الولايات المتحدة.
- ١٩٦٧: نشر كتبه الثلاثة الهامة: « الكتابة والاختلاف »، و« الصوت والظاهرة »، و« عن الكتابة والكلام »، (L'Ecriture et la différence, La Voix et la phénomène, De la grammatologie). وكانت سببًا للاحتفاء به خارج فرنسا، ولإغلاق باب الجامعة أمامه في فرنسا.
- ١٩٦٨: لقاءات متعدّدة مع موريس بلانشو[١١]، وعدة محاضرات في جامعة برلين وبداية تدريسه في جامعة جون هوبكينز في الولايات المتحدة.
- ١٩٧١: عاد إلى الجزائر لأوّل مرة منذ عام ١٩٦٢.
- ١٩٧٢: مجلة الآداب الفرنسية (Magazine Littéraire)، وجريدة « لوموند » أفردتا ملفًا خاصًا عنه في كل منهما.
- ١٩٧٥: أسّس « مجموعة البحوث حول تعليم الفلسفة » مع أصدقائه وطلابه،

وبدأ التدريس في جامعة « يال » في نيو هافن في الولايات المتحدة بصفة أستاذ زائر في العلوم الإنسانية .

- ١٩٨٠ : ناقش رسالة دكتوراة في جامعة السوربون، وحصل على دكتوراة فخرية من جامعة كولومبيا في نيويورك .
- ١٩٨١ : سُجن في براغ بعد إلقائه محاضرة بدون إذن مسبق، ومساعدته للمثقفين التشيك المعارضين والمقموعين، ثم أُبعد عن براغ بعد تدخل فرنسوا ميتران شخصيًا .
- ١٩٨٢ : مثّل في فيلم « الشبح يرقص » من إخراج كين ماكمولين . وذهب إلى المغرب عدة مرات بدعوة من صديقه عبد الكبير الخطيبي .
- ١٩٨٣ : أصبح أوّل مدير منتخب لكلية الفلسفة العالمية، وشارك في مبادرة تأسيس المؤسسة الثقافية المضادة للتمييز العنصري، وفي لجنة الكتّاب من أجل دعم نلسون مانديلا .
- ١٩٨٤ : مدير الدراسات في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية .
- ١٩٨٦ : تعاون مع المهندس الأمريكي بيتر أيزمان في مشروع حديقة مدينة العلوم في باريس (التفكيكية في الهندسة المعمارية) .
- ١٩٨٧ : مثّل في فيلم للفنان كاري هيل، وقرأ مع الممثلة كارول بوكيه مقاطع من كتابه (Feu la cendre, édition: Des Femme, 1987).
- ١٩٨٨ : سافر لثالث مرة إلى القدس والتقى مع مثقفين فلسطينيين من الأراضي المحتلة، وحصل على جائزة نيتشه في باليرمو، عاصمة إقليم صقلية في إيطاليا، وقد أُحدثت هذه الجائزة في العام ١٩٧٨ .
- ١٩٩٠ : محاضرات في أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي وجامعة موسكو .
- ١٩٩١ : عضو لجنة التوجيه في جمعية ديكارت .
- ١٩٩٢ : وسام جوقة الشرف برتبة فارس[١٢] .
- ١٩٩٤ : أصبح نائبًا لرئيس برلمان الكتّاب العالمي، وعضو المجلس العلمي لكلّية الفلسفة العالمية .
- ١٩٩٨ : توجّه إلى جنوب إفريقيا والتقى نلسون مانديلا .
- ٢٠٠٢ : عضو المجلس العلمي لقسم الفلسفة في دار المعلمين العليا في باريس .
- ٢٠٠٣ : مداخلة عن موريس بلانشو، ودكتوراة فخرية من جامعة كويمبرا (البرتغال) .

وأخيراً ذوت شمعة جاك دريدا في صباح التاسع من تشرين الأول لعام ٢٠٠٤ .

فيما يلي، نُدرجُ مقتطفات للفيلسوف نفسه، تُفيد فهمنا لعمله الذي انتهجه في رؤيته التفكيكيّة :

ما هي التفكيكية؟

يقول دريدا[١٣]: علينا ألاّ نفهم عبارة « التفكيكية »[١٤] بمعنى حلٍّ وفكٍّ أو هدْم. إنّها تحليل البنيات المتراكبة بالتّرسّب، والتي تُؤلّف العنصر الاستدلالي، والاستدلال الفلسفي الذي نفكّرُ بواسطته. ويتمُّ هذا من خلال اللغة، والثقافة الغربية، ومجموع ما يُعرِّفُ انتماءنا لتاريخ الفلسفة هذا .

كلمة « تفكيكية » موجودة سابقًا في اللغة الفرنسية، لكنَّ استعمالها كان نادرًا جدًا. وقد افادتني هذه الكلمة في البدء في ترجمة كلمتين: الأولى تجدها لدى هايدچر، وتتحدث عن « النّقض أو الهدم »[١٥]، والثانية لدى فرويد[١٦] وهي « الانفصام »[١٧].

وسرعان ما حاولتُ إبراز أنَّ ما أدعوه « تفكيكية » ليس مفهومًا هايدچريًا أو فرويديًا ببساطة، وتحديد بماذا تختلفُ عنهما. وخصّصتُ أعمالاً عدّة أشرتُ فيها إلى فضل فرويد وهايدچر، وفي الوقت نفسه، إلى انحراف مفهوم ما دعوته « تفكيكية » عن مفهوميهما. لا استطيع إذن شرح ما تعنيه « التفكيكية » بالنسبة لي دون أن أُعيدَ وضع الأشياء في سياقها :

ففي سنوات الستينات، هيمنت البنيوية، وكذلك علوم اللسان واللغة. وصارت اللسانيات مرجعًا لكل شيء، فانهمكتُ في عملي بـ« التفكيكية » التي كانت موقفًا اتخذتُه في مواجهة البنيوية[١٨] واللسانيات. وهنا بدات « التفكيكية » تؤلّف – ولا أقول ضدًا للبنيوية – ولكن تميُّزًا في مواجهة البنيوية، واعتراضًا على سلطة اللغة والـLogocentrisme (أوّليّة الكلام والصوت على الكتابة، والمدلول على الدّال) .

ولذلك فأنا دومًا مندهش وساخط أمام تكرار تشبيه التفكيكية بـ« كلّيّة لسانية »، أو شمولية لسانية، أو شمولية نصيّة! إنَّ « التفكيكية » تبدأ بنقيض ذلك تمامًا. كيف يتمُّ غالبًا اتّهام « التفكيكية » بأنها فكرة لا تنطوي على حقيقة الشيء، بل ليس فيها سوى اللغة والنّص – بالمعنى الضيّق – هذا تفسير خاطىء لا يمكن تصحيحه على ما يبدو!

لم أتخلَّ عن كلمة « التفكيكية » لأنها تنطوي على ضرورة الذاكرة، وضرورة إعادة الاتصال، وضرورة تذكُّر تاريخ الفلسفة الذي نعيش فيه .

لقد ميّزتُ باكرًا بين الإغلاق[19] والنهاية[20]. والأمر يتعلّق بتعيين إغلاق التاريخ – وليس مجمل تاريخ الميتافيزيقيا[21]. أنا لم أعتقد أبدًا بوجود الميتافيزيقيا، فهذا أيضًا حكم مسبق «غير مبنيٍّ على استدلال صريح».

هناك تاريخ وانقطاعات لهذه الميتافيزيقيا، والحديث عن إغلاق تاريخها لا يعني انتهاءه. فإذًا، تتموضع «التفكيكية» بين الإغلاق والنهاية، وذلك في إعادة توكيد الفلسفي بشكل يفتح سؤالاً على الفلسفة نفسها. ومن هذا المنطلق، فـ«التفكيكية» ليست ببساطة فلسفةً ولا مجموعة طروحات ولا سؤالاً عن الكائن بالمعنى الهايدجري.

وبشكل آخر، هي لا شيء من هذا.

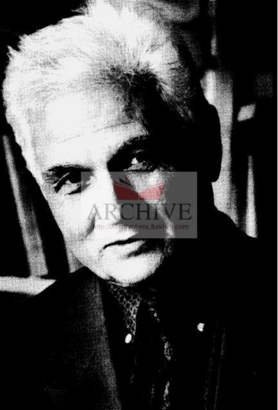
وغالبًا ما يُعرّفون «التفكيكية» على أنها منهج، أو يحوّلونها إلى منهج له مجموعة من القواعد أو الأصول التي يمكن تدريسها. بالطبع، يمكن أن يوجد انتظام في طرائق طرح نوع من الأسئلة ذات النمط التفكيكي، ومن هذه الزاوية، أعتقد أن هذا يمكن أن يكون له تأثير مادة تدريسية.. إلخ. وقد حاولتُ بنفسي التساؤل عمّا يمكن أن يكونه المنهج بالمعنى الإغريقي أو الديكارتي أو الهيغلي. إلاّ أنّ «التفكيكية» ليست تقنية لها ضوابط أو أصول، ولا يمكنها أن تكون مادة تدريسية أو منهجًا أو تطبيقًا لقواعد.

لو أردت أن أقدّم وصفًا مختصرًا وموجزًا عن «التفكيكية» لقلت بأنها فكرٌ عن أصل وحدود السؤال الذي هيمن طوال تاريخ الفلسفة: «ما هو؟». وكلّما حاولنا التفكير باحتمالية الـ«ما هو؟»، أو بطرح سؤال عن هذا الشكل من السؤال، أو التساؤل عن ضرورة هذا الكلام في لغة ما، أو تقليد ما.. إلخ، فما نفعله في تلك اللحظة لا يتطابق إلاّ إلى حدّ معيّن مع السؤال «ما هو؟».

وهذا هو اختلاف التفكيكية. فهي في الحقيقة استفسار عن كل ما هو أكثر من استفسار، وتستند إلى كل ما طلبه سؤال «ما هو؟» خلال تاريخ الغرب والفلسفة الغربية منذ أفلاطون إلى هايدجر. ومن هذا المنظور، لم يعد ممكنًا أن نطلب منها الإجابة على هذه الصيغة الشائعة لسؤال «ما هو؟».

ويُعرّفُ دريدا «التفكيكية» بإيجاز[22]: هي تحليلُ شيءٍ مبنيٍ، وبالتالي ليس طبيعيًا، مثل ثقافة أو مؤسسة أو نصّ أدبي أو نظام تفسير للقيم. والتفكيك ليس هدمًا وليس إجراءً سلبيًا، لكنّه تحليلٌ نَسَبيٌّ (خاص بسلسلة النَّسَب) لِبُنْيةٍ تمّ بناؤها ونرغب في تفكيك طبقاتها المتوضّعة بالترسّب، وفي فهمها بفصل الطبقات التي تؤلّفها من الأعلى إلى الأسفل.

كما يشرح دريدا أيضًا[23]: لقد رغبت في ترجمة واقتباس الكلمتين الهايدجريتين:



Destruksion, Abbau[٢٤] لاستخدمهما في شروحي. وكلاهما تدلاّن في هذا السياق على عملية تستند إلى البنية والمعمارية التقليدية لمفاهيم مُؤسّسة للانطولوجيا أو الميتافيزيقيا الغربية.

وفي محاولة لإكمال لوحة – لن تخلو من نقصان – عن جاك دريدا وفلسفته المنفتحة على المستقبل، لا بدّ لنا من التوقّف عند علاقة الادب بـ «التفكيكية»:

الأدب في قلب «التفكيكية»[٢٥]:

أبدى جاك دريدا منذ باكورة أعماله اهتمامًا خاصًا بالادب، فقام في كتابيه «أصل الهندسة لدى هوسرل» و«الصوت والظاهرة» بجعل الادب مرجعية أدخلها في قلب قراءة النصوص الفلسفية، وتابع ذلك في كتابه «عن علم النحو» المخصص في معظمه للفيلسوف روسو صاحب «دراسة حول أصل اللغات»[٢٦]، وكاتب «الاعترافات»[٢٧].

ومع توالي صدور كتب دريدا سيقوم الادب بمنافسة الفلسفة (ليقف جان جينيه في مواجهة هيغل) في كتاب دريدا «مارش جزين»[٢٨]، وبالإحاطة بها (لوترامون ومالارميه وسولر[٢٩] يحيطون بافلاطون في كتاب دريدا «البذار»)[٣٠]. وسيعلن الادب فيما بعد قراءته بطريقة مختلفة بين عامي ١٩٨٦ و١٩٨٨ بظهور أربعة كتب لدريدا، ولم تكن مصادفة أن تتضمّن ثلاثة منها اسم علم في العنوان:

Shibboleth pour Paul Celan (Galilée 1986)

Parage (Galilée 1986)

Ulysse gramophone. Deux mots pour Joyce (Galilée 1987)

Signéponge (Seuil 1988)

يصرُّ دريدا في كل قراءة له لاعمال الآخرين على فرادة كتابة المؤلّف وإعادة ابتكاره للّغة التي يكتبها، وعلى وحدانية توقيعه لما يكتبه. ويقدم لنا في الوقت نفسه قراءة لبعض الموضوعات النظرية (أي أسئلة لا تقتصر على نظرية الادب بل تتعدّاها لتشمل حقول العلوم الإنسانية الأُخرى: فلسفة، حقوق، علم نفس، أنثروبولوجيا، علم اجتماع ..). الموجودة في النصوص التي تمّت دراستها. فنحن إذاً إزاء مقاربة مزدوجة للنص. فدريدا يهتم بالشاعر وبما له علاقة باللغة التي يكتب بها سواء أكان يكتب شعرًا بالمعنى المتعارف عليه ضمن المؤسسة الادبية أم لا، وفي نفس الوقت يقوم دريدا بمتابعة تفكير نظري تمّ القيام

به احيانًا في موضع آخر (على النصوص الفلسفية مثلاً) .

ويرى دريدا انّ اللغة لها جوهرٌ طيفي، اي أنها لا تنفكّ عن تكرار نفسها كما هي عليه، وفي ذات الوقت لا تتوقّف عن الظهور مختلفة في كل مرّة. وعلى عاتق أولئك الشُّعراء الذين يعرّفهم دريدا تقع مسؤولية تمرير هذه الافتراضية الشبحية للُّغة: « الشاعر هو من يدع احداث الكتابة تنساب فتعطي جسدًا جديدًا لجوهر اللغة، وهو من يبرز هذا الجوهر في أعماله... وإبداع عمل ما، هو تقديم جسد جديد للُّغة تبدو من خلاله حقيقة هذه اللغة على حالها، تظهر وتختفي، تظهر بخلفية إيجازية ».

وهنا يجب استحضار مالارميه، يونج[31]، جويس[32]، أرتو[33]، سولان[34]، سيكسو[35] وغيرهم أيضًا لإظهار كيف انّ دريدا ولكل واحد منهم عرف أن يكشف بل يَفُضَّ لمسة عبقرية اللغة، والطريقة التي طبعتهم بها اللغة، وطبعوا اللغة بها.

ستتذكّر اسم موريس بلانشو وعنوان كتابه « لحظة موتي ». فقد قدّم دريدا لهذا النص تأويلاً جديرًا بالملاحظة لأهميته ودقّته. ولنتفحّص للحظة هذا التأويل الذي سيبرز الشاعر الذي يسكن موريس بلانشو. والامر يتعلّق تحديدًا بالاستفسار عن جملة ذات تركيب مُحيِّر: « ميْتٌ – خالد ». فالشُّحطة بين الكلمتين السابقتين ستستوقف دريدا: فهي تجمع وتفصل في آنٍ معًا، وتحديدًا – دون كلمة – موضع كل الأحكام المنطقية » (المسكن، چاليليه، ١٩٩٨).

وهذه الشحطة ستتقلّص لحظة الموت عندما تكون في نفس اللحظة: موتى وخالدين، وذلك لأنّ الموت لا يمكن ان يحدث بعد لمن مات. وبهذا سيتمكن بلانشو بطريقة بالغة الاختزال (كلمتان وشحطة) ان يختصر كل فكرة عن الموت وفعل الموت، والأهم من ذلك، أن يضع مفهومًا عن الخلود مختلفًا عما هو عليه لدى أفلاطون او المسيحية.

لقد تمّت إعادة تحضير وتحديد مفهوم النص في الفكر الفرنسي منذ نهاية الستينات. وقام دريدا بالتفكير به على أنه نظام للأثر لا يقتصر على الحقيقة المادية للنتيجة المكتوبة، وبشكل أكثر تحديدًا، فالأمر لا يتعلّق بقول انّ كلّ شيء كان يخصّ الكلام، ولكن ليس في حوزتنا سوى مدخلٍ نصيٍّ لما وراء الكلام. هذا هو معنى القضية الشهيرة « لا يوجد ما هو خارج النص ».

وتوالى عمل دريدا النظري في استجواب بعض الأمكنة الاستراتيجية لنصٍّ مكتوب: فقد أبرز وظيفة عنوان النص في كتابيه Parage (Galilée 1986), Préjugés (Minuit 1985)، وفي دراسة « جنون النهار »، لدى دراسة نص مختصر لكافكا[36] اسمه « أمام القانون »[37]، ودراسة خصوصية العلاقة بين العنوان والقانون.

كما قام في كتابه Signéponge (Seuil 1988) بتمحيص دور توقيع المؤلّف، فميّز ثلاثة أنماط من التواقيع:

اسم المؤلّف الذي يظهر على صفحة العنوان، وهو يحيلنا إلى شخص الكاتب. ثمّ الأسلوب بالمعنى الاصطلاحي للعبارة أي قرادة الكتابة (طول الجمل، المبنى التركيبي، استخدام الاستعارات. . .)، وهو يسمح بالتعرّف على مؤلّف النص. وأخيراً عندما يقوم النص نفسه بتسمية نفسه نصّاً (النصّ الذي يوقّع نفسه).

بيد أنّه لكي يكون التوقيع فعّالاً، علينا أن نعهد للقارىء المُفترَض بمسؤولية قبول استلام هذا النص، والتصديق على توقيع النصّ، وتوثيق التوقيع من تعرّفه على جنس النصّ.

ستكتمل مقاربة التوقيع هذه بإعادة تقويم مفهوم العمل الأدبي، ففي كتابه « ورقة الآلة » (جاليليه ٢٠٠١) يعيد دريدا قراءة روسو، ويبيّن كيف يمكن لنصّ روسو أن يعمل بصورة شبه آلية، أي بغياب كاتبه وبانقطاعه عن كاتبه: عندما يتكهّن روسو في نهاية كتابه « النزهة الثانية »، بأنّ كلّ شيء يجب أن يعود مجراه في النهاية، وأنّ دور روسو سيأتي عاجلاً أم آجلاً، فهو يعهد لنصّه بعناية السهر على الاعتراف بقيمته. وبمعنى آخر، فالنص سيعمل – منفصلاً عن روسو – لوحده مثل آلة؛ فالعمل الأدبي إذن هو نتيجة وأثر تتركهما عملية إنتاج مفترضة وهو سيستمر في الحياة بعد عملية إنتاجه وبعد خالقه المفترضين، فدريدا يتصوّر العمل الأدبي على أنّه ما بعد – الحياة، وعلى أنه مكان صلة بين رعاية المبدع والآلة، وبين قلبه والآلية.

ويقوم دريدا بمقاربة مختلفة لهذه الصلة الغريبة بدراسته لهيلين سيكسو، فيقول « إنّ عملها لقاء بين الكتابة المبنيّة على حسابات دقيقة واستراتيجية حريصة ومقصودة، وبين النّفس الأكثر عفوية للكلمة »، أي التقاطع والتشابك بين اليقظة والحلم، والعام والخاص، والمُتخيّل والواقعي، دون تمكننا من تعيين حدّ فاصل مؤكّد بين المزدوجات السابقة. فقراءة سيكسو تعني إذن مواجهة صفة مميّزة للأدب: عدم قابليّة البتّ بين السّرّ وتجلّيه، بينه وبين ظاهرته.

إنّ دراسة دريدا للنصوص الأدبية لا تقوده فقط إلى ميدان نظرية الأدب، فهو يتطرّق أحيانًا – وبفضل الأدب – إلى معالجة مشكلات فلسفية مثل الكذب. فقد اعتبرت تقاليد الفلسفة الكذب فعلاً مقصوداً لخداع الغير.

إنّ الكذب هو قولٌ أو إرادة – قول، فالأمر يتعلّق إذًا بفعل وليس بحدث. وانطلاقًا من هذه المقاربة التقليدية يستنتج دريدا استحالة إثبات أنّ أحدهم قد كذب، حتى لو استطعنا إثبات أنه لم يقل الحقيقة. فعندما يقول أحدهم: « أخطأت ولكنني لم أرد المخادعة، ثقوا

بنيّتي الحسنة »، أو « لقد حصل ذلك فعلاً، ولكنه ليس ما كنت أودّ قوله، لم أكن أنوي المخادعة، لقد حصل التباس »، فقوله هذا يمنع إثبات أي شيء يتعلّق بفعل الكذب.

تتلو هذه الأفكار التي تحاول مقاربة الكذب فلسفيًا، دراسةٌ لنفس الإشكالية في ميدان الادب. ففي كتابه « ورقة الآلة » يتحدث دريدا عن إحدى افتتاحيات كتاب روسو (« اعترافات »)، والتي تدّعي الصدق وبالتالي الالتزام المضمون بالصّحة وليس بالحقيقة الموضوعية، وهذا تناقض سينطلق منه دريدا ليعيد التساؤل حول خطابة الاعتراف والاعتذار.

كما درس دريدا أيضاً إشكالية الغفران وأشركها بتقاليد مسيحية، ولاهوتية–سياسية، لتصبح احد محاور قراءته لمسرحية شكسبير « تاجر البندقية ».

وكل ما سبق هو غيضٌ من فيض ولع دريدا بالادب الذي جعله في قلب عمله التفكيكي منذ أن بدأ التأليف وحتى أحدث عمل منشور له.

هوامش

١ كتب هذه المقدمة والبيوغرافيا التي تليها، ميشيل ليس، « المجلة الادبية » (Magazine Littéraire)، العدد ٤٣٠.

٢ Rousseau Jean Jacques (١٧١٢–١٧٧٨) فيلسوف وكاتب سويسري الأصل.

٣ Gide André (١٨٦٩–١٩٥١) كاتب فرنسي.

٤ Nietzsche Friedrich Wilhelm (١٨٤٤–١٩٠٠) فيلسوف الماني، قام بنقد جذري للفكر الغربي والاخلاق المسيحية.

٥ Valéry Paul (١٨٧١–١٩٤٥) شاعر وكاتب فرنسي.

٦ Camus Albert (١٨٨٩–١٩٦٠) كاتب فرنسي وُلد في الجزائر.

٧ Kierkegaard Soren Aabye (١٨١٣–١٩٥٥) فيلسوف دانمركي.

٨ Heidegger Martin (١٨٨٩–١٩٧٦) فيلسوف الماني.

٩ Sartre Jean Paul (١٩٠٥–١٩٨٠) فيلسوف وكاتب مسرح وصحافي وروائي فرنسي.

١٠ Althusser Louis (١٩١٨–١٩٩٠) فيلسوف فرنسي ومنظر الحزب الشيوعي الفرنسي. في عام ١٩٦٨ اختلف مع قيادة الحزب. وفي عام ١٩٨٠ تمّ إدخاله إلى مصح نفسي بعد أن قام بخنق زوجته.

١١ Blanchot Maurice (١٩٠٧ – ٢٠٠٣) روائي وكاتب ومفكّر فرنسي.

١٢ Légion d'Honneur وسام جوقة الشرف، وضعه نابليون عام ١٨٠٢. ومرتبة الفارس واحدة من خمس مراتب لهذا الوسام.

١٣ أجاب جاك دريدا على هذا السؤال إجابة شفوية طويلة، خلال مقابلة لم تُنشر سابقًا جرت بتاريخ ٣٠/٠٦/١٩٩٢ ونشرت «لوموند» هذه الإجابة في العدد ١٨٥٧٢ الصادر بتاريخ ١٢/١٠/٢٠٠٤.

١٤ Déconstruction.

١٥ Destruction.

١٦ Freud.

١٧ Dissociation.

١٨ Structuralisme.

١٩ La Cloture.

٢٠ La Fin.

٢١ Métaphysique (méta-physique) أصل الكلمة (ميتا–فيزيقيا)، وهو عنوان كتاب لأرسطو – حيث تعني ميتا: بعد، ما وراء، أي ما يأتي بعد كتابه (الفيزيقيا: الطبيعيات)، وتُطلق الكلمة على كل ما يتجاوز مضمار التجربة ولا تمكن معرفته علميًا، وهي تشير إلى:
– الفلسفة التي تُعنى بالمطلق (الله)، والأشياء التي تتجاوز التجربة (الروح، الخلود. . .).
– فلسفة الكائن بوصفه كائنًا (الأنطولوجيا).
– لدى « كانط » ميتافيزيقيا الطبيعة أو ميتافيزيقيا الأخلاق: وهي قسمٌ من مجالات المعرفة، عقلي بحت، مع الاحتفاظ بفكرة الاستقلال النسبي عن التجربة.
– لدى الوجوديين: تفكير شامل عن وجود الإنسان في العالم.

٢٢ في مقابلة معه نشرتها مجلة «لوبوان» في العدد ١٦٧٤ الصادر بتاريخ ١٤/١٠/٢٠٠٤.

٢٣ في رسالة إلى صديق له ياباني، يشرح دريدا كيف خطرت له فكرة التفكيكية (منشورة في كتابه: الروح، ابتكارات الآخر، جاليليه، ١٩٩٨).

٢٤ كلمة ألمانية تعني التفكيك والهدم.

٢٥ بقلم ميشيل ليس، «المجلة الأدبية» (Magazine Littéraire)، العدد ٤٣٠.

٢٦ Essai sur l'origine des langues.

٢٧ Confessions.

٢٨ Glas, Galilée,١٩٧٤.

٢٩ Lautréamont, Mallarmé, Sollers.

٣٠ La Dissémination. éd. Seuil,١٩٧٢.

٣١ Ponge Francis (١٨٩٩–١٩٨٨) شاعر فرنسي حاول في شعره إلغاء المسافة بين الكلمة وما تدل عليه.

٣٢ Joyce James (١٨٨٢–١٩٤١) كاتب إيرلندي، مؤلّف « يوليسيس »، التي اعتُبرت من أركان الادب في القرن العشرين.

٣٣ Artaud Antoine (١٨٩٦–١٩٤٨) شاعر وكاتب مسرحي وممثل فرنسي، كانت نظرياته وأعماله منطلقًا لتطوير تيار المسرح التجريبي.

٣٤ Celan Paul (١٩٢٠–١٩٧٠) كاتب فرنسي من أصل روماني.

٣٥ Hélène Cixous (١٩٣٧–) مفكرة فرنسية وروائية وكاتبة مسرح.

٣٦ Kafka Franz (١٨٨٣–١٩٢٤) كاتب تشيكي، وُلِدَ في براغ في فترة الهيمنة النمساوية – الهنغارية، كتب أعماله باللغة الألمانية.

٣٧ Devant la loi.

نقله من الفرنسية: انس الحكيم – باريس / فرنسا



فــوزي كــريم

قصائد

تمضي الرسائل

لمَ أكتبُ وحدي الرسائلَ في كلِّ شهرٍ؟
أحاولُ أنْ أستجيبَ لصمتكِ.
إذ أدّعي أنْ صمتكِ أبلغُ ممّا أحاول.
في كل شهرٍ أضم إلى اسمكِ في أول السطر ما أشتهي من خصالكِ:
سيدةَ الشوق، والياسمين، وقداحَ سور الحدائق.
حتى إذا ما تندّت زجاجةُ نافذتي من بخار فمٍ، قلتُ:
أنفاسُ سيدة الشوق؟
لكنّه الليلُ، أنفاسُ تلحّ من الليل باردةً.
ثمّ أنهي الرسالة.

بعد ثلاثين يومًا أحاولُ أن أستجيبَ لصمتكِ ثانيةً.
أدّعي أن صمتكِ أبلغُ ممّا أحاولُ.

تمضي الرسائلُ من طرفٍ واحدٍ.
ويواصلُ صمتُكِ من طرفٍ،
وتراوحُ بينهما دورةُ الأرض،
والشمس.
حتى التواريخ تُكتبُ باسمهما،
وتدولُ الدولُ!

(٢٠٠٢/٥/٤)

قد يعبرُ جنديٌّ

عشراتُ جنودٍ بلثامٍ، يلجون مراثينا، كهواءٍ باردْ
في كهفٍ. همْ يلجون مراثينا بلثامْ.
شُعثًا، صدئين بفعل الزمن، عراةَ الأقدامْ!
نسجوا تاريخًا مثلَ شباكِ الصيدِ،
نهرًا بالماء الراكدْ.
والصدأ، تأملْ خضرته، وخشونةَ ملمسه الخالدْ،
يعلو أطرافَ أصابعهم ومرافقهم!

بيتي تسكنه اللحظاتْ
في هيئةِ كتبٍ، أوراقٍ، لوحاتْ
تنتفض بفعل اللمسة! أحيانًا
قد تُقبلُ ريحٌ! أحيانًا
قد يعبرُ جنديَّ!
(٢٠٠٢/٢/٢٥)

قارئٌ في الظلام

أنتَ تحرصُ في ساعةِ النومِ أنْ تُطفئ الضوءَ،
أنْ تتأكّدَ باللمسِ من قُفلِ بابكَ،
من أنَّ نافذةَ البيت مسدلةُ الستر.
تقفزُ كالقطّ فوق السلالمِ،
تندسّ تحتَ الفراشِ،
وتحلمُ:
أنَّ الكتابَ الذي كنت تقرأه فوقَ مقعدكَ

الآن يُفتحُ ثانيةً في الظلام،
وأصابعُ أُخرى تقلّبُ أوراقه.
ان عيناً تُديم النظر
في الفراغ المدوّم بينَ السطور!
(٢٠٠٢/٦/٢)

الدورةُ الدامية

اعوفُ مدينتي لكُمُوا،
وأخرجُ هاربًا بدمي.
فكمْ أدمت ثيابكمُ الشعائرُ والطقوس!
وها أنتمْ، على عجلٍ
تعيدون القتيلَ بهيئة القاتل،
وما أن تنضجَ الثمراتُ حتى يكثر القتلى
بهيئة قاتلين!
وإذْ يحين قطافُهم يُستبدلونَ بهيئةِ القتلى!

بذا تقضي الفصولُ، تعيدُ دورتها، ولا تَبْلى!
(٢٠٠٢/٩/٥)

إلى بدر شاكر السيّاب

حين عرّيتَ جرحَكَ بدرُ، وضمّدتَ جرحًا سواه
هُدِمَ السورُ بينكَ، بدرُ، وبين الإله!
وأنا، منذ عريتُ هذا الجسدْ
في الولادةِ، لم أحتملْ
حرقةَ الشمسِ في وطني،
وجليدَ المنافي الغريبة.
ولذا ظلَّ بيني وبين إلهكَ يا بدرُ
ظلُّ احتراسٍ وريبة!

أأنا شاعرٌ،
وإذا كنتُ، من يختبر قدرتي
في احتمال الخسارة واليأس؟
تصطحبني حفنةٌ من قصائد أندبُ موتاي فيها.
وعلى كاهلي يقفُ النسرُ أحدب،
أوهنه الطيرانُ بلا هدف.
ولذا،
أيّ سورٍ سيهدمُ يا بدر؟!
(٢٠٠٢/١١/٢٧)

الغزاة

في الليل أُطفئُ كلَّ ضوءٍ،
أترك الشباكَ دون ستارةٍ،
وأُشرّعُ الأبوابْ.

إني أعرِّضُ للغزاة خرائبي:
كتبًا، ومحبرةً، وأشباحًا تبادلُ بينها الانتخابَ،
وأجرُّ ذيلَ ردائي الملكي،
تتبعني التماعاتُ النجوم على السلالم،
دون حراسٍ ولا حُجّابٍ.

ارقى، فينكشفُ الحجابُ.

اختارُ من شبكِ المجرّةِ ما يطاوعُني
لكيْ أفنى
بظلمةِ ليلها الجذّابْ.

(٢٠٠٣/١/١٥)

بقاليةُ الرسائل المنسيّة

وأنتَ، يا صاحبَ بقاليّة الرسائل المنسيةِ،
ومخزنِ الكافورِ، والمحظور من قوائم القتلى،
الم يعد إليك جنديٌّ، ومجهولٌ بلا هويةٍ؟
وفاقدٌ في السر أذنًا وفما،
وسائلٌ، دون ذراعين، عن الماضي الذي
عانقه يومًا، وولّى بهما؟
صيادُ أسماك على راحته
يعيدُ مجرى مائه الذي طما
يومًا، فما أغرق غير زورقه؟

سيزهرُ التوتُ، ويحلو التمرُ،
والنارجُ يستلقي على أسوار بيت الجار،
كالأقمار،
والفُجْلُ الذي في قبضة الآباء في عودتهم عصرًا!
سينحلُّ إزارُ امرأةِ الحيِّ وتُشفى عللُ الشبان.
ما أروعَ هذا الصيف؟
(٢٠٠٣/٦/٨)

رائحةُ التوت

من منّا ينتسبُ لبعطر:
هلْ أنتَ، بهذا الوجه المتغضّنْ؟
أم نحنُ، رعاة طريقِ اللاعودة؟
أم أنّ كلينا، يا بغدادُ
ينتسبُ إلى الجلادْ؟

رائحةُ التوتِ على أرداني ما زالت،
لكن التوتَ تلاشى! والأسماكُ
ما عادت تخترقُ التيّارْ.
بل صارا ينحدران معًا للبحرِ
كما تنحدرُ الأنهارْ!
من يكسبُ قوتَ غدٍ
من ذاكرةٍ تُخصبُ تربتَها الجثثُ؟
ومنْ ينتصرُ على حاضره بعصا الترحالْ؟

ما بينَ العالمِ كابوساً
والعالمِ ماءٌ وظلالٌ
تنفردُ قصائدُنا،
كحدودِ دفاعٍ من أسلاكٍ شائكة!
(٢٠٠٣/٦/٩)

عند باب گاردينيا

عندَ البابِ المُغلقِ من واجهةِ گاردينيا
رجلٌ، بقيافةِ كهلٍ متقاعد،
ينتظرُ. أنا الآخر،
بقيافةِ كهلٍ عادَ من المنفى تواً،
قرفصتُ على بُعدِ ذراعينِ
منه، ولم أمهلْه: «أتعرفُ موعدَها؟»

«خمّارة گاردينيا كانت
مرتادي قبلَ الحربِ، ولي فيها
زاويةٌ وندامى. بعدَ الحربِ طواها النسيانُ.
وأنا أرتادُ مكاني هذا منذُ زمانٍ،
أنتظرُ الموعدَ».

مدّ يداً بلفافةِ تبغٍ، ثم مددتُ يداً.
وانتشر دخانٌ حجبَ الناسَ
عن رؤيةِ رَجُلَيْنِ أقاما
عند البابِ المغلقِ، فوقَ رصيفِ «أبي نواس».
(٢٠٠٣/٧/١٢)

التلميذُ العاقّ

سنواتٌ حُزْنَ وهو يصغي
لي مثل الأشجارْ
تصغي لفصول السنةِ. معي
قطعَ التيارْ
للنبع. ولم يُمهلني حتّى في القيْلولةِ،
يُملي عن فمي المتعبِ ما لا يُفهمْ.
يكثرثُ كمنْ يتكتّمْ.

في يومٍ من أيام الشيخوخة،
داهمني أزرقَ كالياقوتْ.
جرّدني من عمّةِ رأسي،
ألقى في وجهي حبرَ دواتي، ونشارةَ قرطاسي،
وارتحلْ، كمنْ معْ قدرٍ موقوتْ!

سنوات حُزْنَ ولم تنقطع الأرجلُ عن داري
تعزيةً. كنتُ أُجاريهم
عن غير رضا.
فأنا، مُذْ حطّم متّكئي
في ركني الأعزلِ ومضى،
أبصرتُ على آثارِ خطاه
دربًا للحكمة آخرَ، غير دواتي والقرطاس!
(٢٠٠٣/١٠/٢٢)

السّحليّة

ودخلتْ سحليةُ الرمالِ بيتي.
مدخلُ السّحالِ مكفولٌ، فبيتي
آخرُ استراحةِ الرسولْ.

قطعتُ إنشادي على الفراغ،
ورحتُ أصغي لخطا السّحليّةِ المُملاةْ
من شفةِ الغيبِ: «أنا السّحلاةْ،
مذْ نفذ السم بجسمي، أوهنت جسمي التنهُّداتْ!

الشعراءُ بلغوا مشارفَ الضوء،
ومن مشارفِ الضوءِ سيسعَون إلى مشارفِ الكلامْ!».

وأنتَ، ما أعددتَ للرحلة غيرَ عُدَّةِ الطعامْ
وهذه العكّازِ، والمشكاةْ؟

(٢٠٠٤/١/٢٧)

سأعود غداً

سأعودُ غداً، أو بعد غد
وأعيد السمكَ من الحوض الرّاكد
لمياه التيّارْ،
وغنائيَ في منفايَ إلى الحمّارة:
«يا حمارْ
عزّيني من وطأةِ ذاكرتي، عزّي الفتيانْ

من وطأة موتاهم!»

ما أطولَ دربَ العودة يا بغدادُ؟
ما أعمقَ رائحة الجلادُ
بين غضونكِ؟
ما أطولَها سنواتُ المنفى من دونكِ؟
طمّعني ربعُ القرنِ بأن أختلق بديلاً عنكِ
فهلْ رمادُ
من رأسي.
ثم الفتُ رسولكِ، طارقَ بابي في منتصف الليل؟

ذاكرتي قطعتْ حبلَ الوصلِ مع الزمنِ العابرْ،
وانتبذتْ بيتاً في «مرتفعِ التل»:
لا يرقى الطيرُ إليها، أو يتحدرُ السيلْ.
ستكون ومبطي، حين أعود،
وأنيسي، حين يضيقُ على عنقي
حبلُ الحاضرْ.

(٢٠٠٤/٣/٩)

المدينة الغائبة

بعد أغادير

(١)
كأنني أدخلُ في المدينةِ الغائبة
مدينةٌ وطأتُها، فعادني صوتُ أبي العلاءْ:
« ارحْ عظام أهلكَ القتلى !
أرحْ عظامَ أهلكَ القتْلى ! »
وكنتُ مأخوذًا بما يرجع من مراكبِ الصيد
من الأصداءْ،
والسمكِ الحيِّ، الذي سرعان ما يُقلى :
« اللحم لابنِ آدم، وفُضلةُ العظام
للقطط السائبة ! »

كأنني أدخلُ في المدينةِ الغائبةِ،
أقفزُ من لائحة السوّاحِ في مرضى أغادير،
وأعدو .
كم على الإنسان أن يعدوَ كيْ يفقدَ ظلَّه؟
وكم عليه أن يُحبَّ
كيْ يعيدَ سحنةَ الرضا إلى الشتاءْ؟
وكمْ عليه أن يخفّف الوطأَ لكيْ يُرضي أبا العلاءْ؟

كأنني أقفزُ من مراقدِ الموتى على الميناءْ!

(٢)
منذُ صبا ١٩٦٠
أصابني الصدعُ الذي حلّ بهذي الأرضْ

مذْ حلّ بي الشعرُ، الذي أيقظني من حلُمي المكتظْ
بالوهم، ثم قادني لموطنِ السريرة.
وقال: إنَّ من رحى السريرة العمياءْ
تنبعثُ الهزّةُ: أحياءٌ إلى موتى، وأمواتٌ إلى أحياءْ.

يا وطني الغائمَ خلف الماءِ والنخيل
وخلف هذا الشبح المخمورْ
بالقتلِ، والقاتلِ، والقتيل
ويا شبيهي، كم على الرحى تدورْ،
تبعث بي جعجعةُ الشعر، وفيك زحمةُ القبورْ؟!
وليسَ من بديل،
يا وطني الغائمَ خلف الماءِ والنخيل.

(٣)
جدي يديْ، فبهما مرسىً لا وهامك يا جديجة
وخلّدي، مرقد أحيائك
واصغي إلى الرحى تدورُ في كلينا:
جسدي المحتلّْ
بالشعر، يسعى في الضلال أشعثَ الشعر،
وهذا التلّْ
يبلغُ ساحلَ الأمانْ
في لحظة غافلة من الزمانْ.
(١٤/٥/٢٠٠٤)

قصائد مختارة من مجموعة «آخر الفجر» التي ستصدر قريبًا عن «دار المدى»، سوريا

شاعر عراقي مقيم في لندن / المملكة المتّحدة

طه محمد علي

قصائد

ليسَ إلاّ

التغيُّرات التي تعرَّضتُ لها
في بَدَني
بعدَ أن وَضَعْتُ قدَمي
في السّتينات
من عُمري،
كانت معدودةً وعاديّةً.
بضعُ تغيُّرات وليس إلاّ:
ضَغْطٌ يُضاغطُ لاسُكّريٌّ،
التهابٌ مُقيمٌ في المَفاصِل.
اضطرابٌ مُزْمِنٌ
في عصارات كوكَبةٍ من الغُدَدِ الاساسيّة.
قُضٌّ فمي
ثِقْلَ سَمْعي
خلَلٌ جذريٌّ
في رؤيايَ عبْرَ نظّارات سميكة.
الاعتمادُ الكُلّيّ على العُكّاز
حتّى، عندما اسعُل.
ارقٌ مَجُوسيٌّ لا يَخْمَدُ
في ليلٍ اسود اسودْ

أطولَ من شَعر ستّين غولة.
بضع تغيُّرات، كما ترى،
إلى جانب عضلة قلبي الغريبة.
أيضاً مُلاحظة حالات عامّة مُلفِتة:
من فئة لُجوئي إلى استعمال التّعبير:
«فُضْ فمي»
بَدَلَ القَوْل:
«سَقَطت أسناني».

بين النوم واليقظة

هي، في أحَد أصباح
أوائل أيّام نيسان
من كلّ تتالي سنيّ الثلاث
أو أربع السّنوات الماضية
تستدعي..
بصوتها نصف النّائم
من طريقٍ أمامَ بيتنا
مُحبّي الكُلاّج
وعشّاق العَسَلْ:
«كُلاّج وعَسَلْ نَحِلْ للبيع
كُلاّجْ، عسَلْ
عسَلْ، كلاّجْ».
*
أنا، في فراشي
لا نائمٌ أقصى النوم

ولا يقظني تُحيقُ بنواحي اليقظة
أُدمنُ سَمَاعَ ندائها الحميم
أتوقّعُه بلَهْفَةٍ
أتشوّق إليه .

*

بعد أن انتظرتها
دون جدوى
طوال صدور الغُرّةِ
من أيّام هذا الشهر
تجَمّعَ في وعيي
أني حُرِمْتُ
جنّةَ ذاك الشّدوِ
في هذه السّنة؛
فانتابتني الظنون .

*

. . .
ولما وقَعْتُ على أننا الآن
ما زِلْنا في باحة أيّام آذار
ضُمّخَ صباحي
بطيفِ صوتِها العذْب
نصفَ النّائم
القادم بعد شهر:
أحسَسْتُ أنّ سَنَا رشفة العسل
يسري، فعلاً، في روحي
وأشْرَقَتْ بذاكرتي
نكهة الكُلّاْج إيّاها
فيما أنا . . كالعادة :

مستيقظٌ عبْرَ بياضِ أشْرِعَةِ النّوم
نائم في ظلّ لُجّة اليقظة .

قبل ذاك . . . ومن بعده

كنتُ دائمًا أغبطُ أحدَ معارفي على حكمته وبُعد نظره، وحُسن تصرّفه في الحياة . وأذكُرُ أني سمعتُه مرّةً يقول : – إذا أردتَ أن تتزوّج فلا تبحث عن الجمال وحده – إلا إذا كنتَ تنوي أن تجعل من شريكة حياتك القادمة بَغيًا أو راقصةً! – بل ليكن شرطك أن تكون أمَّ أبنائك العتيدة، فاضلةً مقبولةَ المظهر .

وَهمّني أن أسأله بعد أن بلغني أنّه قد تزوّج، عمّا آل إليه انتقاؤه، فأجابني :

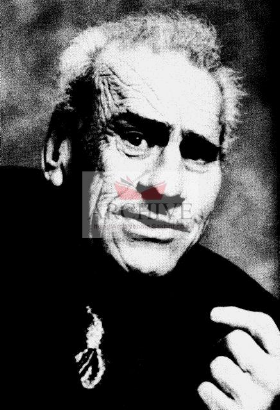
في مشاوير أيام الخطوبة
كنتُ أقبض على يدها
حذرَ أن أفقدها في الزحام . .

. . .

في سَيْرِ ما بعد الزواج
هي تَتشبّثُ بيدي
فأنزعُ يدي من يدها
أملاً في أن تبتلعها غيلانُ الظلام!

(الناصرة، ١/٥/٢٠٠٤)

شاعر فلسطينيّ من صفّورية، مقيمٌ في النّاصرة



صـــالـــح ديـاب

قصائد كوفونيشي
(إلى إيناس المُعْتَمري)

راسِيًا بين القصب والرّيح

ما الذي
تفعلُه هنا
أيُّها الغريبُ
راسيًا
بينَ القصَبِ والرّيحِ
صمتُكَ
ينهبُه القراصنةُ
وفي الكُتُبِ
يرقُدُ إخوتُكَ
مجذافُكَ الكبيرُ
يتحطَّمُ
وفوقَ غيابكَ
تنبتُ الأعشابُ
رسائلُكَ الكثيرةُ
لا تصنعُ مرفأً
وَندَمُكَ
يتكَسّرُ
إلى أمواجٍ
على كتفيكَ

آحادٌ ثقيلةٌ
وفي يديكَ
هادئةٌ
تبيتُ العتمةُ
ها انتَ تخرجُ
من كهفٍ إلى كهفٍ
لتزرع أملاحًا
على الصّخورِ

يدفنون الغابةَ والحجارةَ

تعبتُ
من حمل يديّ
واسترحتُ على صخرةٍ كبيرةٍ
في صَمْتي
إنّها الجلبَةُ
التي تُخلّفها الغبطةُ
وهي تغادرُ بحليِّها وعقودِها

هُنا
في مثلِ هذه البلاد
حيث يدفنونَ الغابةَ والحجارةَ
لا يعني شيئًا
ان تُرْسِلَ يَدَكَ
مع التّحيّةِ
ان تطيِّرَ شفتيكَ

مع القبلةِ

فتحتَ كيسَ الجدّةِ
المغلق
أو سحبتَ الزرقةَ
إلى الكَنيسةِ
الميّتونَ
لا يفكّرونَ
إلاّ بالأزهار

كبشًا لأجلِ عَرَقِكَ

أحلقُ ذقني
واصعدُ باكرًا إلى الزّرقة
شهوتي
تسعى على الصَّخورِ
ومنارتي
متشقّقةٌ لفرطِ الملحِ

أرسلتُ أنفاسي
في قاربٍ
أو ذبحتُ كبشًا
لأجلِ عَرَقِكَ

الكنيسةُ
في أعلى الجزيرةِ

ولن تنتزعَ منّي محارتك

هي ذي أفكارُك
تينةٌ لكلّ ليلٍ
مَغارةٌ لكلّ بحرٍ
ولهفتي
تندفعُ نحوك
كما سلسلة جبليّة
إلى البحرِ

تُغادرُها زوارق كثيرة

كلامي على الزُرقة
تصعدُ إلى يديك
حينما صمتُك
يحلّق منخفضاً
أعلى قليلاً من لهفتك
تلك ثيابُك
تحتَ الجُرُف
والنّوارسُ تعلّقُ أفكارَك
على الصّخور
تؤلمُني الزّخارفُ والنّقوشُ
وليسَ بوسعك تربيتها
في مفكّرتك
تعبُرين التماثيلَ المكسورةَ
ولَمْسَتُك بئرُ الجزيرة الوحيد

دمعةٌ تَسقُطُ منكِ
تغادرُها زوارقُ كثيرةٌ
في الأشجارِ
يحطّ نَعَسُكِ
ومن غفوَتكِ
يَنسلُ البحرُ المناديلَ

* كوفونيسي : إحدى جُزُر السيكلاد اليونانيّة .

شاعر سوري، مقيمٌ في باريس / فرنسا

عائدة حسنين

قصائد

حين أصحو

ومن شدّة الشوق
حين أصحو من سُباتي مع منامي
يصحو قلبي
وطيور الصُّبح تصحو
قرب مائي
ولنفس خاوية
فارغٌ قلبي
لستُ أميرة هذي الدروب
ولا عَرْش تحتي

الحكاية

عذبٌ ومالحٌ
مالحٌ وعذبٌ
الماء منهمرٌ
ولا جدرانٌ
غيمٌ
وبحرٌ
وأقوالٌ

وفضاءٌ
ومطرٌ
وفراغٌ
ومللٌ
وحيرةٌ
وضبابٌ
اقتربنا للحكاية في الحكايةْ
لا أوّل للحكايةْ
ولا آخر للحكايةْ
نحن أبطال الحكايةْ
نحن أحلام صغيرةْ
والقلوب هي الحريقْ
والدّموع هي المرايا.

دوّامة

ويدخلُ الشعراء في دوّامة الشعر
وتدخلُ أقدامي الحريق
فالرُّوح ظمأى
والشّعر يأتيني وأتركهُ
إلى الدوّامة الكبرى
لأبقى ههنا وحدي
الرُّوح ظمأى
والأحباب في البُعد
وأيامٌ ربّما تأتي
والشّعرُ يجلسُ

والحقائبُ
والكتبُ
والحبُّ يهنأُ بالحبيبْ
وأنا بالشعرِ أهنأُ
تهنأُ مقلتايَ!

الشّجرة

تلالأ الصبحُ
وقلبي زغردَ
ودمي
لخضرةِ الشّجرةِ
وحبّاتِ النّدى
والنسمةِ الباردةِ!

الغيم

الغيمُ فروٌ سماويٌ
قطيعُ خراف طائرٌ في الرّيح
فوق الطبيعة
مرعاهُ السماء!

صُحْبَة

النحلةُ رفيقاتُها الوردةُ
والنّسمةُ
وقطرةُ الماءِ
وأنفاسُ الرحيق!

نحلة

حرف الزّين نحلة لغتي
وأمّا الضاد فَسِرُّ النّاي!

الضوء

قلبي مولعٌ بالضّوء
محترقٌ
فراشةٌ
والضُّوء أخضر
وهذا القلب تأسُرُه البسمات
عشقُ العشق
والرّجفات
زحمة اللّمعان
وعطر الحياة
والسّماء
وأسرار النُّجوم!

مَلِكُ الكلام

إليك يا ملكَ الكلام
روحُ الأسئلة
واللّحظة المشتعلة بلون الماءِ
وبراءة الحديقة
في خاطري
فلماذا أنتَ مهموم – ولا تبكِ – إلى اللُّغةِ
فتُحبّيكَ
وتشفيكَ
وتأسركَ
وتحضنكَ
فتحترقُ
وتسكن في الغمامْ
أو هنا من أعلى الأرض يأتيكَ الغمامْ
يغطّيكَ فلا تغرقْ
ولا تحزنْ
وتنامُ في قلبِ الغمامْ
مطراً تكونَ
أو سربَ حمام!

حوار

ويشيرُ إلى الدّم القتيل بسألهُ
لِمَ أنتَ قاتلي أيها المقتولُ؟
أم هو الخوف من خوفي

ومشنقتي
ومن دربيَ الحزينةُ
الشوك والسّكين
والنار والماضي والموت
والمذبحةُ
في المرآةِ
وفي دمي القتيلُ
يقول قائلٌ في حديثٍ
مع مراياهُ!

على لسان امرأةٍ شرقية

وإذ إني هنا بالقرب تأسرني
وتسلبني إرادتي
هنا قربي وإذ فاحت محبتنا إلى الورد
أنا والقلبُ
ودمائي
تعاتبُني
وتحرمُني من الفرح!
وحين عرفتَ أسراري أنا والوردُ تقتلني
وتكتمُ كلَّ أنفاسٍ من الزهر
وحين عرفتَ أسراري
أنا والصُّبحُ
أقسمتَ
على موتي
وقطف جميع بسْماتي

ووروداتي
وهدم حديقة القلب
وقذفني بالمسبّاتِ
ونعتني بالخياناتْ
أهذا الحبُّ في الشّرق؟
فماذا يبقى للموتِ؟
وماذا يبقى للقتلِ؟
وماذا يبقى للثأرِ؟
إذا ما نحنُ نحياهُ
هوُ الحبُّ!

شكوى من صديقة

قد كنتُ أرعى بستر الله مع غنمي
وراء الغيم
والماء.
وراء العشب والمرعى
وحقل اللون
لا ذئبٌ
كما مع يوسفَ الصديق
كان الخوفُ أكذوبةْ
بناتُ الحيِّ أقسمنَ على موتي
وأقسمنَ على نصحي
على القسمةْ
وتعذيبي
فجاء الذئب في داري وحطمني

وصار الخوفُ قنديلي
وعتمةُ كل أيامي
ولا شمسٌ
ولا قمرٌ
ولا نجمٌ.
يُنَصِّبُ نفسَهُ القارسْ
يُنَصِّبُ نفسَهُ الحارسْ
على سجني
على همسي
على شرياني النابض
وأوردتي
ولا حقلٌ
ولا غيمٌ
ولا لونٌ
ولا ماءٌ
ولا حلٌ.
هو الشّرقُ
ومعه الاهل
والأديانُ
والعُرْفُ
هو القَدَرُ!

نشيد

البكاءُ حديثُ القلبِ
وصرخةُ الأحياءِ

دمعٌ ينزلُ
صافيًا
بحرًا
ونشيدُ الألمِ!

لاجئ

سوف احضنُك يا وطني
قرابينَ أكونُ للشموعِ
تفتاتُ على دميَ الشموعُ
وسط الزّحامِ
وهذي النارُ
وهذا البؤسُ
وهذا الفقرُ
فلربّما
لو طار عظمي
وفُتاتُ اللّحمِ مني
في الشوارعِ
حصد الأولادُ بعدي
ثمنَ بيتٍ
وطعامٍ
ودفاترَ
ونجوتُ!

بطعم الملح

في البحرِ أطيارٌ
وأجنحةٌ
وأشجارٌ
وأصدافٌ
ومَرْجانٌ
كأنَّ الماءَ موطنها
ومأواها
وملعبها
وكأنه جوٌّ وأرض وسماء
بطعم الملح
وتحت الماء
هذا البحرُ!

الجار

كان الجار يضربُ زوجه ليلَ نهار
يقتلها
فتحاولُ قتلهُ
عشرة أولادٍ وبنات
في المتجر يعمل
في المجر
في البحر
وفي السيارات
لا يُشبع أولاداً عشرةً

أو يَشْبَعُ يومًا من قوتٍ
قد كَبُرَ الجارُ و قد صَغُرتْ
ترفلُ في الراحةِ والنّعمةْ
سيدةُ الأولادِ العشرةْ
والزّوجُ أسيرُ الطلباتِ!

(من مجموعة شعرية قيد النشر بعنوان «عناق الوردة»)

شاعرة فلسطينيّة مقيمة في غزّة / فلسطين

الضُّيُوف

هُنا..
حيثُ لا أستطيعُ اصطيادَ ضُيوفِ الشُّرفَاتِ
دُونَ إبرِ الرَّحيقِ
.. ولا يأتون؛
أمرُرُ نُعاسَ الهَواءِ
تحتَ
قَصَبتي
كَعصفورٍ سنُّورٍ يُحاولُ نَجاةً
في دَغلِ سيقانٍ طينيٍّ
لعلَّ هداهُ نيسانيةُ الكَذِبِ، تُوقِعُهُم
صنفًا.. صنفًا
بينَ حشائشِ العَتَباتِ
وَ
قَواريرِ المنزلِ الغَامِضَةِ.
هكَذا جاءَ في تفسيرِ سِفرِ السَّفرِ،
هُمْ.. ما جاءوا!
*
لَهاتِفي تُغادرُ منفضةَ الوقتِ
إلى
ضحكةِ سُعالٍ..
على الضّفةِ الأخرى للهاتفِ
تَثِبُ ثَعالِبُ اللّومِ

مَوجَةٌ . . مَوجَةٌ
دَاخِلَ جَرَسِ الأُذن . .
الآنَ يَتَّصِلُ الضُّيوفُ
. . ولا يَصِلُون؛
كأنَّهم أشواكُ لَذَّةٍ
في حِضنِ قُطنٍ مُبلَّلٍ /
كأنَّني يَدٌ ثالِثَةٌ
تُلوِّحُ بِنُضوجِ قُرُوحِها /
كأنَّنا مَحضُ سَفَرٍ في زَوايَا الغِياب!

*

لَيستْ لي وَداعةُ نَهرٍ بَعدَ صَخَبِ الرِّئات . .
الَّذي استَحَمَّ في
بِرادَةِ ضَوءٍ،
غَشيَةُ نُعاسٍ من إثمِ صَيحَته؛
لم يَشرَبْ كِتابَهُ المُلقى
على
سَطوِ نَظَراتِ النَّافِذَة /
فَلجَدُّلِهِم سِتارةٌ في شَيخُوخَةِ هُبوبِها،
وأنا . . لم أزَلْ أنا:
نِصفُ اتِّزانِ القَلبِ، ومِلءُ مَرَضِ الأسئِلَة!

*

إنَّهُ تَمرُّهم المُتباعِدُ عَن
يَدٍ سَريعَةِ الضَّجَر
لا يَسَّاقَطُ، أيضاً، في اكتِمالِ مَوسِمِه؛
ثَمَّةَ بُثورٌ تُخلِّفُها صُوَرُهم
على
جِدارِ الكَلام

ثمّةَ وَسطٌ كَكُمثرى مُعبأةٍ في خلايا وَتر،
. . وهم، أيضاً، شَجَرُ ضَحكٍ
تَرشحُ سَلالِمَ جَنازةٍ هابِطةٍ
إلى
وَاجباتِها!

*

هُناكَ . . حَيثُ هُم؛
لَن تَصطادَهم فِخاخُ الشُّرفاتِ
ولَن يَستعيروا اسمَ قَلقي . .
سَأتَّخِذُ ضِيقَ حِيلَتي مُتَّكأً
. . إن استَطعتُ
لعلَّهم يَهبطونَ مثلَ عِنابِ حُلمٍ
على
جُوعِ نَومي!

*

– كَم السّاعةُ، الآنَ، في انتِصافِ لَيلةِ الأمسِ؟
– . . . .
كأنّها غُلِّقَتِ الأبوابُ على قُبُلي
مِن قَبْل!

السُّعَاة

السُّعَاةُ الأثيريُّونَ لَم يَتعَبُوا، وأتعبُونا، من كَثرَةِ جَولاتِهم؛
رُطوبَةٌ لا تَجِفُّ في رَاحاتِهم،
وبَردٌ في ثَنايا دِفئِهم يَترُكُ قاماتِهم نَهبًا لِلرِّثاء!

*

مَا بَالُهم والطَّيرُ في وُكنَاتِها يُخيطُونَ أبدَانَهم بالخطِيئَة،
وَيَستعذِبُونَ الأرصِفَةَ المحفُورَةَ بالنُّبَاغُت؟
لَمْ يَنفُثُونَ أعمدَةَ دُخَانِهم صَاعِدَةً نَحوَ أوزُونِهم –
[كالَّذينَ يَصْعَدونَ في السَّمَاءِ]
وهَابِطَةً
إلى
جَحيمِ الخِيَانَةِ
في
نُوَاةِ البَدَنِ؟

*

يَكادُونَ يَسعلُونَ تِيجَانَ أرواحِنَا من أدهَمِ الرَّأسِ . .
فَيَا لَحُسْنِ مَا وَرِثُوهُ مُناهَبًا بالسُّؤَال،
ويَا لَسُوءِ تَصرُّفِ آبَاطِهم بِه بَعدَ تُوهَانِ العَضُدَينِ!

*

السُّعَاةُ الَّذينَ لا يُميِّزُونَ رَفسَةَ الرِّدفِ من رِقَّةِ المرَاجِلِ؛
كَثيرُونَ مِثلَ سَنَخَةِ تُرابٍ بَينَ أصابعِ تِمثَالٍ .
يَضرِبُونَ أنفَاسَهم بِصَخرَةِ كَمَدٍ،
ويَستَظِلُّونَ بِرابِعَةِ النَّهارِ قِسْمَةً قَابِلَةَ التَّلَكُّؤِ . .
إنَّهم يَزارُونَ فُقاعَاتِهِم في أحشَاءِ تَتَلهَّى؛
أملاً بارتِكَابِ كُرسيِّ الطَّاعَةِ
ورَغبَةً باستِعذَابِ التَّروِيضِ!

*

لَن يَشفَعَ كَشفُ الأسرَارِ لأتبَاعِهِم،
ولَن تَظَلَّ مَدِيَّةُ الوَقتِ خَارِجَ عُنُقِ النَّدَمِ!

الشَّائِك

لعلَّهُ لم يَخرُجْ، بَعدُ، من خزَانَتهِ السَّابِعَة . .
وهوَ لم يَمكُثْ، طَويلاً، فَوقَ
رَفِّهِ الأبَنُوس؛
يُعدِّلُ طِبَاعةَ المُزركَشةِ بثُريَّا التَّطبُّع . .
كَم كانَ يَتعَالَقُ
مثلَ
نملَةِ الفَاكِهَة،
ولا يَصِلُ نُونَ النَّوايَا . .
الحَقيقَةُ أنَّهُ أطبَقَ عَلى غَسيلِ عَينَيهِ
دَفَّتَي كتَاب نَجَاة،
وأخلَدَ في شِتاءِ حُمَّاهُ
إلى
صَيفٍ آخَرٍ بمَنامَةِ استِنْماء
. . . وأظنُّهُ لا يَأتي!

*

لعلَّهُ يَتأسَّى بصَحوَةِ قُرونِ شَجَرةِ الحُلُم . .
كانَ يَتأبَّطُ سُعَالَ مَاضِيه،
كَصُحُفٍ في سِنِّ يَأسِهَا . .
لَيسَ لِسَاعَاتِهِ حِمْلُ أنَامِلِه،
وحِينَ كَفْكَفَ مَاءَ فِضَّتِه
بأظَافِرِ ذِئبٍ [أظنُّها في دَاخلِهِ] مَ قْ صُ و فَ ةٍ
تَدَاعَى
إلى
نَحتِ سِيرَتِه
فَوقَ

مقابضِ لهفةِ الكلام،
دُونَ أنْ يستوي على
ثُغاءِ حكايةٍ!

*

لعلّهُ اداركَ ثمرةَ الدّمِ بخُفْي الرّضى..
حيثُما عقتِ الأماكنُ مشاربَهُ،
تراقصَ مثلَ تهدُّلِ
ذوائبِ ثلجٍ
على
زفيرِ رمْلٍ..
وبينَ جزْرٍ لِعُبابٍ مُدٌّ من مُحُولةِ الماء،
وسكينةِ جسدهِ المُطفأة؛
تراخَتْ مفاصلُ إيابه
تحتَ
معارجِ النّومِ
كأنَّ سُلَّمَ استغاثةٍ
يغورُ
في اضطرابِ لُجّةٍ!

*

لعلّني لم أصِلْ
إلى
تمامِ ما يَشْتهِاهُ الوصْف..
أركبُ سقْفَ راحلةِ الطّلْعِ /
أقتفي جمارَ التّشابه؛
بينَ مرونةِ حيلةٍ
تْ
نْ

زَ
فُ
رَمَادًا
وبينَ تَنظيفِ التَّنفُّسِ!

العَائلَة

أتَماثَلُ للشّفاءِ كَصِحّةٍ تتأكسَد..
مَا أبصَرتُها كَرَهيفِ ضَوءٍ في شُرفَتِها الضَّريرَة،
ولَم تَحمِلُ ذاتَ رُؤيَةٍ
في سَلّةِ جَسَدِها عُنفُوانَ ثَمرةٍ مَا..
كأنّي وُلِدتُ بِطَعنَةِ الخُبزِ ومَزايا ابنِ زُرَيق،
وغُباري؛
يَتفرّدُ بأغشيةِ الأنفِ برائحةٍ مُستنفِرة
مثلَ وثَباتِ وَحشٍ!

*

بِمَاذا يُفكّرُ الذّهَبُ
في إنائِه
الأرضيّ؟
لِمَاذا تَلمسُ أصابعُ الرُّوحِ لُؤلُؤةً وَعِرة؟
هذا انثيالُ خَدَرِ المسَاماتِ
عَلى
أريكَةِ الأرَقِ؛
يَدلكُ صُوفَ الغِطاءِ بِعضَلاتِه اللّيّنَة
ولا إيَاب..
هكَذا تُسرَقُ العائلَةُ منّي!

*

نُجومٌ خمسةٌ

على

أهبةِ انتظارٍ،

وقمرُ اللّهفةِ يُعدُّ موائدَهُ، ولا يُخطئُ الدّفءِ..

مَا أبعدَ هذهِ اللّقطةِ المُعادَة /

مَا أقربَ شريطَ حَيرتي..

كيفَ يَصرخُ المُخرجُ النّرجسيُّ: Action؟

ولا يَقولُ بَعدَ دَوري: Stop!

*

لَيسَ يَكفِي إهراقٌ واحدٌ

لِتماثُلِ الهُبُوطِ..

أشعرُ بِشُعورٍ ساحرٍ في حِكّةِ اليَدَينِ،

ولا يُعطِيني النّهارُ مظلَّةَ الغفلةِ –

فأتناسَى صَهوةَ الإثمِ..

سَيَسَّاقطُ

بَذخُ الغيابِ مُعرّىً

على

حَدَقَتي

ومُستَتِمًّا بِشُبُهاتِ نَاقةِ الوصُولِ!

*

غُرفَتي مُعلّقةٌ

كأُرجُوحَةِ رِيَاحٍ،

والهَواءُ يَنفثُ صَفيرَهُ كَذئبٍ مُراهِقٍ..

مَا من أحدٍ لاثنينِ هُنا!

أنَا وزُجاجُ فِضّتي..

لِمَاذَا لا يَزالُونَ يُخبّئونَني عن العَائِلةِ كَضَيفٍ حَرَجٍ؟

الشَّفير

فَدَىً في انكِسَارِ الرُّؤيَة،
ومَصَابيحي غيرُ مُنتَبِهَةٍ لزَوالِ الانعِكَاس . .
أغتَنِمُ بُحّةَ الصَّلصَالِ (عَن عَمْدٍ) في العَتمَةِ القَادِمَة؛
فَلا شَيءَ أدَارِكُهُ بالبيَاتِ المُبكّرِ،
ولا أيّةَ مَملَكةٍ أتَشهّاهَا في انحِسَارِ الغِطَاءِ اللامِع –
عَن نَظرةٍ مِن عَمَاء . .
كأنّني إلى غَايَةٍ أُخرَى؛
أصوّبُ مَفَاتِيحِي، وَهُنَا
عَلى
وَهْنٍ؛
نَحوَ مَغَاليقَ خَاليَةٍ مِن أكرِهَا
لأرَى بِلمحَةٍ ذَوَبانَ مِلحٍ؛
مَا لا أرَاهُ في الفَرَاغِ المُتجمِّدِ منذُ القُبّة –
حَصّنتُ في الكُتُبِ!

*

رَوحَةٌ أكادُ أتفَادَاها
لَولا عِنَاقُ رَمَادِ الأسَف؛
تلكَ جَمرَتُهم الّتي لعقتُها من خَاصِرَتي
اتّسَعَتْ أربَاحُها دَمًا يَتلألأُ قُربَ خَسَارَتِي الظّل . .
أيّتُها الرّوائحُ الكَائنةُ على سُفوحِ الرُّوح:
أيّةُ فَاكِهَةِ شَمسٍ تُبرِقينَ لي
كَي تُثيري مَتاعِبَ الحَواسِّ مِن بَعيد؟
لهُم، الآنَ، أمسِيةٌ مَخرُوزَةٌ
بالصَّقيع
يَصعبُ اتّقاؤُها،

وأنا على شفير الزَّبَد :
أتوازنُ مع خَواصِّ البَدَنِ رغمَ شُحُوبِ الوُقُوف!

*

بِركةٌ من دَمار
على
ضفافِهَا
يَجلسُ وَحشيٌّ بعُطورِه المُلوَّنة
يُعتِّقُ يَدَيه في تنظيفِ مَا بينَ أسنانه
من جُثتي الحيَّةِ التي مَرَّتْ خِلَلهَا
تاركةً صُراخَها في الشُّقُوق
يَصطكُّ بأسنانه
مثلَ سَريرِ مُومسٍ مُرتَجٍّ
يَستلقي
تحتَ
إبطِه
الخدَرُ والماء
وبجانبه لُهاثُ أعمِدَةٍ مُطفأة . .
ثمّةَ كِبريتٌ يَتناثرُ في زَوايَا الإيلاج
وثمَّة، أيضاً،
أعقابُ أشباحٍ ضَجِرة
تُحاولُ ترتيبَ أربطةِ أعناقِهَا
وأزرارَ انكِشافاتِها الضَّائعَة!

*

في صَوابِ خَطأي
يَحملُني اندفاعي بِساقينِ مُفرَدَتين؛
كلُّ خُطوةٍ في اتِّجاه
يتَناحَلُ

بِمَوهِبَةٍ يَابِسَةٍ
كَأنْ لَيسَ لي مَنزلٌ أتَقرّاهُ مِن عِهْنِ السَّماءِ –
فَاقرأُ عَلَى جَسَدي فَسيحَ سِيَاحَتِهِ
قَبلَ أن يَعفُو بِحَذَرٍ
ويُورِّثُني كَسَراتِ قِيَامَتِهِ!
*
أُخَبِّئُهُ في ذُهولِ بَياضٍ مَريضٍ،
لكنّها فَتَحاتُهم في جُدرَانِ عُرْيي؛
أُبصِرُ صَهيلي مَسَافةً لا تَلتَئِم –
وأهُشُّ هَيبَتي عَن دَويِّ تَفاصيلِهِم القَذِرَة:
أمسُهُم حَانَتُهُم
يَومُهُم خَمرُهُم
وغَدي يَترنَّحُ بِالرَّائحَة!
– مَا الَّذي يَفعَلُني، الآنَ، بِقَلمٍ
مَهيُوبٍ
وحِبرٍ
أحْدَب؟

التَّحت

لَمْ أنزِلْ، بَعدُ، عَن حَامِضِي الأثِيم
لا أتَذاكَرُ أحَدًا مِنَ اللَّوَاتِي يُشَذِّبنَني بِبَدَاهَةِ ابتِهَال
لَنْ أكرِّرَ الشَّفَقَةَ عَلَى نَفسِي لا خُصُّهَا مَاءً.. وَ.. أكثَر.
*
أعرِفُ أنَّ هذِهِ حِكَايَةُ جُبْنٍ مَا زِلتُ أبرهِنُهَا شَوَاطِئَ جَافَّة
لِذَا سَأَضحَكُ عَلَيَّ كَي أمسَحَ رِقَّتي الكَائِنَة عَن إطَارِهَا العَائِم

ثُمَّ أسألني:
بِمَن سَيَبدأُ الحِبرُ بَعدَها إذْ مَزَجتُهُ الآنَ بِصَفوةِ نَرجِس؟

*

يَبدأُ النُّعَاسُ بِتخديرِهَا وتَقليمِ عَرصَةِ أريكَتي
بِكُلِّ حُبُورِ سَريرِها المائِدَة
فَمُنذُ قَليلٍ – يُشعِرُني بِكَثرَتِه –
وَهِيَ تَفتَحُ وَردَتَها المُنتَفِخَةَ بِأصابِعَ مَجدُولَةٍ
قَبلَ ارتِمَاءِ ظِلِّهِ الثَّقيلِ مِثلَ بَشَرٍ حائِط.

*

تُريدُ تُرطِبُ لاستِخرَاجِ حَيٍّ مِن مَيْت
فَمَن لِنُسخَتي الَّتي لَم تَزَلْ في التَّرائِب؟

*

لِيَكُنْ لَهَا ثَلاثَةُ مَداخِلَ تُعبّأ خَوضاً
وَلِي فُوَهَةٌ واحِدَةٌ نَحوَ الفَرَاغ
لِيَكُنْ..
أمَّا أنَّها تِلكَ الطائِرَةُ اليَمامِيَّةُ الهَديل
فَلَن تُعَكِّرَ صَفوَ أنامِلي مُجَدَّداً
وَلَن أبُوحَ لَهَا أنَّها سَتَغدُو مُجَرَّدَ عابِرَةٍ بِعِصيانِها الخائِف
رَغمَ أنَّني لَستُ راضِياً عَمَّا نَبَتَ مِن أسفَلِ
أعلاه.

*

هِيَ في هذا الوَقتِ تَقُودُ خُطايَ إلى حَيثُ الوَردَةِ في قَلبِ القَلبِ الظّامِئِ لِلرّائِحَةِ المَلمُوسَةِ عَن بُعد.. كَيفَ أجيءُ إليها الآنَ؟ أو تَأتي في هذي الوَحشَةِ نَحوَ بَقاءِ العُزلَةِ وَحدي مَعَها إذْ يَنتَفِضُ الحِضنُ إليها مِن كُوَّةِ رُوحٍ تَتَواثَبُ نَحوَ تَبَرعُمِ عِشقٍ فِيَّ إليها.. هَل أقوى أنْ أصرُخَ في هذي اللَّيلَةِ نَحوَ الغائِبَةِ / الحاضِرَةِ: كَأنّي الوَردَةُ في طِينِ إناءَين؟ أنا أينَ؟ هَل أقوى أن أهمِسَ في تَخييلي عَن صُورَتِها وَلَها: إنّي قَد مَسَّنِيَ العِطرُ المَسكُوبُ مِن

الثغرِ الحالمِ، إذْ كادَ الحاكمُ فيهَا أن يأسرَني مُنذُ الكَلماتِ الأولى! إنّي أعترفُ بأني أدخلتُ إليهَا مِن بَابِ الجسَدِ المُتخيّلِ في صَحراءِ العَطشِ إليهَا.. لن يَقدرَ أن يَقتُلَنا بُعْدٌ.. من أينَ أتيْتِ فتُعطِيني تُفّاحَة أرضٍ؟ أيّتُهَا المُهرَةُ فوقَ تَنامي سَهلِ الصَّدرِ، ومَا يَحضِنُهُ من قلبٍ توّاقٍ لِعُيُونكِ إذ أتشهّاهَا الآنَ وقَبْلاً.. يَا امرَأةُ أنثَى مِن سِرٍّ أتصَاعَدُ شَوقًا كي أنفُضَ عنهُ ستارَتَهُ، وأفُضَّ غشَاءَ غيَابِكِ عَنّي.. كُوني نَحوي مِثلَ القَمرِ المُطلعِ عليَّ فأنتِ القَمرُ الآنَ يَقُودُ لِحاظِي نَحوَ فِراشِ عُذُوبَتِكِ البِكْرِ.. أنتِ أميرةُ هذا الوَقتِ وكُلُّ مَواقيتِ شُعُورِي.. هَل لِي مُتّسَعٌ في بَاطِنِ صَدرِكِ؟ يَا امرَأةُ أنثَى تَحتَضِنُ كتَابَ الشّهَواتِ فأبقَى كالأمَلِ المُنتَصبِ على عَتَبةِ شَدوي.. ها إنّي أُطلِقُ نَاحِيَةَ الدّهشَةِ مِنكِ إليكِ كلامًا.. وأنَا لا أقدرُ أغفُو الآنَ ومَدُّ البَحرِ المِلحِيُّ المسكُوبِ على بَابِ الشّفَتَينِ يُطِيلُ الشّوقَ إليكِ لأبعَدَ مِن سُرُرِ النّومِ.. أنتَظِرُ هُتَافَ القَلبِ القَادِمِ مِنكِ، ولِي عُذْرٌ إذ أخَذَ العِشقُ يُبَرعِمُ فِيَّ الشّهوَةَ نَحوَ تَبَرعُمِ عُمقٍ فيكِ.. زَهرَةُ أصوَاتِكِ فِيَّ الآنَ تُرطِّبُ في حِضنِ الرّوحِ وَجَسَدي النّارَ.. إنّي لامَستُ اللّونَ فكَيفَ سَألثُمُ بُرعُمَها في أيِّ أوانٍ؟ ها أنذا أتشَبّهُ أنّي أكمَلتُ خُرُوجِي، لكِن لَمْ يَبقَ سِوى جُرحِ السّاقَينِ!

*

رَنينُ فَرَاشَتِهَا يَتقوّى مِثلَ وَرَقِ تَعليب
- يُشَاهِدُهُ ضِمنًا -
وهوَ يَنفضُ غُبَارَ استِرخَائِهَا
تَحتَ
حَليبِ مِفصَلِهِ..
لِمَ المَائِدَةُ جَرداءُ مِن كُلِّ سُوءٍ وهَضْمٍ؟
سيُحاولُ أنْ يَخرُجَ مِن إبْطِ دَعوَتِهَا
مِثلَ شَعرَةٍ
في عَجينٍ بَلهَاء.

*

نَومُهُ حليقُ الرّأسِ حينَ تَشرَئبُّ خريفٌ يُغرّدُ
عَلَى
عَرْيِ غُصنِ انتصارِه
مَزهوًّا ببُلبُلِ الرّيحِ وأثيرِ الرّمادي
قطفَ زُرقةَ الصّيفِ عَن أُمّهِ الأرمَل
لمْ أصرُخْ فوقَ خَشَبِ كُرّاسةِ النّدَم :
آه . . مَا أقسَى الغُروبَ الّذي يتَناوَبُني مُومِسَةً
تُبيحُ مُومِسَةً
تتَغاذرُ كُلّما أنجبَتني !

*

قطافُ أجنحتِه مَائلٌ لِمُروءتِه الخبيئَة
أُريدُني - يَبتَعِدُ شِراعَ شَكٍّ يَراهُ تَابوتًا أطولَ من جنازَتِه
كَيفَ يُمحَى الألَمُ بِضَربَةِ فُرشاةٍ جائعَة
كَأنْ بَقايَا مَا أنَا
كَأنْ لبلابَةً ، لَمْ تَعُدْ طازَجةً ، مَا هِيَ
تَلوِيني عَلَى غُصنَينِ صَوتِها الّذي نَثَرتْهُ
عَلَى
بَياضِ شِعرٍ مُتفَعِّل .

*

مَعصيَةُ عَصايَ اللا تَتوَكّأُ عَليّ
تَبْثُني (لي) خَاتَمَ الوَدَاعِ مِن فُسحَةِ عِكّارِ شَفَتَيهَا
كَأنْ سُخريَةً تَستَشِفُّ هُبُوطِي بَعدَ سِنةِ ذُروَةٍ
تَصَنُّعُ بِيَدَي أسَف .

*

بِه كُلُّ تَثليثِهَا المُتَوّجِ عَلَى عَرشِ غُصنِيهِ الأجوَف
والأضلاعُ بَارِزَةُ الذّاكرَةِ كَنِداءٍ أعمَى
تَحَسّسَ بِعَيْنِ استِشعَارِه شَفَا جُرُفِ نَجَاة

لَمْ أدُلَّهُ على أوبتِه فيَدُلَّني على سَبَبي
كِلانا هاربٌ مِن آخرِه
رَغمَ دَوَرانِ الطَّريقِ حَولَ ساقيةِ مَصابيحِها المُطفأة.

*

أنتهي ولا تكتمِل
كأنَّها نُسخةٌ بدايةٍ أُخرى لِبَريقِ فَجَواتٍ نُجُوم
هيَ لا تُعلِّقُ أُكرةَ كَفني لِيَسنُدَ الشّاعِرُ زَهْوَ ذَهبِه
إلى جِدارِ هَواء
وأيضاً،
هيَ تُعيدُ جُنحَ أبوابِها فتترُكُني مَطيرَ صَيفٍ
على
بُردةِ رَمْل.

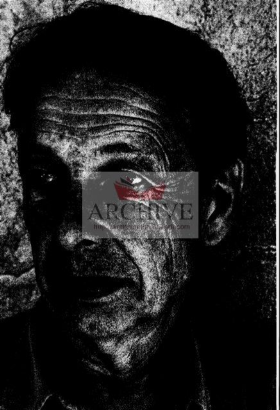
*

وأجفل، أتلاصقُ بي، كمُنفُودٍ لِحُلُمٍ
مُدلّى
بِتَخيله النسْرِيّ
هيَ خانتني بأذرُعِ قشِّها البارِد
أنا خُنتُها باختِفائي.

شاعر فلسطيني يقيم في نابلس / فلسطين

شُرفة »

83



فيليب جاكوته

موسيقى ليلية

مُنْهَكٌ أتَّكِىءُ
لِرُكْنٍ يكادُ يفوقُني نَخْرًا
لا أودُّ أنْ تَصْدُرَ عنّي سوى أقوالٍ
تُبَعْثِرُ السُّقوفَ
(فحتّى سقفِ القشِّ . . سيزنُ ثقيلاً
إنْ كان يَفصِلُكَ عنْ خلايا النَّحْلِ الليلية)

أقوالٌ تُماثِلُ
أفعالَ الأزهارِ الزُّرْقِ أو الحُمْرِ
وعطرِها

لا أُريدُ بَعْدُ متاهاتٍ
أوْ حتّى بابًا :
فقط رُكْنُ زاويةٍ
ونَشْقَةٌ مِنَ الهواء

طليقةٌ الأقدامُ . . ثاقبٌ الذِّهْنُ
حُرَّةٌ الأيدي والنَّظرات :
فإذن، الحِدادُ الليلي
مُبْتَدأً مِنَ الأسفل .

(من مجموعة «بعد سنوات عديدة»، دار «جاليمار»، ١٩٩٤)

<< فيليب جاكوته، ١٩٩١

الشاعرُ متأخرًا

الشاعرُ متأخرًا.. يكتبُ:
« روحي تتَنسَّلُ رويدًا رويدًا
وحتى الخُبَيْزى الإفرنجية[1] وطيرُ القُرقُفِ[2] يبدوان لي بعيدين
والبعيدُ يتناقصُ أمامَه..

أكادُ أتوسَّلُ أنْ أطلبَ إعفائي
مِنْ هذا الحِمْلِ النُّوراني
يا لهُ مِنْ مجدٍ عجيب!».

أيُّها الجمالُ والجميلات
مَنْ منكم سيجيبني؟
ألن يلتفتَ نحوي أحدُكم
حتى دون أنْ يقول شيئًا؟

كم تشتَّتَ القطيعُ عنِ الينابيع..!
قطيعٌ.. اعتقدنا يومًا.. أنَّنا قُدْناهُ في هذي المروج...

ها هيَ.. مِنَ الآن فصاعدًا
كلُّ الموسيقى العابرة.. تصْعَدُ إلى عينيه
دموعًا مُجْهِشَةً:
« زهرُ المنثورِ وعودُ الصليب[3] يعاودانِ الظهور..
وكذلك العُشْبُ والشَّحْرُورُ
ولكنْ.. الانتظارُ.. أينَ هوَ؟
أينَ هُم المُنْتَظِرُون؟
ألنْ نشعرَ بعدُ بالعطشِ؟

ألنْ يكونَ بعدُ شلالٌ لِتقبِضَ بيدِهِ على الحصرِ النَّدي؟

كلُّ موسيقى منَ الآنِ فصاعداً
تُجَلِّلُكَ بعبءٍ منَ الدُّموعِ!

ما زالَ يتحدثُ.. ولكنْ..
ضوضاؤُهُ تتقدَّمُ مثلَ جَدْوَلٍ في كانونَ الثاني..
معَ حفيفِ الأوراقِ
كلَّما فَرَّ طيْرٌ مذعورٌ.. مُعْوِلاً
نحوَ فُرْجَةٍ في السَّماءِ الغائمةِ.

١. الحبيرى الافرنجية: نبات برّي – La passerose
٢. القرقف وهو جنس طيور من الجواثم المخروطيات المناقير – La mésange
٣. عود الصليب او الفاوانيا، وهو جنس نباتات للتزيين من فصيلة الشقاريات – La pivoine

(من مجموعة أبكار تحت الغيوم، دارة جالبمار، ١٩٨٣)

كتابُ الموْتى

(١)
أجْنحةُ الدّارِ.. حدائقُها..
الكتبُ.. القنواتُ المائيّةُ.. خُضْرَةُ الأشجارِ..
أثرٌ باقٍ في المرايا ليَدٍ فتيّةٍ رقيقةٍ
لنْ تعني بعْدُ.. مَنْ وَلَجَ ديارَ خريفِ العُمْرِ:

عيْنُ الإنسانِ مَغْشيّةٌ في طوْرِهِ هذا..
يَدُهُ الواهنةُ عاجزةٌ عنِ الإمساكِ أو الاستيلاءِ..

انْظُرْهُ.. يَرى.. كُلُّ ما كانَ يَوْمًا ما إنْجازَهُ الأوْحَد..
رغبةٌ ناعمةٌ.. يبتعدُ عنه...

أرجوكِ.. إنْ كُنْتِ حقًا موجودةً.. أيّتُها الطّاقةُ الكامنة،
ألاّ يَغْرَقَ في فظاعةِ أخطائه..
وألاّ يُرَدِّدَ غزلاً مُتَكَلِّفًا..
فلْتَبْعَثْ طاقتُهُ المُتْعَبَة مرّةً أخيرة..
ولْيَتَوَفَّزْ للوثوب.. تجتاحُهُ نشوةٌ أخرى!

كانتْ.. معاركُهُ الأشرس.. سرابَ طيورٍ في الأُفُقِ..
مصادفاتُهُ الأخطر.. مطرًا يكادُ ينْهمرُ..
معشوقاتُهُ ما كَسَرْنَ سوى عيدانٍ من القَصَب..
ومجْدُهُ يُسَجِّلُ اسمًا من السُّخام.. على حائطٍ متداعٍ غدًا..

*

فليدْخُلِ الآن.. مُتَدَثِّرًا فقط بفقدِ صبْرِه..
هذا المكانَ على مقاسِ قلبِه..
فليدْخُلْ.. مُلْتفعًا بعبادةٍ لا شريكَ لها.. لِكُلِّ عِلْمٍ..
في الغامضِ.. يَنْبُوعٌ كئيبٌ لِنَحيبِه..

ما وُعِدَ بشيء..
لنْ يُضْمَنَ لهُ شيء..
لنْ تصلَهُ إجابةٌ قطُّ..
ولا وَهَجَ في يَدِ أُنْثى عابرَة..
سيُضيءُ السَّريرَ أوِ الشّارِعَ اللا مُنْتَهي..
فلْيَنْتظِرْ إذن.. ويَغْتَبِط فقط..
كالخشب.. لا يَتَعَلّمُ أنْ يُبْهِرَ البصر إلاّ في الهزيمة..

(٢)

أيُّها الرَّفيقُ.. لا تَصرَعْهُ الهُمُومُ..
لا تَدَعِ الخوفَ يُفقِدُكَ المُبادرة.. في مُصادفةٍ كهذه:
فحتّى هنا.. لا بدَّ مِنْ وسيلةٍ للانتصار..
وسيلةٌ ليست صُكُوكًا بنكيّةً.. ولا رايات حربيّة..
ولا أسلحةً تلْمعُ.. أو ابداعارية..
ولا نُواحَ أو اعترافات..
ولا أقوالَ.. نتشبَّثُ بها..
لخِّصْ ماهيتَكَ في عُيونِكَ الواهنة:

الحورُ ما زالَ مُنتصِبًا في إشعاعِ الخريف..
يرتجفُ قُرْبَ النَّهرِ..
ورقةٌ تلْوَ أُخرى تتساقطُ بإذعان..
مُضيئةٌ وَعيدَ الصُّخورِ المُنطلِقَةِ خلفًا..
ضَوءٌ مُبهرٌ عسيرُ الفهمِ.. للزمان..
أيَّتُها الدّموعُ.. دموعُ السّعادةِ على هذه الأرض!

*

أيّتُها الرّوحُ المُذعنةُ لأسرارِ الحركة..
امضي.. مأخوذةً بنظرَتِكِ المحدِّقةِ الأخيرة..
امضي أيّتُها الرّوحُ العابرةُ التي لا يوقِفُها ليْلٌ..
أو آلامُ هوىً.. أو صعودٌ.. أو ابتسام..

امضي: ثمّةَ مُتّسَعٌ بينَ الأراضي والغابات..
بعْضُ النيرانِ.. لا يُنقِصُ وَهَجَها أيُّ ظِلّ..

حيثُ تَنفذُ النّظرةُ مُهتزّةً كنصْلِ الرّمح..
تتسرّبُ الرّوحُ واحدةً في غُموض.. ثوانها.

اتْبعي طريقًا أشارَها .. لا خفقانَ قلبكِ ..
التوي نحوَ الضّياء .. وتمادي معَ المياه ..
امضي معَ الطيورِ في عُبورٍ لا يُقْهَر ..
وابتعدي : فلا نهايةَ إلاّ في خَوْفٍ لا يَبْرَحُ .

(٣)
فليُهدى قُرْبانُ التّعس .. للميّتِ التّعس :

عُودُ قصَبٍ تَرْتعشُ . قُطِعَتْ مِنْ ضَفّةِ مياهٍ تَحْبُ ،
كلمةٌ واحدةٌ لفظتْها مَنْ كانتْ لَهُ رَمَقًا أو غُصْنًا طريًّا أو شرارة ،
ذكرى الضّياء في أعالي الهواء ...

بهاتِهِ النّفحات الرّقيقة الثلاثة ..
لِيَنْكَشِفَ لَهُ الفضاء ..
حيثُ تنمحي كلُّ مُعاناةٍ .. دونَ فضاء ..
وجلاءُ وَجْهِ عسيرِ التّخيُّل .. دونَ جلاء .

(٤)
هذي الزّوابعُ، النّيرانُ، الوابلُ البليلُ،
النّظراتُ المُغْتبطةُ، الأقوالُ المُجنّحةُ،
وكلُّ ما بدا لي يُحَلّقُ سهمًا يعْبُرُ الحُجبَ
رويدًا رويدًا يُسَدّدُ هدفًا أوْضَحَ
وشيئًا فشيئًا أعلى

ربّما كانت دارًا منَ القَصَبِ تداعت الآنَ .. لهبًا وفناء ..
رمادًا يغرّكُ به التّعسُ .. ظهرَهُ وقحْفَه ..
بعدَ مرورِ الجيوش .

ما باقٍ سوى الجهل . . لا الموتُ ولا الضَّحكُ . .
تردَّدُ النُّور تحتَ خيامنا يُغذي الحُبَّ . .
منْ جهةِ الشرق تدنو الرُّؤوم:
رجلٌ يغادرُ فجرًا .

(٥)
ولكنْ . . كلماتٌ أُقصُّها منَ الوزْنِ الخفيف . .
ماذا لو حدثتْ خلْفَ الشُّبابيك
مثلَ بَرْدٍ يتقدَّمُ مُرْعِدًا في الوادي العريض؟
لا ، إنَّها استعارةٌ مُسالِمةٌ مُجدَّدًا . .
ولكنْ . . إنْ كانَ حقًّا ثمّةَ موتٌ . . كما ينْبغي حُدوثُهُ لاحقًا . .
أين ستتموضَعُ الاستعاراتُ ، الأفكارُ الثَّاقبةُ ، اليقينُ المُصانُ . .
على امتداد الحياة؟
الضَّوْءُ يتسرَّبُ في ارتعاشِ كلِّ صوتٍ ، كمْ أراه!
القوَّةُ تتبدَّدُ في هلَعِ الجسدِ الطَّريد ، كمْ أراها!
المجدُ فجاءةٌ أرْحَبُ منَ القحْطِ البليد ، كمْ أراه!

قلْ لي ، أيَّةُ نظرةٍ خاطفةٍ للعبورِ نحوَ الآخرة . .
أيَّةُ بقايا روحٍ . . ستُحلِّقُ ،
إذا ما غابتِ العَيْنُ . . وتوارى الصَّحابة . .
إذا ما اعتقلَنا شبحُ التُّراب؟

(٦)
لنْ أرسمَ سوى شجرة . .
حيثُ يَحُلُّ هذا الجسدُ المُدهَش . .
في الأرضِ المجهولة . .
محاربًا مُلتفعًا بإزاره الجلديِّ كان . .

امْ مُتيَّمةٌ ماتَتْ عارية . .
لنْ أرسمَ سوى شجرةٍ تضُمُّ في أوراقِها . .
وشوْشةٌ ذهبيّةٌ لنورِ العبور . . .

لا احدَ يستطيعُ فصْلَ النّارِ عن الرّماد . . الضّحكِ والتُّراب . .
لا احد . .
لا احدَ أمْكَنَهُ تَلَمُّسَ الجمالِ دونَ مَرْقَدِ الحشْرَجة . .
لا أحد . .
السلامُ لا يَعمُّ إلاّ على البقايا . . والرُّسوم . .
دائمًا بيْنَ نارين . .
مهما حاولَ التّعِسُ .

(٧)
شجرةُ اللّوْزِ شتاءً :
منْ سيسألُ إذ قريبًا يكتسي هذا الخشب . .
نيرانًا في الظلمات . .
او زهوراً . . مرّةً أُخرى . . في النّهار ؟
هكذا الإنسانُ . . يغتذي
منَ الأرْضِ المأتميّة .

(من مجموعة «الجاهل» التي تضم أشعاره بين الأعوام ١٩٥٢-١٩٥٦،
«دار جاليمار»، ١٩٥٨)

كُرّاسةُ المُرُوج

وردةٌ . . فجأةً ظهرَتْ
مثلَ وردةٍ في الشتاء .

لا ثلجَ،
ولكنْ . . كثيرٌ منَ المياهِ تتدفّقُ في الصُّخور
وبنفسجٌ وسطَ الدُّروب .

مياهٌ تكتسي بخُضرةِ العشبِ

وردةٌ تفتتحُ السَّنة .

مثلَ وردةٍ خفيّةٍ في الخدِّ
يمحي . . الثلجُ الرَّعدُ
قبلَ أنْ تمسَّهُ الأرضُ

هذا الوَهْدُ الأخضرُ الخالي مِنْ ورودٍ أوْ طيور
مُعلّقٌ،
هذهِ الشُّرفةُ الخضراءُ
فوقها تمرُّ الغيومُ مُسْرعةً
تنبثقُ قطعانٌ
مِنَ اللُّجّةِ اللامرئيّةِ الباردةِ القابعة
خلفَ هذي المراعي
حيثُ لا مواشيَ مُنْذُ زمنٍ طويل .

في هذا النُّورِ البارقِ

ينشرُ الظّلامَ معاكساً الضّياء،
أُرْجوحة نومٍ عشيّة،
الهواءُ المُنعشُ في الاعالي . . العليلُ قُرْبَ الأرض،
الرُّبيبةُ مِنْ عاجٍ مُهتَرِىءٍ ما زالَ مُضيئاً في الظّهيرةِ كالقمر،
ما نَتَلَمّسُهُ . . . دونَ مواربةٍ . .
الثّدْيُ الحليبيُّ.

نحوَ هذي البُحيراتِ الجبليّةِ
كالمروجِ تحوّلتْ إلى زمرّد،
تابعوا الذهاب . .
رُبّما نتوقّفُ عنِ الشّراب مِنْها
رُبّما . .
لذلك نُبْصِرُها الآنَ . .
في الجَبلِ زمرّدٌ وبهائمُ تُمْعِنُ الفرار . .
والرّبيعُ عارٌ تماماً.

(من مجموعة « كرّاسة المروج » ، دار جالبمار ، ١٩٩٠)

حَكْي

بِبَساطةٍ نَحْكي
ونَخُطُّ الورقَ مُفرداتٍ
دُونَ أيِّ مُخاطرة:
عَمَلُ المُطرِّزَةِ الوديع،
مَنْذُ التّشَقّقات،
(وحتّى امْكَنَنا
– في أثناء ما نَكْتُبُ –

انَ نَرجُوَ الشُّموع
تُخفِّفُ الوَهْجَ وتُمْعِنَ التضْليل)،
بالحِبْر نفسه
تَكْتبُ المُفْردات جميعُها
فَيَكادُ يَشْتَبِهُ «الزُهْرُ والذعْرُ»،
وَلَوْ أكرِّرُه «دم»
مِنْ أوَّلِ الورقة إلى أواخِرِها..
لَمَا بدَتْ حَمْراء
أو يَنْجَرِح جسدي.
***
ويَصيرُ انْ نَكْرَه
هذه اللُّعبة
أوْ لا نَعودَ نَفْهَمُ ما أرَدْناهُ..
منها..
بدلاً مِنَ التجْريب
خارجًا
وانْهِماكِ اليَد
بِما يُفيدُ أكثر.
***
هذا يَتِمُّ عندما لا نستطيعُ تَهرُّبًا
مِنْ مُواجَهَةِ الوَجَع،
وَجَعٌ يُشابِهُ واحِدًا ياتي يُمَزِّقُ ما يُحيطُنا مِنْ سَحاب،
قاهِرًا الصِّعاب
عقَبَةً تِلْوَ أُخرى،
عابِرًا مسافةً تَقِلُّ بالتدْريج
- وفَجأةً تَدْنو -
فلا نَعُدْ نرى

إلاَّ
خطْماً(1) أوْسَع مِنَ السَّماء .

***

فإذنْ، يبدو الحكي كَذِبًا،
أو العَن :
شَتيمةٌ خسيسةٌ لِلوَجَع
وتبديداً لِما يَبْقَى لنا
مِنْ قُوَّةٍ . .
أوْ بَعْضٍ مِنْ زَمَن .

(1) الخطْمُ: مُقدّمُ انف الدابّة وفَمها .

(من مجموعة : « في ضوء الشتاء » ، « دار چاليمار » ، 1977)

نقلها عن الفرنسية : أنس الحكيم، باريس / فرنسا

ولد فيليب جاكوتة عام ١٩٢٥ في مدينة موودون السويسرية . أتمّ دراسته للآدب في لوزان، ليعمل بعدها بضعة سنوات في پاريس لصالح دار نشر مرمود . تزوج في العام ١٩٥٣ من الفنانة التشكيلية آن ماري هاسلر ليستقرا منذ ذلك الحين في مدينة غرينيان في الريف الفرنسي .

وعلاوةً على إبداعه الشعري ومشاركاته النقدية المختلفة، فقد ترجم إلى الفرنسية بصياغة ممتازة العديد من المؤلفين الإغريق والطليان والألمان والإسبان والروس .

نشرت له « دار چاليمار » الفرنسية :

١٩٥٣ البومة الصمعاء وقصائد أخرى .

١٩٥٨ الجاهل (قصائد) .

١٩٦١ عناصر حُلْم (نثر) .

١٩٦١ العتمة (قصة) .

١٩٦٧ انغام (قصائد) .

١٩٦٨ حديث آلهة الشعر (عن أحوال الشعر) .

١٩٧٠ مناظر ذات وجوه غائبة (نثر) .

١٩٧١ مختارات شعرية ١٩٤٦-١٩٦٧ .

١٩٧٧ في ضوء الشتاء (قصائد) .

١٩٨٣ أفكار تحت الغيوم (قصائد) .

١٩٨٤ دفاتر ١٩٥٤-١٩٧٩ .

١٩٨٧ بين الرياض (نثر) .

١٩٨٧ صفقات سرية (شعر) .

١٩٩٠ كرّاسة المروج (نثر وشعر) .

١٩٩٤ بعد سنوات عديدة (نثر وشعر) .

١٩٩٦ دفاتر ١٩٨٠-١٩٩٤ .

١٩٩٧ قيثارة الخمسة أوتار (ترجمات ١٩٤٦-١٩٩٥) .

١٩٩٨ ملاحظات وتدوينات قديمة أخرى (١٩٤٧-١٩٦٢) .

٢٠٠١ دفاتر (١٩٩٥-١٩٩٨) .

٢٠٠١ ومع ذلك (نثر وشعر) .

٢٠٠٢ مراسلات مع غوستاف زوو .

ونشرت له عدة دور نشر أخرى العديد من الترجمات ، بالإضافة إلى شعره ونثره .



بنديّة

تتميّز قصة رونيت مطلون «أخ صغير» بتعدّد أساليبها المتباينة. التوتّرات القائمة في القصّة غير منحصرة فقط بين صوت الرّاوي وأصوات الشخصيات المقبوسة في الحوارات. والفروق بين لغة أدبيّة ذات مذاق عالٍ من جهة، وبين أُسلوب يكاد يقترب من لغة كلام غير سليمة من جهة أُخرى، تُهدّد بأن تمزّق أيضاً وحدة صوت الراوي نفسه. بيد أنّ هذا التوتّر هو ثمرة مخاطرة محسوبة: «بعد ذلك توسّلت إلى أفنر الذي جلس ولم يُحرّك ناظريه عن التلفاز، أن يترك كل شيء وأن ينتقلا إلى الكيبوتس أو إلى كرميئيل، حيث بإمكان صهرها أن يرتّب له عملاً، ويعيشان هناك في الجليل، حيث كل شيء نظيف ويتراكض الأولاد في الخارج ويعرفون أسماء الأزهار (...)». الصوت المتداخل هنا مع صوت الراوي يتبع لشخصية راحيل، أرملة أفنر. وثمة هوّة أُسلوبية واجتماعية مفتوحة بين «حرّك ناظريه» وبين «حيث كل شيء نظيف» (وفيها تُقصي نبرة الكلام الصدى العتيق). لكن هذا التباعد لا ينطوي البتّة على أيّ استعلاء، والتمعّن في الأبطال، أشخاص الحيّ، يتم بنديّة تامّة.

تعدّد الأساليب المتباينة بالذّات يفلح في أن يشكّل هنا امتداداً طبيعيًا من الهويّات الاجتماعية. وما يُفْهَم بصورة اعتيادية كما لو أنه نسيج لغوي لـ«غلْوي» و«دُونيّ»، يتحوّل إلى حركة وظيفية تخدم احتياجات النصّ. الانطباع الذي يُخْلَق هو مساواة في القيمة الإنسانية بين الراوي والحيّز السوسيولوجي المتمثّل عبره وبين الشخصيات الفاعلة وعالمها الاجتماعي. حينما يرجيء الراوي المثقّف، الدقيق واللبق، كفاءاته هذه، لا يكون ذلك من أجل خلق مؤثّر فولكلوري لـ«نمط» مُسْتَلّ ومعروض في الواجهة. وللصوت الذي يظهر في هذه اللحظات استقلال ذاتي نفساني ومشاعر خاصة به، لا يقلّل الراوي من قيمتها حيال تلك التي يفرضها هو نفسه على مواد القصّة.

لا شكّ أن القصة ترمز إلى حادث حقيقي مُعيّن جرى قبل عدة سنوات في «كفار

« رونيت مطلون، ١٩٩٨ / عدسة: ميخال هيمان

شاليم». غير ان أساس تماشيها مع المجال السياسي لا يجري على المستوى الثيماتي. وفي كل الاحوال فإنها ليست منحصرة فيه. ويتحدّد الموقف السياسي هنا، أساسًا، بواسطة تصميم شخصية الراوي في علاقاتها مع الشخصيات الأخرى.

في مقدور أنماط الكتابة الأدبية ان تدلّل على افتراضات أيديولوجية خفيّة للمجتمع الذي تعيش بين ظهرانيه. وينسحب الأمر، ضمن اشياء أخرى، على الكيفيّة التي فيها يستغلّ النّص أو يمتنع عن استغلال الصلاحية المحفوظة للراوي لمجرّد كونه كذلك. وفي قصّتها هذه، تقوم رونيت مطلون بفعل ما نتوقّع ان يفعله أدب رفيع: تشجع قرّاءها على أن يتفحصوا من جديد مجموعة من الافكار الاعتيادية ومعايشتهم لها، في إسرائيل الثمانينيات، حيث كانت المشكلة الطائفية تتقاطع بصورة فظّة ما بين السياسة والثقافة على حدّ سواء. وينطوي ذلك على جهد كبير.

حنان حيفر - باحث وناقد إسرائيلي، محاضر بدرجة بروفيسور في موضوع الأدب العبري في الجامعة العبرية بالقدس
موشيه رون - باحث وناقد إسرائيلي، محاضر في موضوع الأدب الإنكليزي والأدب المقارن في الجامعة العبرية بالقدس

أخٌ صغير
(إلى عوزي)

«أنظر، أنظر إلى العصافير»، قال نيسو، «كلّما أعطيتها أكثر، ازداد إقبالها صوبك».
جلس هو وداڤيدكو على أحد مقاعد الباطون المزيّنة، في ميدان «ماچين داڤيد»، ونظرا إلى الحمام - كيف ينظّف بنشاط الشّقوق فيما بين البلاط. جلسا وأرجلهما منفرجة، نيسو يفتّت بأصابعه بقايا الرّغيف، يتأمّل كيف يتساقط الفتات في الثّنيات السّميكة لبنطاله الجينز. لاحظ حركة المارّة المُبهمة هناك، حيث ترتاح عيونهم لحظةً غير مسؤولة، على ما يحدث في الميدان وما بعده، وما يلبثون أن يصلوا إلى حافّة الرّصيف ويختفي عنهم منظر الحمام، ما يؤدّي إلى انقباض قلبه. منذ أن حلّت المصيبة في عائلته، كان أكثر استرخاءً وفكّرَ في هذا الشّيء الذي أمسك به للمرة الأولى في حياته بيدين حقيقيتين، أفكاره، أزيز الرّاديو المُزعج الذي أيقظه في الليالي، دون شعور بالانفعال وإنّما بالاعتياد، وحثّه على نسخ أفكاره إلى والدته، أو إلى زوجة أخيه، راحيل، وبالأساس إلى أمّه، التي حملت الأسى كما يحملون طفلاً، كي يرى الجميع.

هناك في غرفة، مساحتها ثلاثة في ثلاثة، كنبتان تمسّان الحائط، وسرير حديديّ خَلَدَ فيه الجدّ الأعمى الذي كان يضرب بعصاه ليلاً، هناك كان يبتدئ بظهرها الذي اعتاد رؤيته كلّ صباح: تجلس في الشّرفة، تكاد لا تتحرّك، وترتشف القهوة. ظَهْرٌ دَسْمٌ وكتفان دائريان، حزاما الصدريّة اللذان اقتطعا اللحم ولفيفة شَعْرٍ مربوط. مقابلها، أدرك جيّداً، مقالات الجناح الأيمن جاهزة كما لو كانت في مسرح، الجناح الأيسر كان مهدّماً. هو، في أثناء فترة حداده، ذَهَبَ ليَرى الحُطام، رأى بقع الدّمِ، لَمَسَ الحجارة، رَغبَ في الرؤية.

«يجب إنهاؤه»، قالت مرّةً، شهراً بعد حلول المصيبة، وهو لم يعرف كيف يتصرّف حيال طريقتها في التعامل مع المُعاناة، وضعته في الدائرة الأكثر داخليّة لحياتها ليس كضيف، وإنّما كمقيم صُبِغَ فوراً بمختلف أعمالها التي أجْرَتْها يومياً، وكان كلّ شيء يتواصل من المكان الذي فيه انتهى وكما قالت: «الموتى موتى والأحياء أحياء»، وأحضرت طالبة في

مدرسة ثانوية لتساعد ابنة أقنر الكبيرة في الحساب.

شدّ داڤيدكو رجليه تجاه الداخل: «إذا بعتُ خمس بدلات ترينينج»، قال، «سيعطيني صاحب المحلّ سعر واحدة، والأكل وكلّ ما احتاجه - سيكون على حسابه. لكن ثمّة مشكلة، احتاج للإنكليزيّة، إذ يأتي الكثير من السيّاح ويسألون أسئلة». سكت نيسو، ينشّفُ يديه على الباطون. «للأولاد أم للكبار؟» سأل في النهاية. «ماذا أولاد أم كبار»، قال داڤيدكو، وهو يمرّر بعصبيّة السيجارة من يدٍ إلى أخرى. «ترينينج»، قال نيسو وانتصب واقفًا على رجليه، «لأولاد أم لكبار، هل هناك فرقٌ في السعر». فكّرَ داڤيدكو لحظةً: «لا أدري، لم يُخبِر عن أيّها، لكنك على حقّ. غداً صباحًا سأسأله». نَبَشَ أسنانه بعود ثقاب وجده على الأرض: «غداً صباحًا سأسأله».

تمطّى نيسو: «تعالَ...» صاحَ، وركض بين الحمّام، فاردًا ذراعيه إلى الجانبين. «لماذا، لماذا قُمتَ بفعل ذلك»، استشاط غضبًا العجوز الذي جلَسَ بجانبهما. «لماذا؟»، جلَسَ يتّكئ برقبته على المسند، «هكذا. رَغِبْتُ بذلك. فليعودوا إلى بيتهم». أغمضَ عينيه نصفَ إغماضة، متعقبًا الشقراء التي وقفت منذ ساعة على الأدراج المتحركة، وها هي تحادل داڤيدكو الآن، تلحسُ أصابعها، المتّسخة من البوظة، واحداً واحداً. ارتدَت تنّورة قصيرة سوداء - بيضاء وشعرها الأصفر متموّج، كلا، مالسٌ في أعلاه، وفي أطرافه متموّج، كما هي الموضة الآن. تحرّكَ داڤيدكو قبالتها بعدم ارتياح، من رجلٍ إلى رجلٍ، ولوّحَ بذراعيه. «ليس بمستواها»، فكّرَ حينما تكشّفت له ركبتاها الحمراوان والبارزتان قبالة رجلي داڤيدكو المتباعدتين، وبعد ذلك، حينما تحرّك، وكشف فمها العريض، الذي أثار فيه عدم ارتياح بالشكل المشوّش الذي كان ثابتًا فيه على وجهها.

«وافقت»، قال داڤيدكو وهبط على المقعد، يملّس المفرق من شعره. «اتّفقنا، اليوم في التاسعة، وستأتي أيضًا بواحدة من صاحباتها، لنكون زوجين - زوجين». لملمَ أكياس النايلون التي كانت مرميّةً على المقعد: «لنتحرّك، يتوجّب عليّ أن أحصل على سيّارة»، قال.

حينما همّا بالانصراف كان قد أوشكَ الظلام: دون وعي وضع كلاهما يديه في جيبي بنطاله، رأساهما بين الكتفين. أسْمَعَ بنطال نيسو الجينز الجديد صوتَ احتكاكٍ. عمره خمسة عشر عامًا ونصف العام، وجهه الدائريّ، المكسو بوجنتين بضّتين ومالستين، ترك انطباعًا بالتّشتّت والضّبابيّة. وشفته السّفليّة كانت مُتدلّيةً تجاه ذقنه بشكلٍ عفويّ يُوحي بشخص يُكثر من التفكير في نفسه. في أطراف الوجنتين بَرَزَت شعيرات مالسة، وزاد حاجباه السّميكان والمتقاربان من غور عينيه، المكسوّتين بأهداب طويلة وباهرةٍ كان يغمر

بها احيانًا، دون ان يلحَظَ ذلك، مثل ميني-ماوس في الرسوم المتحركة. لم يَكُن نصفا جسده العلويّ والسُّفليّ متناسقين على أتمّ وجه، كما لم يتّصلا فيما بينهما: رجْلان نحيفتان وطويلتان حَملَتا صدرًا واسعًا وسميكًا كان غائرًا داخلَ الكتفين، كحافّتَي أسطوانة ورق. كان داڤيدكو يكبُره بسنة، وكان جسده المتين البنية وكأنّه قد التفّ كغضروف، حول محور خياليّ مَرّ على طول انفه النّسريّ، عَبْرَ مركز الاضلاع وحتى كفّتي الرجلين. منخاراه الكبيران ارتعَشا بعصبيّة، وبشكل عامّ، كان ثمّة تزاحم تحت جلد وجهه الشّفّاف والمشدود، اشبه بحشرة علقت في شرك وراء زجاج.

قرب محطّة الباص، نظرَ داڤيدكو باهتمام إلى مُلْصَق دعائيّ لشركة « چالي » أُلصق هناك: صبيّة ذهبيّة الشّعر ونحيفة، ترتدي بدلة تريننغ ورديّة - زرقاء، رفعت إحدى رجليها في الهواء في مُتنزَه أخضر، وذراعاها مَمْدُودان نحو الدّاخل. جلس شابّ على المقعد، يُسْنِدُ ذقنه إلى رُكبة رجله المرفوعة، وتمعّن فيها متبسّمًا. « هذه من الصنف الجيّد »، قال داڤيدكو، وهو يعتصرُ شفتيه، « لكن سعرها ضعفي خاصّتنا ». تَمعّنَ نيسو بغضَبٍ في الفتاة التي ترفع إبهام يدها وإظفرها المطليّ بالاحمر، وفي الشّاب الذي بدا له ورديًا كبدلة التريننغ وراضيًا عن نَفْسه وعن المتنزّه. وكلّما تمعّن بدا له انهما مزيّفان وغير حقيقيّين، وبَدَا له التمرين الرّياضيّ بعيدًا عن الحياة وكاذبًا: « دعك »، قال لداڤيدكو، « هذا هراء، هراء ».

افترقا في زاوية الشّارع، وقرّر نيسو، الذي كان امامه ثلاث ساعات، ان يمرّ على راحيل. طابق حجارة البلوك الذي اضافه اقتر انتصب مقفرًا مثل سقف القرميد المعقّد الذي لم يعلم كيف ينهيه، انتصب الآن فاغرًا فاه وباعثًا على الضّحك مثل قبعة غريبة عضّتها زرافة. نصفه الآخر مهدوم. كان البيت قريبًا جدًا من بيت والديه، وقد خطّطَ اقتر كيف سيسكن الجميع معًا حينما يُنهي كلّ شيء. نظر نيسو مرّةً أُخرى إلى تلك السقالة، اليمينيّة، التي وَقفَ عليها اقتر؛ فيما طرف حذائه الرياضي، يتراءى له من تحت، في الوقت الذي صدح الراديو بأُغنية « فقط أنا ومزلاجي » في كراج حاييم، حتى صرخ احد رجال الشّرطة « هدوء »، وقام احدهم هناك بإطفاء الراديو وركض فورًا إلى الخارج لرؤية ما سيحدث.

قبل ذلك بسنة، حينما انهالت اوامر الهدم من البلديّة، ظنّت أُمّه بان البناء سوف ينتهي في غضون ستّة أشهر على الاكثر، وأن الأمور سوف تكون على ما يُرام. كانت تتنقّل بين أصحاب المهن وحوانيت الدّهان وموادّ البناء، التي سكنتها رائحة غُبار ومعادن مختلفة، كانت البراغي والمسامير مرتّبة، وكلّ نوع منها في قالب خاصّ، مثل الحلويات. هناك نَقّبَت بخبرة، وساومَت، ليس كتاجرة، وإنّما كواحدة منهم. ونيسو كان يقف مشدوهًا هناك، من الخلْف، يحدّق في قناني الدهان والكتالوجات المُلْصَقة على الطاولة، مُبقّعةً ببصمات

أصابع المشترين السوداء، الذين جاء معظمهم بملابس العمل الزرقاء، ومِسطرة صغيرة وعلبة سجائر مدسوسة في جيب القميص. في أيام السبت، حينما لا تعمل، كانت تتملّص من الجدّ وتقدّم لأفنر حجارة البناء من تحت. كانت راحيل تتأمّل من بعيد كيف تتحدّث هي وأفنر، الواحد مع الآخر، كيف تشاجرا، ساد بينهما تضامن خاصّ بأصحاب المهن أو بشركاء في كفاح سياسيّ.

أكثر من مرّة، تركت أمه البناية وطردت أفنر من بيتها، بعد ذلك تصالحا، كانت تتردّد عليهم في الليل وهي تتأبّط جداول أسعار بخطّ يدها الثقيل وغير المتمرّن، تتملّكها الموضوعيّة والخوف، وعلى الفور كانا يغوصان في جدالات لا نهاية لها.

في إحدى المرّات، بعد أحد شجاراتهما، وجد نيسو راحيل تنقبًا في الحمّام. اتّكات إلى المغسلة، ورأسها بين ذراعيها. «لن تحدث أمور طيّبة في هذا البيت»، قالت له، «أمور طيّبة لن تحدُثَ». بعد ذلك توسّلت إلى أفنر الذي جلس ولم يُشِح بوجهه عن التلفاز، أن يترك كلّ شيء وينتقلوا إلى كيبوتس أو إلى كرميئيل، هناك يستطيع صهرها أن يُدبّر له عملاً، يعيشون هناك في الجليل، حيث كلّ شيء نظيف، ويركض الأولاد في الخارج ويتعرّفون على أسماء الأزهار، فليترك هذا البيت الذي لم يتمّه ولن ينتهي أبدًا. «سآخذ أمّك معنا»، قالت له، «سآخذ أمّك ونيسو ليتعلّم كما البشر ليكون بشرًا».

عندما دخل الآن وجدها تجلس في المطبخ تقصّ البازيلاء. لعب التوأمان، ابنا الثلاث سنوات، في عوارض الشجرة وحتى أسفلها، وفي كرة صوف اجترّت من حذاء بيتي. لاحظ فورًا، أن بطنها قد تهدّلت، وأصلاً ظنّ عندما قامت تحضّر القهوة، أنه لم يبقَ منها شيء سوى البطن الضخمة المترنّحة. مشت ببطء تجُرّ رجليها، وعندما أخرجت عُلبة القهوة وكيس السكّر كانت حركات يديها بطيئة يغلب عليها الحذر والانتباه شبه الطفوليّ.

وضعت القهوة أمامه وجلست وهي تضع يديها على كرشها: «كيف حالك، نيسيمكو»، قالت. «على أحسن ما يكون»، شدّ رجليه نحو الدّاخل، مُستلاً سيجارة من العلبة. «هات لي واحدة أيضًا»، طلبت، أشعل سيجارة ومدّها إليها. «قدّموا لهنا مرة أخرى من البلديّة صباحًا»، قالت وهي تنفث الدخان. «ليس صحيًا بالنسبة لك أنك تدخّنين الآن»، قال، «كم تبقّى لك من الوقت؟». «مدّة أسبوع أو أسبوعين، لقد أضعت الحساب». «ما الذي أرادته البلديّة؟» سأل. «ما عُدتُ أعرف، طوال الوقت يدخلُ ويخرجُ أشخاص، ما عُدتُ أتذكّر كيف بدا بيتي». صمتت برهةً. «فقط الأولاد سعداء، يحضرون لهم أنواع الشوكولاطة، ويصوّرونهم. يريدون أن ننتقل إلى السّكن العموميّ، كان شيئًا لم يكُنْ، مثل البداية».

تعلّق احد الاولاد على رِجْلِهَا وَتَأرْجَحَ: «مُنْذُ مُدَّة لم أرْتَدِ الفستان الجديد»، قال لها. جَمَعَتْ فُتاتًا من جارزته: «بسبب أخته يتكلّم مثل فتاة»، شرحت لنيسو، بعد ذلك رَبَّتَت على مؤخّرته وأزاحته. «وماذا عنكَ يا نيسو؟»، سالت. «ممتاز، باشرتُ العمل في بيع بدلات التريننج»، كَذَبَ، «وهذا يبدو على ما يُرام، احصُل على ثمن واحدة مقابل بيعي ثلاثًا. صاحب المحلّ راضٍ عنّي، وربّما يجعلني شريكًا له، بعدَ ما يقاربُ شهرًا - شهرين». نظرَ إليها نظرة مائلة، «إذا اردتِ شيئًا، فعندَهُ اشياء للاولاد أيضًا. فقط قولي وساحضِرُ لكِ غدًا». طوّقت راحيل بذراعيها البنت النّعسة والكسولة على غير العادة، وفَرَكَت ظهرها: «تعاني من آلام بطن»، قالت، «لم تَنَمْ طيلة ليلة أمس». قام نيسو من مكانه: «حسنٌ، سأنصرف». رفَعَت عينيها، كانت لها عينان كبيرتان ورطبتان: «ما بَالك منصرفٌ، ابْقَ معنا قليلاً». اضافت بعد ذلك: «كلّ هؤلاء الغرباء الذين يقتحمون الروح. هل انت جائع؟» سالته. جلَسَ نيسو مجدّدًا: «قليلاً. هناك أمرٌ ما بيني وبين دافيدكو في التّاسعة. اليوم بالذّات أكلتُ»، تعقّبها بنظراته، وهي تحرّك الطبيخ على الغاز: «صاحب العمل كريمٌ جداً، المطاعم، الأمور، الكلّ ملقًى عليه». ابتسمت راحيل: «جيّد أنّك وجدتَ شيئًا يا نيسو»، قالت، «مي، ألاّ تفعل شيئًا».

عندما تزوّجت من آفْرِه كانت في السّابعة عشرة من عمرها فقط، موظّفة في شركة «تديران»، انتظرها آفْر إلى جانب البوّابة يوميًا، وتعقّبها في السيّارة. عندما بدآ بالخروج، قالوا في الحيّ إنها خرساء: طيلةَ ساعات لم تكن تتفوّه بكلمة، تجلس مشبوكة الرجلين.

كانت لها رجلان جميلتان، مع كاحل فتاة صغيرة، رفيع كمفاصل يديها، وملامح وجهها الصافي الطويل، كان فيه صدغان كبيران وغائران يوحيان بقشرة بيضة. قامتها القصيرة، تَجَمُّعُ الاعضاء، خصوصًا صوتها المتقطّع الذي لم يُحسن شيئًا، عَبّروا عن تقلّص وتنازلٍ عن كل ما هو غير ضروريّ.

تَبَسَّمَ نيسو: «هل تذكرين كيف كانوا يلقبونك بالخرساء؟» رتّبت راحيل أمامه بدقّة كأسًا وصحنًا وسكينًا وملعقةً وشوكةً، قامت بتصحيحها ومرّرت راحة يدها على الشّرشف. «قرّرْتُ عدم الانتقال إلى السكن العموميّ»، قالت.

لم تكن في البيت عندما حدَثَ ذلك. نهضت باكرًا لتاخذ الابن إلى الفحوصات، وبعد ذلك ذهبت إلى السوق. عندما عادت، في الحادية عشرة، كانت قد وصلت الشُّرطة والإسعاف: وقفت في طرف الشارع، تطرف بعينيها، كانت تعاني من قصر في النظر ولم ترغب بتركيب نظارات. وقعت الأغراض من يدها، لانه عندما وصل إلى هناك، كان الكلّ يجمعون البندورة والكوسا. «انتظرتُ هذا طيلة الوقت»، قالت، «طيلة الوقت انتظرتُ

هذا».

جلست على حافة الرصيف، في المكان الذي سقطت فيه السلة، ورتّبت الفستان بين الفخذين، كذلك غطّت المرفقين وجلست هكذا حتىّ المساء. من لم يأتِ إليها، فكّر، من لم يأتِ: أمّه وأخته والكنّات، الأولاد الذين لم يفهموا ما حدثَ ولعبوا في الشارع المحاذي. في النهاية أحضروا جدّه الأعمى، ثبّت كلّ ابن يده من كلا الطرفين، منحها احترامًا وقدمَ إليها، عرف الجميع كم عانت من أفنر منذ أن اقتنع بأمر البيت. «تعالي، يا ابنتي»، قال لها الجد بالعربيّة، ولم تفهم شيئًا، «سوف نحتفظ بغسيلنا في البيت». مدّ يده إليها، وداڤيد، الابن البكر، وضعها على رأسها.

بعد أسبوعين تُوفّي، والطقس الذي أقاموه على شرفه يوميًا في الساعة الرابعة صباحًا، حيث طلبَ أن يشربَ الجميعُ معه الشاي، وكانوا يجلسون بهدوء نعسينَ وبعد ذلك يخلدون إلى أسرّتهم، هذا الطقس توقّفَ. لكن نيسو، الذي اعتادَ، واظبَ على النهوض في الرابعة صباحًا. كان يتجوّل بين الأثاث، الكنبات التي كُسيَت بنايلون، يفتّش في معطف داڤيد، علّه يجد سجائر هناك، ويجلس على الكرسيّ في زاوية الطعام، يدخّن وينظر إلى إضاءات الشارع التي المنعكسة على زجاج البوفيه. يُشيرُ في نفسه إلى إغلاق باب سيارة، يفكّر ساعات بما كان سابقًا وما سيأتي، وهل حُذفَ شيء من ذاكرته، كان يحرّك رأسه بنفاد صبر، ويعاودُ الكرة. بعد مدة صار يعرف هذه التعقيدات مُسبقًا، بالأساس شخصٌ لمح عند عودته بعتاد حذاء الرياضة الخاص بأفنر، بنظرة سفليّة، وكان يطوّر طرقًا ليجتاز هذه التعقيدات ويتجاهلها، شعرَ بأنه لم يكن فيها بصيص ضوء، وكرِهَ انغلاقها، والطريقة التي شعرَ من خلالها يثقل في نفسه، مثل ذلك الوقت، حين كان جسم أفنر النحيف والجميل مُمددًا، والمرأة صرخت بجانبه «كارثة كارثة»، وعادَ وكرّرَ في نفسه «كارثة». هكذا جلسَ، ينبشُ في رجليه الحافيتين الأرضَ، حتى نادى صوتُ أمّه المبحوح من الغرفة: «نيسيم، لمَ لا تنام؟».

في نفس الليلة، بعد أن تجوّلَ في السيّارات الموجودة في طرَف الحيّ، محاولاً القضاء على الخوف الذي انتابه في ظهره، مثل تيّار خفيف وبارد، وَجدَ أمّه في المطبخ. «أين كُنتَ»، رفَعت صوبه عينين مفتوحتين أكثر من العادة وجافّتين، «أين تجوّلتَ اليوم أيضًا، أيّامٌ كاملة»، قالت ذلك بصوت قطيع ومحطّم، وكأنهم جرّوا سيّارة فوق حَصًى، صوتٌ صادر من حياتها، وهي حاولَت بقوّة أن تضعَهُ هُناكَ ثانيةً. وهو، الذي لم يستطع أن يحتمل ذلك البردَ النّابع من مسطّح خشب الفورمايكا الخاصّ بالطاولة التي فصلت فيما بينهما، أدار ظهره إليها وأرسلَ يَدَه إلى رفّ الكؤوس، يمرّر يده على اللوح الخشبيّ من اليمين إلى

الشّمال، يرقب صوت كلّ كأس وكيف تُسْمعُ صوتَ انفجارها، مثل آلة الكسيلوفون. فكّرَ في آفنر وكيف كانت تسحبه من أذنيه من مقصف القزم، حيث كانوا يلعبون أوراق الشَّدّة. «أنت تُسبّبين لي الفضائح»، كان يقول لها، «فضائح أنت تسبّبين لي». كوْت الثنيات التي عَلى قميصه، تذكّرُ جيّداً. مرّرت عديداً المكوى على الثنيات ثمّ على ياقته. ارتعد الوريد في رقبتها. لم تنبس ببنت شفة، وكان آفنر حينها ابن ثلاثة وعشرين عاماً ويملك سيّارة خاصّة وكراجاً. بعد ذلك طلبَ منها العفو، قبّلَ يديها، ابن ثلاثة وعشرين عاماً يملك سيّارةً، وفتيات يَذْرّ عليهنّ مالاً.

بعد أن أنهى طعامه ونحّى الصّحنَ جانباً، وشرع في إشعال سيجارةً، قالت راحيل مرّةً أخرى: «قرّرت عدم مغادرة البيت ولا أعرف إن كنتُ على صوابٍ من أمري. أعرف أنّ الأمّ تريد أن أمكُثَ وكذلك الأولاد. إنها مرتبطة جداً بالأولاد». هزّ نيسو رأسه، لكن الأشياء التي قالتها مرّت ولم تُحرّك فيه شيئاً. ضرَبَ رجله بالأرضِ بعدم ارتياح: «افعلي ما ترتئينه أفضلَ لكِ. إن كان السّكن العموميّ أفضلَ لك، انتقلي، وإلاّ فابقي». الخافةُ صوته الأجوف حينما قال ذلك. وقف على رجليه: «أنا ذاهبٌ لأغتسل»، قال.

«بنطالُك جديدٌ، يا نيسو»، قالت راحيل عندما خرج، وهي تتفحّص كيف ارتدى المعطفَ الطّويل. بعد ذلك امتصّت شيئاً ما من النّور والحلاوة اللذين كانا على وجهها في صورة بطاقة الهُويّة، ومن شعرها المتهدّل على أحد الكتفين، شيء من هذا اللين التّجاعيد الصّغيرة في زوايا عينيها: «ألكَ صديقة، يا نيسو؟»، سألته. «كثيرا»، قال، «لي الكثير».

«لا»، قالت راحيل وانطوت كقطّة، «واحدة، واحدةٌ هل يوجد لك؟» هزّ رأسه، مثبّتاً أنظاره في الرّخام. «كيف تبدو؟» سألتْ راحيل. «كيف تبدو، أنا أعلم كيف تبدو»، حكّ رقبته، «تبدو شقراء، جميلة». رافقته راحيل إلى الباب: «أحْضِرْها مرّةً يا نيسو»، ربّتت على أعلى ذراعه، «أحضرها لنتعرّف عليها».

كان الطّقس بارداً في الخارج، ورفَعَ من ياقة معطفه الطويل. تحسّسَ بطنَه من خلال الجيوب المصنوعة من قماش رقيق وحريريّ، كما لو أنّها تؤلمه. مشى في منتصف الشّارع فرحاً بأنه يمشي وحيداً، مكسوّاً بشيء دافئ، وكان باستطاعته أن يشمّ الصّابون وماء الحلاقة الخاصّ به، كما لو أنه شخص آخر. بيوت الحيّ، التي كان نصفها مظلماً ونصفها مضيئاً، ذكّرته بأشغال يقوم بها أطفال في الحضانة: يُلصقون علبة كرتون ويرسمون شبابيك، ويقصّون باباً، ثمّ يضيفون أسطوانة ورق تواليت، وكأسَ «كوخ»، وفي النهاية يُلصقونَ حبّات فاصولياء بيضاء، طريقاً للبيت. نَظرَ صوبَ الشّبابيك المُضاءة التي أثارت فيه فضولاً وتودّداً للجالسين في البيت، محميّين وبعيدين عن كلّ الأمكنة التي كانوا فيها

طيلةَ النّهار. فجأةً، عندما اجتازَ برميلَ نفايات، لاحَظَ ظلاً صغيراً قريبًا لرِجْله: قطّة مَشَت وراءَه على ما يبدو. وَقَفَ كلٌ من نيسو والقطّة وتأمّلا أحدهما الآخر. «بِسْ بِسْ». قال نيسو وبَسَطَ يده للقطّة. قَعّرَت القطّة ظهرها، ومَاءَت. نَظَرَ نيسو حوله، ربما رآه شخصٌ، ثمّ قال في صوتٍ بدا له أعلى من المُعتاد: «تعالي يا قطّة، تعالي!». وعندما واصَلَ طريقه يسرّع من خطاه، ظلّت القطّة تمشي وراءه. «إذهَبي!» صاحَ نيسو وطوّحَ بحجرٍ صوبها. رَكَضَ، وهو يفتح سحّاب المعطف الطويل، ينتابه الخوف. «ما هذا بالجمل»، قال لنفسه، «قطّة»، وفورَ قوله، تبيّنَ له عدم حقيقة أقواله، قوله كلمة قطّة، والقطّة نفسها. مثل ذلك الحين، حينما كانت كلّ الإشارات من حوله، التي فهمها كلّ واحد بطريقته، كمقاطع كلمة واحدة، كلّ مقطع على حدة، ولم يفهم ما تعنيه معًا.

كان بيت داڤيدكو مُظلمًا. مرّرَ أصابعه في شَعْره، وأدخَلَ القميص في البنطال. «نيسو»، صاحَ صوتٌ فجأةً. نَظَرَ إلى الجوانب: بجوار البيت وقفت سيارة تندر مشعلةً أضواءها. عندما اقتربَ، رأى داڤيدكو متكئًا على المِقْوَد وإلى جانبه فتاتان، على ما يبدو، حيث لَمَعَ شيء ما في الظُّلْمة، كما لو أنّه قطعة حُليٍّ، أو وشاح. «أهلاً نيسو»، قال داڤيدكو. نَظَرَ نيسو إلى الفتاتين: تذكّرَ الشَقراء من الميدان، الثانية كانت صغيرة وسمراء، كان شعرها ممسوحًا من سمت الرأس، ونظرت نظرةً مستقيمة. مدّت الشَقراء يدها من الشبّاك دون أن يطلب: «تشرّفنا، أنا حاني»، قالت. «تعرّف على حاني وريفكا»، قال داڤيدكو. تحرّكَ نيسو بعدم ارتياح من رِجْلٍ إلى أخرى، ولم يعرف ما يفعل بيديه، التي فاحَت من إحداها الآن رائحة كريم جسد زيتي. مَسَحها بمؤخّرته، فرِحًا بالظلمة. «هذه»، قال داڤيدكو مُشيرًا إلى الصُغرى، «قريبة ابنة عمّتي». «وأنا صديقتها»، قالت حاني، وعلى الرّغم من أنّه لم يرَ وجهها شَعَرَ بشيء دافئ ومنعش في صوتها. على الأخصّ ذُهِلَ بحرف الرّاء، الذي ذكّره بالقادمين الجُدُد من فرنسا. «هل تسافرون إلى مكانٍ خاصٍّ؟» سأل. «مسافرون»، قال داڤيدكو، «أعطاني أخي السّيّارة». صَمَتَ نيسو، عَرَفَ أنّ داڤيدكو يكذب، لأنّ أخاه لا يملك سيّارة. لم تكن لداڤيدكو رخصة سياقة، لكنّه كما قالَ أكثر من مرّة، استطاع أن يقود السيّارات بتمرّس، كان مولعًا بالسّيّارات. «هيّا، لا يوجد مكان»، قال داڤيدكو وأشعلَ المحرّك، «اركب خلفًا». «لماذا لا يوجد مكان»، قالت حاني، «يوجد مكان، سنتحرّك قليلاً وسيكون مكانٌ». حُشِرَت الصّغيرة ممتعضةً، وحاني شبّكَت رِجلاً فوق رِجل وفَتَحَت له الباب. «لحسن الحظّ أنّني سمينة وهي نحيفة»، قالت، «وإلّا كيف كنتَ ستدخُل؟». احتقَنَ وجهه، احتكّت يده بجارب النايلون خاصّتها، ملمس ناعم وغير لطيف. أرادَ أن يقول لها شيئًا لطيفًا: «أنتِ لستِ سمينة بالمرّة»، قالَ. أرادَ أن تتكلّمَ أكثر بحرف الرّاء:

«أين تسكنين؟» سأل. «أنا من بات يام، أسكنُ لدى أختي». خرج دافيدكو إلى شارع: «أترغبون بموسيقى؟» سألَ وأدارَ جهاز المسجّل. «لماذا تُسافرُ كالمجنون»، قالت الصُّغرى. ضغط دافيدكو على الدّوّاسة: «أهذا كالمجنون؟»، صَرَخَ، لا يستطيع سماع نفسه، «أهذا كالمجنون؟ حالاً سأريكِ ما هي السّرعة». نيسو، الذي ضَمَّ قبضتي يديه ووضعهما بين ركبتيه، خَلّصَ واحدةً منهما ووضعها على ظهر المقعد، وراء كتفها. كان الشّارع فارغًا تقريبًا، والجميع، تَخَيّلَ نيسو، حدّدوا أنظارهم في الزجاج وعَبْرَهُ إلى الشّارع، كما لو أنّهم انصاعوا مثلَ دافيدكو إلى واجبِ السّائق في النّظر إلى الأمام. لاحَظَ طرف وجهها اللّلي، وخدّها الملوّن المزدهر بشكل غريب وغير طبيعيّ. «أُحِبُّ السّفر»، قالت حالي، «لصهري يوجد سيّارة، ونسافر بشكل دائم في أيّام السّبت للنزهة. لكنّي أجلس مع الأولاد في الخلف».

«ماذا يملك»، قال دافيدكو، مشعلاً سيجارة أخرى. فكّرت هنيهةً: «أظن فولسفاجن، سيارة تندر». «لماذا، بم يعمل؟» فتح النافذة، مسنداً مرفقه على الزجاج. «عنده دكان خضروات»، قالت. «في بات–يام. في إحدى المرات جلست على حبة بندورة»، تعالت قهقهتها. «ما المضحك في هذا الأمر؟»، قالت الصغرى وأخذت السيجارة من يد دافيدكو. «لا أعرف»، قالت. «لقد تلف الفستان حقًا ذلك اليوم». بعد ذلك سافروا صامتين، أطفأ دافيدكو كذلك جهاز المسجّل. تدافع صوت الباب، وهو يدير بجهد رأسه تجاهها، رأى راحة يدها السمينة ذات الزّينة الطفوليّة بثلاث قطع نقديّة، من تلك التي بيعت مرة في محطّة الباصات المركزيّة وكان أفنر يحضرها لراحيل حسب الوزن. كان يحضر لها كذلك أقراطًا ملوّنة من بلاستيك. تذكّر جيداً زوجين معيّنين: وردتين برتقاليتين متوّجتين بالريش. ضحكت راحيل وأعطتهما للأولاد: «أنت تعلم بأني لا أتقلّد مثل هذه الأشياء»، قالت له. جلست أمه إلى جانبها في المطبخ حينما ذهب وانطوى في المرحاض لمدّة طويلة. بعد ذلك قالت: «ما كان عليّ أن أقول له هذا، فهو يأخذ ذلك على محمل الجدّ». في هذا الوقت كان يحتفظ بمسدس في جراره و«كل ساعة، كل ساعة، ركض ليفحص إذا ما زال هناك»، أخبرت راحيل فيما بعد. كان لونه رماديًا، وكذلك راحتا اليدين، وتَوَقّفَ عن العمل في البيت. قاموا بصبّ سقف المطبخ بعد أن مات، وصمت المراقبون. بعد مرور أسبوع على موته جاءت أمه مع العمال، امتلكت ذلك الشيء في الشفتين الذي أخافه: تشوّه فمها بحركات غير إراديّة. كلتاهما، صامتتين وكارهتين، أخرجتا من البيت كل ما يتبع له. أعطتا الملابس للعمال العرب، «فَلْيَتَمَتّعْ بهذا أحدهم»، قالت أمه. من المطبخ، سمعها تتكلّم معهم: «كم من الأولاد لديكَ، أنت يا أحمد»، وراحيل التي وقفت تغسل

الأواني همست «ليس بمقدوري أن أتحمّلَ أكثر، خذها من هنا». «ماذا؟» سأل كَعْبي، عَلِقَت الكَلِمَاتُ في فَمِه كما لو أنّه يمضغ عجينة، «ماذا تقولين؟» وأغلقت حنفية الماء ببطء ومسحت جبينها في كمّها وبعد ذلك توجّهت إليه وقالت «ما زلت صغيراً، نيسو، ما زلت صغيراً جداً».

والآن نَظَرَ إلى حاتي، ماسوراً بشحمة الأُذن البارزة الحمراء، التي أُضيئت من خلال أضواء شاحنة عابرة، وسأل، كأنه انزعج من شيء: «أي فستان كان ذلك؟»، «أيّ فستان؟»، نظرت إليه، وهي تستجمع شعرها إلى خلف أذنيها. «أحمر مع زهور بيضاء، وهنا»، وضعت يدها على صدرها، «نموذج من إحدى إبر الحياكة من نوع الدانتيل». «تطريز»، صحّحتها الصُغرى، «وعدا عن ذلك، ليس أحمر مع زهور بيضاء، وإنما برتقاليّ مع زهور خضراء وبيضاء، غَسَلْته عندي في البيت». كانت للصغيرة ذاكرة أشرار، التَفاصيل التي التقطتها عيناها الحادّتان فوراً، فقدت سذاجتها. «نعم، تطريز»، صادقَتْ. تأثّر بطريقة التفكير التي صاغت بها ذلك، وبالحركات المتواصلة أكثر بقليل ممّا هو مطلوب والقائلة بعالم طري تنعدم فيه الشكوك.

«من أين لكِ آراء كهذه؟» سأل. ضحكَتْ: ينقصها سنٌ واحدة من الجانب الأيمن. «عملتُ ذات مرّة في صالون حلاقة، ورئيستي كانت تعاملني بشكل جيّد جداً، وكانت لها آراء كهذه، هي تونسية الأصل، من فرط حبّي لها بدأت أتكلّم أنا أيضاً كذلك». «والآن؟» سألَ. «الآن، أنا أعمل أيضاً في صالون حلاقة»، انْحَنَتْ والتقطت جارب النايلون من كاحلها. «كلّ النقود تنفد على الصّبغات»، تنهّدت. «فقط في الأسبوع الماضي، كنتُ حمراء». ضحكوا. «كم تتحدّثين، كم»، قال دافيدكو وأوْقَفَ سيّارة التندر بجانب أحد البيوت المُظلمة في الحيّ الذي سافروا فيه. «ما هذا المكان؟» سألت الصّغرى. «منظر بحريّ»، قال دافيدكو ونزل من سيّارة التندر قافزاً. نَزَلَ نيسو بعده في الوقت الذي تهندمت فيه البنتان في الدّاخل. شدّ ذراعيه وحرّر بنطاله من مؤخّرته. كانت السّماء ملساء بلا غيوم، تَعَجَّبَ بينما كان يتأمّل فيها، وذلك لأنه كان قبلاً هناك والآن هو هنا، في ساحة بيت تحوي شجر سرو. وتعجّب من حاتي، وتذكّر فوراً تلك الفتاة على المُلصَق الدّعائيّ على الرّغم من أنها لم تَبْدُ له رياضيّة. على العكس: كسولة قليلاً وثقيلة الحركة. عاد وتأمّل شعرها الأشقر، مستعيداً إحساساً سابقاً في الميدان في ظهر ذلك اليوم، عندما رآها لأوّل مرّة، والإبهام الذي حفّ حضورها هناك بين باقي التفاصيل التي رآها ولم ينسَها، كأنه يجب تذكّر كلّ شيء، وبالقوّة نفسها التي ينبغي بها تذكّر أن أفنر قد مات وأنه كان أخاه مع كل ذلك.

دَخلوا إلى غُرفَة ضيّقة ومُظلمَة، كان فيها مصباح واحد فقط مُضاء في الطرف، ويرسل ضوءًا مائلاً إلى الصُفرة. جلس هناك ثلاثة على الكنبة، ثلاثة مقاطع جانبيّة، إثر بعضهم البعض، ذقون كادت تمسّ أعلى القفص الصّدريّ، ثلاثة أزواج من الأرجل ممدّدة إلى الأمام. المتطرّف، السّمين، استقبلهم بحركة رأس كسولة: «أهلاً داقيدكو»، قال، «هذا إيتسيك»، قال داقيدكو، خالعًا المعطف الطويل. فرك يديه: «ماذا تشربون؟» سأل. «كلّ شيء»، قال السّمين، عيناه مثبّتتان إلى الأمام وشفتاه لم تتحرّكا تقريبًا. «نشرب كلّ شيء». «اجلسوا، لنقضي مساءً لطيفًا». تأمّل حاني، من الشَعر حتى أخمص القدمين الموجودتين في حذاء أسود، تأمّل: «لطيف لطيف»، مضيفًا. بطنه، لاحظ نيسو، صعدت ونزلت من تحت راحة يده، وأصابع يده اليُمنى سمينة وقصيرة، ضمّت الكأس، وكلّ طرف إصبع سمين لاصق الكأس. «صَعَدَ دمي إلى الرأس فقط من يديه»، قال حاني بعد ذلك في التندر، رأسُهُ على ركبتيها ورجلاه ممتدّتان من النّافذة إلى الخارج. مرّرت أصابعها في شعره، تحكّ بالأظافر جلدة الرأس، وكأنها تغسلها: «لديك جلدٌ جافّ»، قالت، ثم قالت، «جميل كيف حاربتَ من أجلي».

تَقدّمَ إلى السّمين، يداه في جيوب البنطال الخلفيّة: «أنتَ، تكلّم جيّدًا»، قالَ. طقطق السّمين بلسانه، يغطي براحة يده عينيه، نظر إليه: «ماذا أحضرت لنا يا داقيدكو»، قال، «ما حكايته؟» دَفعَ داقيدكو نيسو نحو الباب، ربّت على ظهره: «أخرج المرج»، قال، «تنفّس قليلاً من الهواء. أخوه قُتل قبل شهرين»، شرح للسّمين. شبك السّمين يديه على صدره: «فليطلب عفوًا جميلاً»، قال، «رينجو يعفو وينسى».

شعَرَ نيسو برجليه وكأنها أسلاك معدنيّة، ثقيلة، مغروسة في الأرض، عالق كما شجرة، فَكّرَ، كما عهد سابقًا، وقتها أيضًا فكّرَ «كما شجرة» حيث كان عالقًا في المكان، وتكلّم أفنر معه من على السقالة، ولم يستطع السّماع، تحدّث كلغة البكم ولوّحَ بيديه، وصرخ أحد رجال الشّرطة: «احذروا إنه متّقد». بعد ذلك بدأ التّراكتور بالتّقدّم، وصرخ أفنر: «موشيه، لا تهدم». كان يعرف سائق التّراكتور بالاسم. وداڤيد، أخوه الأكبر، الذي وقف على بُعد ثلاثة أمتار منه على السّقالة، صَرَخَ: «أوقف الفرقة، وإلا حلّت مأساة هنا». هو لم يصرخ. بعثوا به منذ الصّباح للحراسة، عَلمُوا بأنهم سيقدمون من البلديّة في ذلك اليوم. شيء ما حكّهُ في رقبته، فصار يحرّك رأسه من جهة إلى أخرى. بعد ذلك فحص: ماركة القميص التي نسي أن ينزعها. أطلقَ أفنر النّارَ في الهواء، في الجهة اليسرى، ثلاثُ طلقات، تبعد أمتارًا عديدةً عن الجمهور الذي تواجَدَ هُناكَ. إلى جانبه وقفت ابنتا الجارة، وحينما ساد صمت غريب، قالت إحداهُما: «ما الجديد في ملابسك وأيّها قد غسلوا».

بعد ذلك جاءت أمّهما، وأخرجَ أحد رجال الشُّرطة سلاحًا وأطلق مباشرةً على رأسه. تكوّمَ جسده، كجَسَد طفل، كما لو أنّ الهواء خرَجَ منه، ووضع يدًا على وجهه. حينما أدار ظهره، يتحرّك، أطلقوا عليه رصاصةً أخرى. لم يَرَ الجسد، بَرَزَ حذاء الرّياضة والوحل العالق على نعله إلى الخارج.

الآن، وقفَ قريبًا جدًا من السّمين. الإثنان اللّذان كانا هناك وقفَا ونظرا. اتّكأت البنتان على الـ «مزوزاه» في المدخل. «ماذا هو وماذا رينجو»، سمع نفسه، «ماذا هو وماذا رينجو، الصّفر السّمين». داسَ على رجل السّمين، ضَغَطَ بكلّ قوّة: «نحن أقوياء، ها؟ أقوياء، سمينون، نُمسكُ العالَمَ من خصيتيه. مسموح له أن ينظر إلى كل شيء»، صَرَخَ، «إلى كل شيء. لماذا كلّ شيء له، فقط يضع عينيه وكلّ شيء له». لم يتحرّك السّمين، كان وجهه أحمرَ من الغضب: «خُذهُ من هُنا»، قال لداڤيدكو، «خُذهُ، قبل أن أقضي عليه». قام داڤيدكو مع أحد الشّباب بإمساكه من ذراعيه، قام الشّاب الثالث بتطويقه من خاصرتيه، بينما هو كالقطّ، كالبنت، عَضّ أيديهم، خَدَشَ الوجه، كَفَطَ، انزلق من تحت، فاقزًا على السّمين الذي جلس هناك، جلسَ على ركبتيه وطوّق شعره وأنفه. انهال السّمين بضربه لكمات عمياء في بطنه وخاصرتيه: «لا أرى شيئًا»، صرَخَ، «لا أرى شيئًا». بعد ذلك، قام السّمين ينفضه من عليه بينما هو يحاول التمسّك به. وقفَ واحدهما قبالة الآخر، هو والسّمين، كان خدّ السّمين ما زال بين يديه، كالزبدة دعكَ وهشّم. أنزلَ السّمين لكمةً في خاصرتيه فصرَخَ وتوقّفَ، انطوى على الأرض ماسكًا بطنه وكأنه خبّأ هناك برتقالاً. ظلّ هناك، يحسّ برائحة البساط المغبرّ وبألياف الصّوف التي أثارت أنفه، منتظرًا الضربات. «لحظة»، سمعَ صوت السّمين، بعدها ساد صمت. رفعَ رأسه رويدًا رويدًا، رأى الحذاء وأطراف البنطال خاصّة داڤيدكو الواقف هناك، منتظرًا أن يتلقّى خاصّته، وبعدها قرّبَ وجهه إلى البساط، يشعر نفسه هادئًا وصافيًا وسط اليقين الذي حلّ للتوّ في هذه اللحظة، سينهالون عليه بالضّرب، وداڤيدكو جبان وضعيف، وحَسَّ أنه هكذا.

كانت الضّربة الأولى في أسفل ظهره، تقريبًا في المؤخّرة، بعدها انهالت عليه واحدةٌ تلو الأخرى، في الرّجلين، في الظّهر، في الرّقبة. «يكفي»، قال داڤيدكو كما لو أنّه واقف خلفَ باب، «لا أريد المشاكل». سكَبَ أحدهم الماء على وجهه وبعدها رفعته عدّة أذرع وأراحته على الكنبة. «خُذوه من هنا»، قال السّمين. أغمَضَ عينيه. أدارت راحيل رأسها عن المغسلة: «أنت صغير، أنت صغير جدًا، نيسو»، قالت. بينما هو احتار عن ماهية قصدها في ذلك القول، حيث ارتأت سببًا لقولها له «أنتَ صغير، نيسو»، وإضافتها حتى «أنتَ صغير جدًا» بعد أن قلّبت الأمر بينها وبين نفسها. وفي يوم السّبت حينما كانوا يسافرون

إلى لعبة كرة القدم على دراجة نارية مصحوبة بمركب صغير كان يجلس في المركب الصّغير وكانوا يُنزلون عليه الغطاء الأبيض الذي ثُبّتَ عليه زجاج صغير قذر، وكانت تلوّح لهم بالسلام من مدخل البيت، تضع الصّغير بين رجليها، كي لا يركض وراء الدّراجة النّارية، وتصرخ منادية أقنر، الذي كان يغضب بسهولة، « دون ضرب ».

بعد ذلك نقلوه إلى سيارة التندر، ومشت حاني وراءهم، تمسك منشفة رطبة نظّفت فيها قبل ذلك وجهه، وصرخَ السّمين وراءها، « ما اسمك، أنت التي في النّهاية »، تبلبلت وقالت : « تَشرّفتُ، أنا حاني ». بينما هو ابتسم في سرّه، ولم يُثر حقده قولها « تَشرّفتُ، أنا حاني »، بل على العكس، رَسّخَ فيه الإحساس بأنه لن يبدُرَ منها أيّ أمر سيء.

وحينما أراحَ رأسه على ركبتيها، أراحه بحزم، كمن يستحقّ ذلك، ولامسَ خدّهُ جاربها النايلون، بينما واصلت ثرثرتها العبثيّة، من النقطة التي توقّفت فيها آنذاك، قبل وصولهم إلى هناك، ونَكَشَت شعره وأذنيه، وحينما نظَرَ في المربّع الأسود لشُبّاك سيارة التّندر مقابله، فكّرَ أنه ربما بسبب التّعب والوجع، فإن كلّ شيء على ما يُرام، الآن، للمرّة الأولى.

من العبرية: « مشارف »



هشام نفّاع

درب وعرة في تاريخ لم يكتمل

بعد دقائق قليلة من لحظة إطفاء الكهرباء، حين وصلت الكاميرا إلى المسميّة، قام جاري وغادر. في تلك اللحظات كنت غارقًا في الضّحك. فالسيّدة السمراء على الشاشة تؤدي وصلة نادرة من السخرية المرّة. «مسميّاه» – لفظت الكلمة بشكل ممطوط أضفت عليه شيئًا من المبالغة المعقولة، واصفةً لفظ جيرانها اليهود المشوّش لاسم قريتها / بلدتها / ما تبقّى منها. «مسميّاه» المطوطة فجّرت في داخلي ضحكة خبيثة بعض الشيء ومليئة بالقوة. سخرية الضعفاء من الأقوياء، واحدة من أقوى لحظات القوة. ولكن، ما العمل، جاري الأربعيني النحيف، التفت إليّ، وقد رأيت ذلك بشكل شاحب في تلك العتمة السينمائية، تناول معطفًا أو حقيبة، قام واقفًا، رطن شيئًا لم تتّضح معالمه الأبجدية، وخرج بشكل تظاهري. مشهد كامل.

كنّا عندها لا نزال في بداية «درب ١٨١»، وصديقنا ضيّق الصدر وحادّ الطبع هذا، سارع إلى اليأس من مواجهة قصّتنا المشتركة. يا ليته بقي، فقد كان سيلتقي أناسًا مثله أيضًا.

بعد قليل نعود إلى سيّدة المسميّة.

المخرجان ميشيل خليفي وإيال سيفان كانا قد تحدّثا قبل قليل في واحدة من قاعات مهرجان السينما في حيفا عن فيلمهما المشترك، «طريق ١٨١ – شظايا جولة إلى فلسطين–إسرائيل». ثلاثة أجزاء – ثلاث وثائق بصرية، تنقل لنا مزيجًا يؤلّفه هاجس اللحظة الراهنة وما تحمله الذاكرة (هل توجد «ذاكرة واحدة»؟). فمن الجنوب في مدينة سدود، إلى الوسط حيث القدس ومحيطها وتداعياتها ورمزيّتها، وحتّى الشمال، ينقل إلينا خليفي وسيفان ما تيسّر من «شظايا» المكان، دون تخطيط، بأسلوب اصطياد الصّدف، وعبر متحدّثين عاديين ممّن لا تستند شرعيّة ما يروونه إلى لقب أو تسمية أو تعريف رسمي.

بكثير من الجدية والسخرية اللتين امتزجتا في كلماتهما القليلة عمّا ينتظرنا – نحن

» مشهد من «طريق ١٨١ – شظايا جولة إلى فلسطين–إسرائيل»

الحشد الذي ملأ القاعة من عرب ويهود (٤ ساعات ونيّف من السينما) - شرح المخرجان كيف وقفا خلال عام ٢٠٠٢ خلف كاميراتهما وانطلقا مُتتبّعين خطًا جغرافيًا مُفترضًا على الخريطة، لما يشكّل ترجمةً دقيقةً لما كان يمكن أن يُفضي إلى حدود التقسيم الذي أقرّته الأمم المتّحدة في التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧ .

عرض الفيلم، يجب الإشارة، لم يكن مسالة مفروغًا منها . فمكملو درب الجناح اليميني المتشدّد من الطلائعيين الصهاينة الأوائل « طنطنوا الدنيا » ضدّ عرض الفيلم وعدد من الأفلام الفلسطينية ضمن مهرجان حيفا للسينما(*) . تسويغاتهم الهامّة كانت مُلتقطةً من واقع إسرائيل ٢٠٠٤ - واقع الحرب حين يصل الإستعلاء القومي مراحل متقدّمة . فحتّى موعد بدء العروض كان عدد من الناشطين اليساريين - عربًا ويهودًا - قد اكمل الاستعدادات لمواجهة محاولات تخريب محتملة قد يقوم بها عناصر الفخر القومي الصهيوني . لحسن الحظ كان صوت هؤلاء خافتًا، وحين وقفوا في الخارج بعدد من الشعارات العنيفة، لم يشكّلوا سوى إضافة كاريكاتورية على هامش حدث هامّ . بالمناسبة، رئيس بلدية حيفا، واحد زعماء حزب « العمل »، حضرا العرض (جزئيًا على الأقل) . وكان في ذلك موقف ما . موقف بدت فيه فروقات واضحة داخل معسكر أولئك الذين سنطلّ بعد قليل على نتائج مآثرهما التي حاولت بكل الطرق (غير العلمية طبعًا) إثبات مقولة « شعب بلا أرض لأرض بلا شعب » . هذه نقطة جديرة بالتوقّف . ففي داخل الفضاء الصهيوني هناك من يمكنه الإصغاء على الأقل . أهميّة الفيلم، في هذا السياق، أنه يشكّل مادّة ممتازة لمن بات مستعداً للتراجع عن دوره في ثلاثي القردة الشهير : « لا يسمع، لا يرى ولا ينطق »!

116

تأزُّم التأزُّم

خلافًا للمعهود، لا يسير الفيلم من نقطة تحضيريّة باتجاه تأزُّم قادم . من قمّة التأزُّم يبدأ . هنا سدود . أو اسدود . اليوم توثّقها الأوراق الرسمية الإسرائيلية باسمها المُحدَّث ايديولوجيًا : اشدود . القصة التي تربط / تفصل بين الإسرائيليين والفلسطينيين، تستضيف أشخاصًا من مكان ناءٍ . عمال صينيون في ورشة للبناء . فبعد إقصاء الفلسطينيين حتّى من درجة أجيرين في العمل الاسود، عرفت الديمقراطية الإسرائيلية، بطبعتها الرأسمالية المتطوّرة باضطراد، كيف تستورد من يحلّ محلّهم . ففي النهاية، رغم كل المزاعم عن « العمل العبري » النوعي، يُترك العمل المغبّر لغير ابناء الحظوة . هؤلاء الرافلون في استعلائهم . وحتى ضحايا الاستغلال والقمع الطبقي الأبيض من اليهود السُّمر، لا

تراهم هنا، في ورشة البناء. هنا تجدهم بين المقاولين، ولنتعرّف على أوّل بطلين: المغربي والكردي. سيقول أحدهما في «صدر التصريح» ما يلي: «العامل العربي يساوي أربعة عمال صينيين. مع العمال العرب، كانت الأُمور أسهل. يأتون في الصّباح ويعودون مساء للنوم في بيوتهم. ولم نكن نضطر للاهتمام بمكان نومهم ومواصلاتهم». لكن «عجز» كلامه يأتي على هذه الشاكلة: «عندنا العربي الجيّد هو العربي الميّت». المخرجان يناقشانه دون محاولات اختباء خلف موضوعيات ركيكة، ويذكّرانه بأصله العربي المغربي، وعمّا كان عليه الحال هناك. المقاول يقرّ لكنه يراوغ: «كان جيداً، لكنّها قصة عمرها خمسين سنة». أمّا زميله فيلجأ إلى مرجعيّات تبدو كأنّها منسوخة من بيانات وزارة الخارجيّة الإسرائيلية فيقول: «كلّهم يكرهوننا. معاداة السامية (...) لا أحد يحبّ اليهود».

المخرجان لا يحتاجان إلى كثير من الجهد للتذكير بأن ما يقف عليه الجميع في هذه اللحظة كان مرةً أرضاً لفلسطينيين. المقاول الكردي يقفز وكأنه يواجه أعداء إسرائيل إياهم في محفل دولي: «ماذا تريد! لقد شنّوا علينا الحرب مرّة ومرّتين وثلاثاً وانهزموا» وبلهجة نظيفة من الدبلوماسية يُطلق عياراً عنصريّاً ثقيلاً: «لو أنهم (الفلسطينيون) بَشَرٌ، لكانوا اكتفوا بما منحناهم إيّاه. إنّهم ليسوا بشراً، إنهم حيوانات». هكذا.

المقاول الذي يقف على أولى محطات التقسيم جاء من بلد ضحية للاستعمار. لكنّه في معمعان الثقافة السياسية الصهيونية تعلّم كيف يتحدّث كالمستعمرين تماماً. فهو يعتقد أن مؤسّسي هذه الدولة أخرجوا الفلسطيني من دياجير الظلام. كلام استعماري نمطي. وبكلماته: «أعطيناهم في غزة الشوارع والمباني وشبكات المجاري بعد أن كانوا مجرّد فلاحين». بعدها سيتذمّر المقاول من أنه «لا همّ لهم اليوم سوى قتل أطفالنا». ولا كلمة عن الاحتلال.

في الطريق تبدو الشوارع وكأنّه أُعدّ لها ديكور ذاتي عضوي لم يحلم به المخرجان: شعارات بالعبرية على جوانب الطريق من نوع «نرفع العلم – نواصل الحلم». الأعلام مسألة هامّة هنا. كلّما ورّط حُكّام هذه الدولة مجتمعهم بحرب جديدة (وهل توقّفت الحرب مرة؟) – في كل مرّة يكون الجواب: إرفعوا العلم. اشتروا علماً وتنالون معه حلماً. أشبه بصفقة «اثنين بسعر غرض واحد»، التي تملأ صفحات التسويق. من قال إنّ السياسة لا تتعلّم من «البزنس»؟!

لكن الواقع عنيد. لا يمكن أن يُغطّى بالأحلام ولا بالأعلام مهما أتقن السياسيون «البزنس». وخاصة إذا كان الفلسطيني وقح برفض أن يتبخّر. هذا ما تثبته سيدة المسمّية التي كان لنا شرف افتتاح هذا المقال بكلماتها الأشدّ بلاغة من معظم الناطقين الرسميين –

مع حفظ الألقاب.

الصورة التي تنقلها الكاميرا من السيارة لا تخلو من اهتزازات بالكاد تُحَس. شيء ما يشي بالاقتراب من حدث أو صورة مُبَئّرة على الأقل. تبدو الكاميرا فجأةً كأداة لا تخلو من دهاء. تعرف ما تلتقط. تميّز بقعة «نشاز» تكسر رتابة تلك المباني والمنشآت التي يُراد لها أن تكون هي العادية. فوسط ما لا يخفى على أحد أنه بُني على عجل، تسحبنا الكاميرا نحو بيت حجري عتيق. ولمنع أي سوء تفاهم لدينا أيضًا شجرة نخيل! هنا تعيش سيدة المسمّية.

تعريفها بنفسها يبدو وكأنه لا يهمها كثيرًا – لسوء حظ نظرية / موضة سياسة الهويات. تقول إنها «عربية إسرائيلية» وتضيف أو تستدرك فورًا – من الصعب أن أحدد – «فلسطينية». بصوت خارج من حنجرة تعبة تستعيد السيّدة مكانًا آخر وزمانًا آخر انقصما عام ١٩٤٨. جاء يهود (أشكناز في البداية ثم مغاربة ويمنيون، تدفّق) ولم يبق من العرب سوى بضعة بيوت (بيوت من العرب وليس فقط بيوت للعرب. البيت ليس دارًا فحسب. العلاقة لا تقتصر على الملكية. البيت هو بيت بمعنى بيت فلان أو آل فلان).

اليوم، تحمل خرائط التخطيط الحديث مصيبة جديدة للمسميّة. هناك شارع سيقضي على الأثر الباقي.

مونولوغ: «هذه أرضي وعندي فيها طابو من أيام تركيا. لو هدموا بيتي بدّي أحطّ خيمة واقعد. لو أن هناك دولة تحكم بالعدل لما سمحت بهذا. لو أنهم يتذكّرون فقط أنهم جاءوا ونحن تحمّلناهم. اللقمة اللّي في فم العربي بدهن يوخذوها ويعطوها لليهودي. هاي مش حياة! عمري ما آذيتهم وبدّهم اليوم أذيّتي. حتى الأرض هذه بدهم يمنعوني أعيش فيها مع غنمي وبقري. يوخذوا مزرعتي وبيتي؟ وين بدّي أروح؟ كل اللي بدّي إياه إني أظل في أرضي».

حتّى الآن كان ابن السيدة، شاب في الثلاثينيات، حاضرًا في المشهد لكنّه صامت. المخرجان يستدرجانه عبر سؤاله عن «مواد الديكور». يسأله أحدهما عن رأيه في الشعارات المكتوبة بأُسلوب الـ«جرافيتي» على الحوائط قرب بيته. منها: «الترانسفير هو السلام؛ الفلسطينيون إلى الأردن»، «الموت للعرب». الشاب يبدو وكأنه لا قوة لديه حتى على التذمُّر. «لم أعد اهتم بهذا. عادي. كلُّهم هنا يفكّر بهذه الطريقة. شو بدّك تزعل؟!». ويقترح اختيارًا عمليًا: «أكتب مرّة واحدة بجانب هذا الشعار: الموت لليهود، وسترى.. في اليوم التالي ستأتي كل التلفزيونات».

عن السؤال شبه الزائد «أتشعر بالعنصرية؟» يجيب الشاب باستهجان: «أشعر

بالعنصرية؟ أنا أعيشها كل يوم». من هنا ينتقل الشاب إلى نقطة شخصية مُرّة. فهو لا يتحدّث عن شخوص نظرية مستقاة من الكتب، بل عن حياة يومية. يتحدّث عن أناس يعرفهم وباتوا يهدّدون وجوده «رغم أننا تربّينا معًا». وبانعطافة خفيفة يطلّ جدار الفصل. لا مكان هنا للطروحات «الأمنية»، ولا السياسية الجافة أيضًا. عتب الشاب هو على يهود من أصول عربية اعتبرهم مرّة أصدقاء له.

مونولوغ: «هم أتوا من بلدان عربية وعاشوا مع العرب مئات السنين. المشكلة ليست بين العرب واليهود. المشكلة هي بين من أتى واستحلّ وبين من استُحلّت أرضه. لماذا يقولون اليوم: العرب يكرهوننا ويريدون رمينا في البحر؟ لماذا لم يرموكم في البحر في المغرب أو اليمن. اللي رماكم في البحر هو طرف آخر مش العرب».

دون أن يخطط، يعرض هذا الغضب قضية اليهود الشرقيين. اليهود العرب. هؤلاء الذين تعرّضوا للإهانة ممن جلبهم إلى هنا، وباتوا مخزونًا في خدمة أيديولوجيا أقصتهم مرتين: مرّة من بلادهم الأصلية، ومرّة عن تاريخهم الثقافي. في محطة قادمة للفيلم سيُقال هذا الكلام ضمن اعترافات مخيفة في شدّة وضوحها.

المسميّة لم تختف. لا يزال هنا الزلم يندرس. على جدران منزل قديم تحوّل إلى دكان - مطعم تلتمع مجموعة سمينة من صور الأسلحة. مفخرة الوطن المسلّح. هذه ستكون المشهد التحضيري للمحطة القادمة.

صاحبة المطعم تواصل العمل. كانت بشوشة في استقبالها المرحّبين. وهي تقدّم دون عناء ترجمة لما قيل أعلاه عن توليفة الأعلام-الأحلام، لكنها تضفي عليها بُعدًا شخصيًا حين تقدّمها بنكهة جديدة: أسلحة مصوّرة-أوهام.

مونولوغ: «هذه الصور تشعرني بالأمان. طلبتُ أن توضع هذه الصور معي حتّى في القبر (...) كان علينا أن ندمّرهم ونتخلص من هذه القصة. لا يزال هناك عائلتان أو ثلاث تعيش هنا. في قرارة نفسي، أنا لا أطيقهم. علينا أن ندفع لهم ونرحّلهم من هنا لتخليص البلاد منهم. يجب أن يرحل جميع العرب بمن فيهم العرب المقيمون هنا. لا تزعل منّي إذا كنت أقول هذا، قد تكون أنت (للمخرج) متعاطفًا مع العرب، فهكذا هي وسائل الإعلام. وربّما عليّ أن أكون حذرة. مع ذلك علينا أن لا نكون متسامحين مع العرب. علينا ضربهم بقوة وإلا قُضي علينا».

المرعب أن السيّدة قالت ذلك بكل عاديّة. صحيح أنها نفس المفردات التي تُصاغ بها خطابات التهجير داخل الكنيست الإسرائيلي، لكن لا أدري لماذا شعرت بها هنا مرعبة أكثر. قد نتعامل مع كلام السياسيين بأنه لضرورات التحشيد. نتعامل معه بشكل رسمي.

ولكن حين ترى وقْعَهُ عبر مصارحة في كلام عادي كهذا للكاميرا، فالأمر مختلف.

تطرّف القوّة – ولادة التهكّم

صور نخبة السلاح المذكورة ربما تكون متحفًا شخصيًا « يُشعر بالأمان ». منه ندخل إلى متحف بدرجة « وطنية ». هنا يُعاد إنتاج الرواية التاريخية لما حدث عام النكبة. مسؤول المتحف من أصل بولوني جاء للبلاد عام ١٩٣٨. يطلق كلماته بشكل حازم قاطع، وحين يقاطعه أحد المخرجين يُصدر أوامر عسكرية بالصمت. يصمت المخرجان للحظات يكاد الضحك ينفجر منها لعبثية المشهد. المسؤول كالمتحف تمامًا، هو وحده من يحق له سرد الرواية، وعلى الباقين الصمت. لا مكان لروايتين. وجود روايتين سيلغي الأحقيّة المطلقة للمسيطرين. صرخات الكهل البولوني كانت التجسيد المتطرّف لهذا. المخرجان عرضا كامل تطرّفه فخرج المشهد ساخرًا، كالقوة تمامًا، فحين تصل حدودها القصوى تتحوّل مادةً خامًا للتهكّم.

لا نزال بعيدين عن الجدار، ولكن في داخل معمل تضجّ آلاته بأصوات حديدية، يقف الفيلم عند صاحب عمل سعيد. كيف لا وقد أنقذ مصنعه من الإغلاق. الفضل في ذلك يعود إلى قرار حكومة إسرائيل بناء جدار فاصل لحماية مستوطنيها. المصنع سينتج ٤٠٠ كم من الشريط الشائك. دون أن تلاحظ كيف تتراكم المعلومات، تعرف أن مصنع الرجل السعيد ينتج موادّ غير قانونية حسب القانون الدولي. وهو يقول إنها من نوع لم يعد يُستعمل تقريبًا في العالم لخطورة نصل شفراته القاتل، سوى في بعض مزارع البقر جنوب الولايات المتحدة (مسألة مصادفة لا غير طبعًا!). لا مكان للاستغراب. فهل يجب أن يلتزم جهاز احتلالي بالقانون الدولي؟ المسألة مستحيلة من أساسها. لو التزم القانون الدولي لاستحال هو نفسه. أي نظام هو ذلك الذي يلغي ذاته؟

ومن المصنع إلى متحف آخر. تقول لنفسك: بلاد تعرّضت لهذا كلّه، لا بدّ أن تعجّ بالمتاحف. وإلاّ فكيف سيتم إثبات ما يعجز عنه السلاح؟ مسؤول هذا المتحف رجل صريح جدًا. وهو يشرح لـ « زائري المتحف » كيف تمّ شراء الأراضي وإقامة مزارع فيها. الهدف: إثبات أن هناك يهود فيها وتجاوز لتوصيات « لجنة بيل » التي اقترحت إعطاء النقب للفلسطينيين. هنا تلمس منطق الاستيطان « في أرض الأجداد ». فالمسؤول، الذي كان في عصابة « الهاجاناه »، يروي كيف تمّ في ليلة واحدة إقامة ١١ مزرعة في النقب وبالتالي فرض تغيير توصيات « لجنة بيل ».

و « تحرر » النقب، بكل نزاهة، ومن خلال احترام القرارات الدولية، طبعًا.

في آخر محطات الجنوب، نقف أمام ثيودور هرتسل، المؤسّس الروحي. صورته تطلّ فوق محتفلين بعرس، والراب يردّد كلمات المؤسّس كتتمّة للصلاة: «تنساني يميني لو نسيتك يا أورشليم».

من صلوات أورشليم المشفّرة بالايديولوجيا إلى كامل عُرْي الصورة في اللد، وتحت الغطاء الايديولوجي أيضاً. هنا نحن الآن في ما يسمى «مركز استيعاب القادمين الجدد». حشد من الأثيوبيين. محفل أبيض أكثر من اللازم لجمهور فاحم البشرة. هذا التناقض الصارخ بالأسود والأبيض يقع فريسة للكاميرا الحاذقة. هنا سيكون من الصّعب تسمية الموقف: تراجيديا أم كوميديا؟

الوجوه: إفريقية ناحلة وقد اختفى البريق من العيون.

المنصّة: رئيس بلدية اللد وحاشيته.

المناسبة: رأس السنة العبرية.

الخلفية الموسيقية: جوقة تعزف لحنًا شرق–أوروبي (على الفلوت والأكورديون).

مسؤولة تتحدّث بكلمات وطنية ولهجة تلقينية: «لنرى انكم تتكلّمون العبرية! هل تفهمونني؟ هذا المركز تجسيد لاستمرار الصهيونية وهو موجود في مدينة اللد. اللد في قلب إسرائيل. على بعد دقائق من المطار الذي يستقبل القادمين الجدد مثلكم». وعندما تضيف المسؤولة أن: «حب إسرائيل والأمل بإسرائيل يظهران في عيونكم»، ترفض العيون الاعتراف. الصورة هي لعيون ذات نظرات ضائعة عديمة البريق، لا أمل ولا يحزنون.

في اللد يكتسب التقسيم تأويلات جديدة. ما كان يفترض، بوصفه رمزاً أو ممارسة، تشكيل أساس أو منطلق لتسوية مؤلمة، يصبح هنا وسيلة لترسيخ هرميات الهيمنة. خط التقسيم السياسي–الحدودي–الدولي ابتعد كثيراً عن المدينة التي ابتلعتها «دولة اليهود»، لكن التقسيم المطوّر ظل جاثماً عميقاً فيها.

فالأقلية العربية التي بقيت في وطنها هنا، اجترحت مأثرة في بقائها وليس كما يُشاع «بثمن نيل هوية إسرائيل»، كلا، هذا كلام فارغ ظل مسيطراً كالغيمة الجوفاء على الأفق العربي ككثير من الشعارات تبريرية الهدف، لكل هذا العجز الذي جرى صبّه على الفلسطيني، وكأنّه الحصن الذي يجب أن «يذود عن الشّرف العربي». الأقلية اللّداوية بقيت بثمن تدفعه هي؛ بثمن مواجهة يومية مع أساليب مبتكرة من الهيمنة السياسية الاستعلائية.

الفيلم ينقل لنا قضية مزدوجة، قضيتين في قضية: أسرة عربية تضيق بها الدار أمام سياسة تقييد البناء. فهي تنتظر هباءً منذ ثلاث سنوات نيل رخصة من سلطات التخطيط

(تابعة للسلطة البلدية) لتوسيع دارها. السيّدة تذكر خلال الحديث أنها كانت معتقلة سياسيًا ٦ سنوات، شقيقها يمضي سجنًا مؤبدًا، وزيارته ممنوعة عليها. قصة استطرادية تفوق بقساوتها القصّة الأساس. المخرج يتساءل إن كانت نادمة على الماضي الأمني.

مونولوغ: «لمين أتأسّف، وعلى إيش. على بنتي اللي انرمت بالشوارع خلال ست سنين، أو على إمي التي انشلّت بغيابي، أو على نظري اللي فقدت كثير منه بسبب التعذيب في السجن. على إيش أتأسّف؟».

(نظل في اللد. مع مواطنين كهول لدى حلاق في حي عربي. برتابة مذهلة يروي أحدهم كيف كانت الأحياء العربيّة مسوّرة محاصرة منذ ١٩٤٨ وحتى ١٩٥٦). كيف جرى احتلال ونهب المدينة، حين غاب ذوو القربى! وكيف اقتُرفت مجزرة راح ضحيتها ٣٠٠ إنسان في الجامع حيث تحلّلت جثامينهم لمدة أسبوعين، حتى سمح بنقلها و.. حرقها.

الكاميرا تغادر لتبحث عن القرى المهدّمة المهجّرة. قلة فقط من المواطنين مستعدة للإفصاح. البعض لا يعرف (فقد جاء مهاجرًا لاحقًا) والبعض يعرف ويتكتّم. لا تزال القضية أثقل من التحدّث عنها. علماء النفس سيجدون تفسيرًا للأمر، ربما. لكن هنا وهناك يهرب البعض من الحمل الثقيل إلى تمنيات مرعبة.

مونولوغ: «كان من الأجدى لو أننا فعلنا بالفلسطينيين عام ١٩٤٨ ما فعله البيض بالهنود الحمر في أمريكا، عندها لن يظل أشخاص يثيرون هذه المشاكل، ونحن كنّا سنعيش بهداوة بال أكبر» - الأقوال لمواطن في كيبوتس.

المشهد الذي فات كافكا

في القدس، نقف على حاجز قلنديا العسكري. يسمّونه «معبر»، لكن ما يجري عليه فعلاً هو العكس تمامًا. هنا يجري إعاقة العبور وليس تسهيله. الحاجز هو منشأة عسكرية كاملة ذات منظومة كاملة للمنع والضبط والرقابة والانتقاء والملاحقة والمعاقبة. هنا يعلّق الفلسطيني في عنق الزجاجة. هنا نجد الميكروكوسموس للاحتلال.

الصحفية الإسرائيلية عميره هس قدّرت قبل انفجار أيلول ٢٠٠٠، أنه قريب وأن سببه سيكون هذه الحواجز. الانفجار وقع، والحواجز تضاعفت. فماذا الآن؟

في العادة لا توجد حوارات على الحاجز. الحوار يتطلّب شريكين، ندّين. ولكن هنا تتراوح الأمور بين الصمت المطبق وتطبيق النظام بالقبضة الحديدية، وبين انفجارات عينية غاضبة. الفلسطيني لا يحاور هنا، لأنه لا يمكن محاورة الفولاذ. هناك جنود شبّان، لكنهم مغيّبون تمامًا داخل خوذاتهم ومحاصرون ببنادقهم الأوتوماتيكية. شبّان يجري تحويلهم

إلى عساكر قمع.

بين المخرج سيڤان وأحد الضباط الشباب دار هذا الجدل الساخن :

سيڤان : « لو كان لديك دماغ تحت هذه الخوذة لرفضت أن تقضي سنة كاملة على هذا الحاجز ».

الضابط الشاب : « أنا هنا لأخدم وطني ».

سيڤان : « هذا بالضبط ما يقوله كل جندي يرتكب الفظائع ».

الضابط الشاب يستشيط غضبًا : « أنا لم أمسّ بك، لم أجرحك. أنا هنا لحماية وطني من العمليات الأرهابية ».

سيڤان : « وجودك هنا أكبر مساس بي. العمليات الانتحارية سببها الاحتلال وأنت تمثّل هذا الاحتلال ».

في رام الله رأيتُ المشهد الذي كأنّما جرى التخطيط له بدقّة كي يقشعرّ بدني، رغم أنه مأخوذ من أكثر المشاهد اعتيادية في المدينة المحتلة مجددًا (المحتلة مباشرة بحضور عسكري تام مجددًا، يجب القول). عند حاجز من النوع الذي يسمّى « طيّار » لأنه غير ثابت بل يجري وضعه بشكل مفاجئ، تقف الكاميرا بزاوية حادّة تحت دبّابة. بعدها تجري محادثة بين المخرجين وبين جندي شاب.

في ذلك الجندي رأيت صورة لشبان يهود كثيرين التقيتُهم. التقيتُهم في الجامعة، في المقهى، في قاعات السينما والمسرح، في الشارع بالتأكيد. شبان عاديون، بعضهم لطيف، يصحّ أن تتصادق معه بهذا المستوى أو ذاك، لكنّهم نفس الأدوات التي تستعمل لتطبيق ما يتراكم أمامنا وعلى قلوبنا حتى يكتسب اسم : إحتلال. المحادثة مع الشاب توفّر تعمّقًا في هذه المفارقة البشعة.

الجندي الشاب يتحدّث بفخر معقول أنه مثقّف. فهو قارئ جيّد، وربما أنه يجد بعض الوقت للقراءة حين لا يزال يرتدي بزّته العسكرية. وحين يحرس معتقلين بأيدي المخابرات. وحين ينال استراحة ما بين اجتياح واقتحام وتفتيش واعتقال، وفتح للنيران طبعًا. يقول إنه معجب بالكاتب فرانتس كافكا وبالفلاسفة موشيه بن ميمون (اليهودي الأندلسي الذي كتب بلغته العربية) ورينيه ديكارت وعمانوئيل ليفيناس ومارتن بوبر. (التقيتُ مرّة شابًا لدى أصدقاء، ناقشني مطولاً لماذا يرفض تحليلات إدوارد سعيد. كان يقتبس كتبًا هامّة. بعدها قال لي إنه يفكّر بالتجنّد للمخابرات عندما يُنهي اللقب الأكاديمي الأوّل في التاريخ. كنّا نتعلّم في الجامعة نفسها. بعدها بسنوات كنتُ أشتري علبة سجائر، دخل ليشتري عدّة أغراض منها الحليب الذي وضعه على الطاولة أمام البائع. نظرتُ إليه، التفتَ.

كان يرتدي بزّة بوليسية وعلى كتفيه نياشين معدنية. لم أبادله أيّة كلمة، ولا هو. حاجز كبير داخل دكان الحليب والخبز والسجائر واللوازم البيتية اليومية).

المخرجان يواصلان الحديث مع الشاب المثقّف، حتى يستوقفه سيفان بسؤاله الصاعق: «هل سمعت عن ابتذال الشر؟» (في إشارة إلى كتاب حنه أرندت «أيخمان في القدس – تقارير عن ابتذال الشر»).

الجندي يتساءل بفضول معرفي كبير: «أهذا مصطلح أم عنوان كتاب؟».

سيفان: «ابتذال الشرّ هو أن يقوم أناس عاديون، ممن يقرأون الفلسفة والأدب بممارسات بسيطة، لكنّها تتراكم مع الأيّام لتصنع ممارسة كارثية».

الجندي: «هل يمكن ان تعطيني مثالاً؟».

المخرجان لا يعطيانه اي مثال. فقط الكاميرا تتحدّث بصمتها المُربك: تتوقّف عليه لحظات بدت طويلة جداً. اخذنا الجواب.

في ابو ديس تقف أسرة قرب ركام بيتها. لقد تمّ هدمه عقابًا بعد أن نفّذ ابنها عملية انتحارية. وقفة: الشاب قتل وقُتل، حالة مستحيلة. هل افلت من العقوبة؟ كلا. اهله يدفعون الثمن. ربّما هي ليست عقوبة بالضبط بل ممارسة تربوية فحسب. ففي هذا الجيش يقرؤون كافكا والعديد من الكتب الجيّدة، ولديهم ضابط تربية (اقترح مؤخرًا نظم «قصيدة الانتفاضة»)، ولا بدّ أنهم على اطلاع ومعرفة بآخر نظريات التربية. الوالد غاضب غضبًا مكتومًا، بعد قليل ينفجر.

مونولوغ: «هل تصدّقون أن ابننا استشهد عشان المصاري؟ كل بترول السعودية ما بيساوي شعرة من راس الولد اللي راح. إبنُه الواحد، موته كارثة».

سيدة من العائلة: «مين بيهون عليه إبنه يعمل عملية. إنت عندك ولد (للمخرج) بيهون عليك يروح يموت؟ ما بيهون. بس الإهانة هي اللي بتدفع الشباب غصبن عنهم لتنفيذ هيك عمليات. في أحيان من قهري أنا لو صحّلي كنت عملت عملية».

حوار حوّارة

الصور المتسارعة من الحاجز الاحتلالي المسمّى «تبوح» قرب قرية زعترة الفلسطينية تجعلني أستعيد ذلك اليوم. السبت ٢٤ آب ٢٠٠٢.

الكاميرا تلتقط وجوهًا أعرفُها، كنتُ معها. سأناور وأنقل ما نقلته الكاميرا وأيضًا ما دار في الكواليس:

قبل قليل جرت جولة مثيرة من المفاوضات. فقد حضر إلى المكان ما يقارب الأربعمئة

متظاهر، عربًا ويهودًا، من حركة « تعايش » وقد قرّ قرارهم باجتياز الحصار والوصول إلى قرية حوّارة القريبة من نابلس لعقد مظاهرة مشتركة مع أهلها وإطلاق الصوت الواضح: الحرّية والسلام والأمن للشعبين.

توقّفت الباصات قبل الحاجز وتوجّه ممثّلو المتظاهرين إلى الضابط المدعو أورن الذي اختبأ في خوذته الفولاذية وخلف بندقيته التي تدلّت من الكتف وقد قبض عليها بشدّة.. وقد شرح له عزمي بدير وهيلل كوهين بشكل قاطع أن المتظاهرين مصرّون على الدّخول مهما كان موقف الجيش وأنهم يرفضون إدخال المواد الطبّية والغذائية التي أحضروها بواسطة الجيش وكأنّ النشاط هو « إنساني » فقط، لأنه نشاط سياسي بالأساس ويريدون الدّخول مع الشاحنات. الضابط قال إنه بحاجة إلى تصريح من المسؤول عنه وإنه يفترض أن يأتي خلال ربع ساعة. حسنًا، سينتظر المتظاهرون في ظل الباصات من الشمس الحارقة، « سيُلاحقون العيّار إلى باب الدّار » كما يُقال لدينا. مرّ الوقت وجاء الرد العسكري المعهود: هذه المنطقة هي عسكرية مغلقة ممنوع الدخول إليها وربما يسمح الجيش بإدخال شاحنات الإغاثة. وقد رأى الضابط أنه من الملائم أن يخفّف دمه ويضيف قائلًا: « نحن هنا أربعمئة جندي وكلّنا من أجل السلام ».. يا سلام.

الجواب غير مفاجئ طبعًا ولا بدّ من اتخاذ قرار سريع. بعد التشاور أعلن أحدنا عبر مكبّر الصوت المحمول على الكتف: « الجيش يرفض دخولنا لالتقاء الأخوة في حوّارة ونحن لن نحترم هذا الأمر، نعرف أن المنطقة عسكرية مغلقة وقد فرضوا علينا أمرًا أصدروه اليوم، ومع ذلك سنجتاز الحاجز. قد يتعرّضون لنا وربّما يعتقلوننا أو يستعملون الغاز المسيل للدموع أو الهراوات أو بقيّة الألعاب التي يلهو بها الجنود، ولكنّنا لن نحترم هذا القانون. لأن الأخلاق أهمّ من القانون. هيّا سندخل من خلف الحاجز ».

حمل المشاركون علب الحليب المجفّف بيد والشّعارات باليد الأخرى وتوزّعوا في الحقول المجاورة باتجاه الشارع الرئيسي المؤدي إلى حوّارة. الشوك يملأ المكان والنزول إلى الشارع وعر. بيننا أشخاص في السبعين من العمر يتقدّمون ببطء ولكن بخطوات ثابتة. من مرة لأخرى يصرخ أحدهم « شوي شوي.. » ولكن الخطوات تتسارع دون انتباه، فالأهل في حوّارة ينتظرون. في الطريق تختلط الهتافات العربية بالعبرية وبالصراخ كلّما مرّت سيارة مستوطنين « أخرجوا من هنا.. ». السيّارات العسكرية واصلت الطيران ذهابًا وإيابًا بشكل استفزازي صارخ ولكن المتظاهرين لم يتنازلوا عن الهدف: حوّارة.

بعد فترة نتلقّى مكالمة: لقد قمع الجيش التجمهر في البلدة وأعلن فيها حظر التجوّل.. الخطوات لا تملك سوى التسارع. وعلى مشارف قرية بيتا يصطف الجنود بعرض الشارع

امام المسيرة. الصف الأوّل من المتظاهرين يتكاثف، وتتعالى الهتافات: الحرية لفلسطين، أيها الجنود – إلى بيوتكم.. نصطدم بهم والجنود يفشلون في صدّ المسيرة، فقد دخلت من بينهم ومن حولهم. هذا المشهد سيتكرّر عدّة مرّات في الطريق ولكن عبثاً. وعندما اعتقلوا الشاب الطالب الجامعي، ربحف، جلس العشرات أمام السيّارة العسكرية ومنعوها من التقدّم حتى أفرجوا عنه. وكانت هذه فرصة صديقي سامي الغاضب على الدوام حتى يصطدم بالجنود!

وصلنا حوّارة. الفتى عوّاد يقول لي إنّهم أطلقوا الغاز والرصاص المطاطي (تعريف علمي: رصاص فولاذي مغطّى بطبقة رقيقة من المطاط، قُتل به مثلاً الشاب رامي غرة في قرية جت – المثلث) وأنهم فرضوا حظر التجول.. في مركز البلدة تتواصل الهتافات، والسيارات العسكرية تحتشد. فجأة يُعلن أحدهم: لقد خرج الأهالي في مسيرة وكسروا حظر التجوّل وهم في الطريق إلينا. تتعالى الهتافات، وحين تلتقي المظاهرتان يتعالى التصفيق وتشرق الوجوه. بحثتُ عن لحظة اللقاء ورأيت العديد من العيون الدامعة، مصافحات حارّة، يهود يحاولون التعبير بما لديهم من كلمات عربية وعربٌ فلسطينيون يستعملون الكلمات العبرية التي تعلموها في سوق العمل الإسرائيلية أو في سجون الاحتلال. لكن اللغتين تحملان هنا مفهوماً واحداً: مصيرنا مشترك سواء في السلام أو في الأمن الحقيقي. يتبادل المتظاهرون الكلمات وجميعهم يتحدثون لغة واحدة، هي لغة التحرّر من الاحتلال. فالفلسطيني يصرّ على التحرّر منه، وهنا في حوّارة التقى نشيطي «تعايش» الذين يصرّون هم أيضاً على التحرّر. لأن الاحتلال لا يقع على الفلسطيني فحسب، بل على الإسرائيلي أيضاً. وهؤلاء المتظاهرون الذين اخترقوا حصاراً وحظراً للتجوّل يعون هذا الأمر جيداً. ربّما لهذا السبب استقبلهم أهل حوّارة بحرارة، فقد رأوا فيهم شركاء حقيقيين في النضال المشترك تحت الشعار: الحرية والسلام والأمن لنا جميعاً.

هكذا تسقط ديماغوغية الحكومة الإسرائيلية بشأن «عدم وجود شركاء للتفاوض». وهكذا يتأكّد أن السلام الوحيد الممكن هو بين الشعوب، بعيداً عن الرعاية الأمريكية وعن ظلال مخابراتها القائمة.. بعيداً عنها ولكن أيضاً رغماً عنها!

خلال عرض الفيلم رأيتُ نفسي (واقفاً وظهري للكاميرا على خلفية مرور دبابات)، لا أخفي فرحة طفولية اعترتني وجعلتني أبتسم في العتمة كالأهبل!

بين مكنستين

في قرية طرعان الجليلية يقف أطفال قرب نصب تذكاري على قارعة الطريق، عليه أسماء

شهداء من الاعوام ١٩٣٦ و١٩٤٨. الأطفال لا يوفّرون الكثير من التفاصيل لكنّهم يعرفون الصورة العامة. مَنْ ضدّ مَنْ. صحيح أنها بالأسود والأبيض أكثر من اللاّزم، ولكنّها الذاكرة، هكذا هي. إحدى السيّدات تتحدّث كيف جرى اقتلاعهم من بلدهم في النّكبة. تعرّضوا لقطع الطريق عليهم، والماء عنهم. المقاتلون فعلوا كل ما بوسعهم، أمّا التعزيزات من الأشقاء فقد غابت. هناك نكتة سوداء عن فرقة عسكرية جرى تهجير العديد من القرى في منطقة نفوذها. لم تُحرّك ساكنًا. الاهالي كانوا يتوجّهون غاضبين مذهولين: افعلوا شيئًا! «ماكو أوامر» كان الجواب. «ماكو دم» جاء الرد!

في كيبوتس «بارود» عملت شهرين في قطف التفاح والاجاص. كنت عاملاً زراعيًا قليل الاجر مع عدد من شبان قريتي. اذكر كهلاً كان يحدّثنا كم هي الحياة جميلة هنا، يكفي أن تسمع عصفورًا وتجلس في ظل الشجر صباحًا حين تكون مشبعة بالندى البارد، حتى تعرف معنى الحياة.

في «بارود» نسمع قصة تهجير «فراضيّة» التي قام عليها الكيبوتس، و«كفر عنان»، وغيرها وغيرها. من نفس المكان الذي لا يزال فيه الندى يُبلّل التفاح سمعنا عن «المكنسة».

بدا العجوز مطمئنًا للمخرجين، كما يبدو. لذلك تحدّث عمّا فعله وكأنه يروي بطولات. مفرداته لم تخل من مرجعيات مخيفة. تحدّث عن الفلسطينيين كـ«طابور خامس لم تسمح لانفسنا بتركه بين ظهرانينا ونحن نحضر للمعارك مع الجيوش الأردنية والسورية وجيش الانقاذ». ويقول إنّه: «كان من الضروري طرد الفلسطينيين الذين يعيشون وراء خطوط القتال، وخلق استمرارية في الأراضي التي يسيطر عليها اليهود. فرقتنا المؤلّفة من ١٥٠٠ مقاتل كانت تقترب من القرى الفلسطينية وتبدأ بإطلاق الرصاص لإخافة السُكّان ودفعهم للهرب. الخوف النفسي أفظع خوف، خوفهم هذا دفعهم إلى الهرب». وهو يعترف: «قتلنا الكثيرين» أمّا اسم العملية فكان «المكنسة». العجوز لطيف ويتعاون مع الكاميرا وهو حين يُسأل يجيب: «المكنسة تُستعمل لتنظيف الأرض، وفي حالتنا لتنظيف المكان من العرب».

المخرجان يلحّان بأسئلة من مجال الأخلاق. المقاتل السابق يتحدّث أنه كانت في قلوبهم رحمة. «وتهجير النساء والأطفال، أهو رحمة؟»، يُسأل العجوز، فيُجيب: «نحن لم نرغب في فصل الاطفال عن أهلهم (الذين هُجّروا) وهذه هي الرحمة».

في لقاء مع سيّدة جاءت من المغرب، روت عن العمليات السرّية لدفع اليهود المغاربة على الهجرة. أساليب شتّى ملؤها الإغراء والوعود التي لم تصمد. السيدة نفسها عملت

بتوجيهات أجنبية (« كان هناك مسؤولون يأتون بشكل سري من أوروبا وينظموننا ») . من بين من دفعتهم للهجرة كان والدها . اليوم تبكي مصيره ومصيرها وما فعلته : « والدي خلّف وراءه البيت والسيّارة وحتّى مفتاح المحل ولم يأخذ معه إلاّ حقيبتين . لقد كان سعيداً جداً في المغرب وكانت حالته المادّية جيّدة ، لكن أنا التي اقنعته بالهجرة وأرسلتُهُ قبلي إلى إسرائيل . وصل هنا ولم يجد عملاً . لم يكن اليهود المغاربة معتادين على العمل كمزارعين ، وعندما أتوا تم رميهم في مناطق نائية . . كنتُ شابّة وكنتُ أُصدّق الكلام المعسول ، وكنّا نُردّده . اليوم ، بعد ما رأيته وعشته ، لم أعد أُصدّق شيئاً . وعودهم كلّها ذهبت مع الريح » .

عملية تهجير اليهود المغاربة من بلادهم إلى فلسطين كانت عملية منظّمة وتحمل اسماً . وحتى للتقي النقاط نكتشف من حديث السيدة أن اسمها كان : « عملية المكنسة » !

مكنسة في المغرب ، ومكنسة في الخليل و « تنساني يميني لو نسيتك يا أورشليم » .

مغربي آخر ، كهل أسمر ، يعيش في بلدة شمالية يقول للمخرجين في مرحلة ما : « مشتاق لبلدي » .

جاره الشاب يرفض : « دعك من هذا . بلدك هو هنا . إسرائيل » . ويضيف : « أنت هنا يهودي جديد » .

العجوز يستوضح : « ألا ترغب أنت بترك هذه البلاد ؟ » .

الشاب : « هذه بلادي ، فلماذا أتركها ؟ أنا وُلدتُ هنا » .

العجوز : « إنس . عُد إلى تونس . أملك جاءتنا من تونس » .

ننتقل إلى فناء بيت وقد اجتمع فيه عدد من الجيران ، وكلّهم من أصول مغربية . سيّدة تونسيّة الأصل تروي باكيةً كيف فقدت ابنها الأصغر (الثامن) في حرب لبنان : « لم أعد أحتمل إسرائيل وشارون . أنا أم فقدت ابنها . . . مات قبل نهاية خدمته العسكرية بخمسة أشهر » .

السيّدة تلخّص حالة تنهشها المفارقات : « إسرائيل دولة غنيّة ولكن لا ينقصنا سوى أمر واحد : السّعادة . لسنا سعداء هنا . كل يوم تنقل الأخبار موت واحد في غزة أو في لبنان . كلّنا بشر ويجب أن نصنع السلام » .

المخرج : « هل يمكن أن يعيش العرب واليهود بسلام ؟ » .

السيّدة التونسية : « طبعاً ، يجب أن نعيش كما كنّا نعيش في تونس . كان العرب جيراننا وكنّا نعيش ببساطة وسعادة . وليس مثل الوضع هنا . هذه ليست حياة ، أن تفقد كل شيء حين تكون تملك كل شيء . أين هي السعادة ؟ »

تضيف : « لو كان بإمكاني العودة للوراء لكنت سافرتُ إلى كندا أو بقيت في تونس . لم

يكن علينا أن نُصدّق الوكالة اليهودية ».

الكاميرا كأنّها هائمة على وجهها. صور متسارعة ووقفة مفاجئة. « توقّفْ. منطقة حدود أمامك ». وتتوقّف الكاميرا أمام الامر الصارم الخارج من لوحة موضوعة في منتصف الطريق.

* أقيم هذا النشاط، لأوّل مرّة في تاريخ المهرجان، ضمن الدورة الـ ٢ لهذا المهرجان الدولي، بين ٣٠ أيلول / سبتمبر و٧ تشرين الاول / أكتوبر ٢٠٠٤ تحت رعاية فصليّة « مشارف »، في إطار تعاون خاصّ بين المهرجان والمجلّة.

كاتب فلسطيني مقيم في حيفا

« نفسي حزينة جدًا حتى الموت »

وُجِّهت انتقادات لفيلم « آلام المسيح » على الوصف المروِّع للآلام الجسدية والإذلال المجاني الذي تعرّض له، لكنني بعد متابعة الحبكة الدرامية وجدتُ أنّ الآلام الجسدية كانت أقلّ وقعًا عليَّ بكثير من عزلته ووحدته القاتلة في السّاعات الأخيرة التي سبقت صلبه. وفعلاً بعد أن عدت إلى « إنجيل متّى » لاحظتُ أن هذه الوحدة، وهذا التخلّي عنه بدأ في مرحلة مُبكّرة قبل أن يشي به يهوذا الأسخريوطي ويسلّمه إلى الكهنة. وقد لمستُ هذا التدهور النفسي في الفيلم ووجدتُ له أدلّة في الإنجيل المذكور. لنأخذ مثلاً هذا المقطع من الأصحاح السادس والعشرين[1]، والذي يتحدّث عن ليلته الأخيرة وإحساسه المرير بتخلّي تلاميذه (بطانته) عنه رغم حاجته لهم في محنته وضيقه النفسي:

« .. حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يُقال لها جثسيماني فقال للتلاميذ اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلّي هناك. ثم أخذ معه بطرس وابنَيْ زبَدي وابتدأ يحزن ويكتئب. فقال لهم نفسي حزينة جدًا حتى الموت. امكثوا هنا واسهروا معي. ثم تقدّم قليلاً وخرّ على وجهه وكان يُصلّي قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبُر عنّي هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تُريد أنت. ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نيامًا. فقال لبطرس: أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعةً واحدةً. اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة. أمّا الرّوح فنشيط وأمّا الجسد فضعيف. فمضى أيضًا ثانية وصلّى قائلاً يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عنّي هذه الكأس إلاّ أن أشربها فلتكن مشيئتك. ثم جاء فوجدهم أيضًا نيامًا. إذ كانت أعينهم ثقيلةً. فتركهم ومضى أيضًا وصلّى ثالثة قائلاً ذلك الكلام بعينه. ثم جاء إلى تلاميذه وقال لهم ناموا الآن واستريحوا. هوذا السّاعة قد اقتربت وابن الإنسان يُسلَّمُ إلى أيدي الخطاة. قوموا ننطلق. هوذا الذي يسلّمني قد اقترب.. »[2].

هذه الدراما المروّعة لإنسان وحيد بكل معنى الكلمة و« خلصاؤه » غافلون عنه وهو في أمسّ الحاجة لهم، بل ويأتي أحدهم لتسليمه إلى أعدائه ويراه ماثلاً أمامه في ختامها،

أعادت إلى ذهني نظرية نفسيّة تحليليّة تدعى علم النفس التحليلي العلائقي (relational psychoanalysis)، والتي تنصّ باختصار شديد على أنّ دافع الإنسان في الحياة هو بناء صلة وعلاقة مع الآخرين. فالانسان مخلوق اجتماعي، والاطفال الذين لا يجدون شخصية بالغةً، ليست تُعنى بهم وبأمورهم الجسدية فقط إنّما أيضًا تتواصل معهم، يموتون بكل بساطة او تظهر عليهم اعراض التخلّف العقلي. ولرولان بارت فقرة جميلة بهذا الصّدد إذ يقول في كتابه « خطاب عاشق »: « الأم المعطاءة تضع أمامي مرآة، صورتي الشخصية، إنّها تخاطبني: « أنت على هذه الشّاكلة ». أمّا الأم الصّامتة فإنّها لا تقول لي ماذا أنا: لا يعود لي أساس، فأحلّق بالم، وكأنّه لا وجود لي ». وليس بغريب على صاحب مقولة « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » أن يذبل ويذوي ويحلّق بالم قبل موته، رغم أنه تكابر في البداية بقوله: « امّا الرّوح فنشيط وأما الجسد فضعيف »، إلاّ أن الضربات النفسيّة المتتالية جعلته يئنُّ تحت وطأتها ويتخلّى عن مكابرته ليقول باستسلام ويأس في الختام: إلهي إلهي لماذا تركتني!. وقد برزت هذه المعاناة على عدّة أصعدة، منها مثلاً إنكار بطرس له. ففي الأصحاح نفسه يجري بينهما الحوار التالي:

« حينئذٍ قال لهم يسوع كلّكم تشكّون فيَّ في هذه الليلة لأنه مكتوب انّي أضرب الرّاعي فتتبدّد خراف الرّعيّة. ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل. فأجاب بطرس وقال له وإن شكّ فيك الجميع فأنا لا أشكّ أبدًا. قال له يسوع الحق اقول لك إنّك في هذه اللّيلة وقبل أن يصيح ديك تُنكرني ثلاث مرّات. قال له بطرس ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك. هكذا قال أيضاً جميع التّلاميذ »[٣].

بعد هذا الحوار يأتي المقطع الأوّل والذي يكون فيه التّلاميذ نيامًا وهو في أمسّ الحاجة لصحبتهم وأنسهم له، أمّا بطرس فيتحقّق فيه كلام السيّد المسيح فعندما تجمّع الحشد عليه وبدأوا يضربونه نصل إلى المشهد التالي:

« أمّا بطرس فكان جالسًا خارجًا في الدّار. فجاءت إليه جارية قائلة وأنت كنتَ مع يسوع الجليلي. فأنكر قدّام الجميع قائلاً: لستُ أدري ماذا تقولين. ثم إذ خرج إلى الدهليز رأته أخرى فقالت للّذين هناك وهذا كان مع يسوع النّاصري. فأنكر أيضًا بقسم إنّي لست أعرف الرّجل. وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس حقًا أنت أيضًا منهم فإن لغتك تُظهرك. فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف إنّي لا أعرف الرّجل. وللوقت صاح الديك. فتذكّر بطرس كلام يسوع الذي قال له إنك قبل أن يصيح الديك تُنكرني ثلاث مرّات. فخرج إلى الخارج وبكى بكاءً مرًّا »[٤].

هذا الثّالوث: الإنكار، الخيانة والتخلّي في ليلة واحدة أراه هو، وهو وحده، آلام المسيح

الحقيقيّة. هناك مقولة شهيرة لسارتر يقول فيها: «الجحيم هو الآخر». وفعلاً نحتار ماذا نفعل بهذا الآخر، فمن جهة نحن مُبَرمَجون للتعلّق به والتواصل الحيّ معه للحفاظ على صورتنا الإنسانية اللائقة، وفي الحالات القصوى في حال فشل استمرار هذا التواصل أو تعذُّره دون إيجاد تعويض مناسب قد يؤدّي إلى الهلاك الحتمي، كما حدث للأطفال تعيسي الحظّ الذين لم يجدوا من يتواصل معهم فبقوا ساكنين بلا حراك في أسرّتهم والتي أخذ تجويفها يتعمّق أكثر فأكثر بسبب قضاء أوقاتهم في حالة غيبوبة وعدم القدرة على الاستمرار في الحياة. ومن جهة أخرى من يُقرِّر البقاء لوحده تنتفي عنه صفة الآدمية ليكون إمّا حيوانًا أو إلهًا على حدّ تعبير سقراط. طبعًا الأمور تحمل الكثير من التنويعات اللونيّة فليست هناك صلة خيّرة بالمُطلق ولا شريرة بالمُطلق لكن الحالات القصوى تعمل كناقوس خطر. وفي هذا السّياق أقول إنّي أحببت مقطعًا من الإنجيل، وهو مثال ضَرَبه السيّد المسيح لأتباعه ووجدته مثالاً على مفهوم التواصل مع الآخر:

«يشبه ملكوت السموات إنسانًا زرع زرعًا جيّدًا في حقله. وفيما النّاس نيامٌ جاء عدوّه وزرع زوانًا في وسط الحنطة ومضى. فلمّا طلع النبات وصنع ثمرًا حينئذ ظهر الزوان أيضًا. فجاء عبيد ربّ البيت وقالوا له يا سيد أليس زرعًا جيّدًا زرعت في حقلك فمن أين له زوان. قال لهم إنسان عدو فعل ذلك. فقال له العبيد أتريد أن نذهب ونجمعه. فقال لا لئلاّ تقلعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه. دعوهما ينميان كلاهما معًا إلى الحصاد وفي وقت الحصاد أقول للحصّادين إجمعوا أوّلاً الزوان واحزموا حزمًا ليُحرق، وأمّا الحنطة فاجمعوها إلى مخزني».

وقد وجدتُ في هذا المثال نموذجًا لمرحلة خيميائية / نفسية تُدعى عملية الفصل. فبناءً على نظرية يونغ النفسيّة، والذي تبنّى العمليات الخيميائية ووجد لها أبعادًا نفسيّة، فإنّ مرحلة الفصل ضرورية للإنسان لترتيب مضامينه الداخلية وتحقيق الاستقلالية بعد أن يتخلّص من الشوائب التي قد تعلق به. وتبدأ أساسًا بانفصال الجنين عن أمّه ساعة الولادة. والعملية النفسيّة التي ترافق مرحلة الفصل تسير وفق النموذج الثلاثي: التعايش - الفصل - الفردانية. وهو مطابق للنّموذج الذي قدّمه السيّد المسيح في مثله، وهي عملية دائرية تبدأ بالحنطة المفردة، والتي يشوبها الزوان لاحقًا، ليضطرا البقاء معًا في فترة تعايش وعدم إتاحة الفصل خشية إيذاء النّفس إذا حدث ذلك قبل أن تتهيّأ الظُّروف المناسبة لهذه العملية، ليأتي بعدها الفصل الحتمي للتخلُّص من الشائبة، وفي النّهاية تحقيق الفردانية باستقلاليتها المرغوبة. ولا يمكن للفصل بأن يتحقّق دون صراع، كما جاء في المثال والذي اضطر فيه الزارع في النّهاية إلى حرق الزوان والتخلُّص منه. أما بالنّسبة للإنسان فأقول إنّه

أحيانًا يكون غافلاً / نائمًا وتندسُّ في حياته صلة / زوان غير مرغوبة، ولا يتمكّن من فهم طبيعة مخاطرها إلا لاحقًا، لكنّه يضطر للتعايش معها فترة من الزّمن إلى حين تتهيّأ الظّروف المناسبة لهذا الفصل، كان يُنكر أصلاً أن هذه الصلة تدميرية إلى أن تقع حادثة تقنعه بضرورة الفصل، وإنهاء هذه الصلة الشائبة، وفي النّهاية بعد التخلّص منها يتمكّن من حماية نفسه من العطب.

لا شكّ في أن حاجة الإنسان للصلة والتواصل مع الآخر هائلة، لكنّي أعتقد أن بداخله برمجيّات نفسيّة تتيح له حماية نفسه من صلة نفسيّة قد تؤدي إلى هلاكه، أو تمكّنه من التحايل على الأمور والحفاظ على بقائه على قيد الحياة وتحييد مفعولها السلبي. صحيح أن الأمر قد يعني صراعًا طويلاً وممضًّا لكن إذا تمّ الفصل بعد الاقتناع بأنّ تكاليف الصلة أعلى بكثير من مردودها الإيجابي، هذا في حال كان الإنسان متوازنًا ويعرف جيدًا كيف يحسب الأمور، ولم تتمكّن هذه الصلة من تعطيل راداراته النفسيّة وقدرته على وزن الأمور والتصرّف بالشكل المناسب. أقول إنّه في حال تمّ الفصل في الوقت الصحيح فإنّه قد يقود إلى التجدّد وإلى البدء بمرحلة جديدة قد تحمل معها بارقة أمل إيجابي. لذلك عندما يقول يهودا عميحاي: «الرّيش الأبيض المتناثر على باب مغارة إنّما يدلّ على موت قاس لكنّه يدل أيضًا على جمال طيران جناحين وعلى رفرفتهما» فإنّه يشير إلى هذه الثنائية التي تُزاوج بين الموت والحياة، البداية والنهاية. فالفصل هو في الحقيقة دهليز نفسي ببابين: بابٌ للخروج وبابٌ للدخول، بابٌ للنهاية وبابٌ آخر للبداية.

١ يعتمد هذا النصّ إصدار جمعيات الكتاب المقدّس المتحدة، ١٩٦٥.
٢ الأصحاح ٢٦/ ٣٦-٤٦.
٣ الأصحاح ٢٦/ ٣١-٣٥.
٤ الأصحاح ٢٦/ ٦٩-٧٥.



«أُم الروبابيكيا»: جدليّة المحليّة والعالميّة

انهمك الفلاسفة على مدى العصور بالبحث عن أجوبة أو تحليل واستنتاج لعدة قضايا جوهرية شغلت البشرية في عدة مجالات، منها: الحياتية واليومية، وظواهر الطبيعة، حتى التعجيزية منها، والتي لا تمتّ بصلة لجوهر الإنسان وسر كينونته وخاصّة فلسفة القرون الوسطى الأوروبية، حين عالج الفلاسفة (الحكماء ورجال الدّين) مسائل مثل: كم من الشياطين يستطيعون الوقوف على رأس إبرة، أو ما هو عدد الشياطين يوم القيامة، وغيره. أما المعضلات الأساسية فقد أخذت الجانب الأكثر شموليّة لدرجة الارتقاء بالمقولات الفلسفية إلى مرتبة القوانين الأساسية لمسيرة المجتمع البشري مثل: الضرورة، الصدفة، الحتميّة، العام والخاص، الإمكانية والواقع، الظاهرة والجوهر. لكن كل هذه الشموليات والتعميمات لم تجد لها شكلاً للظهور إلاّ من خلال ما يسمّى بـ«المكوّنات الصغيرة». أي من خلال الخاص. فحتّى حديثنا عن المقولات الفلسفية لن يستطيع تخطّي الجدليّة بين الخاص والعام.

وهكذا لا يمكن التعامل بشمولية مع مسرحية «أم الروبابيكيا» إلا من خلال الاستخدام الحرّ لتلك المقولات، وخاصة حوارية العام والخاص.

لستُ من نقاد المسرح، وعلى ما يبدو فالمسرح والمسرحيات هي نقطة ضعفي، لكني سمحت لنفسي أن أخوض غمار هذه التجربة من منطلق استمرارية بحثي عن كاتبنا الكبير إميل حبيبي. ففي حزيران ٢٠٠١ أقيم حفل كبير ورسمي للاحتفاء بالكاتب في مدينة حيفا، أُلقيت من خلاله الكلمات المؤثّرة والمعبّرة عن أثر إميل حبيبي في الحياة الثقافية العامة في هذه البلاد. لم ترق لي حينه أوصافًا قيلت بحقّه من قبل بعض الشخصيات جعلتني أستنجد بغيرتي عليه، حثّتني على البحث عنه قائلاً: «أبحث عن إميلنا». ومنذ ذلك الوقت وأنا أبحثُ عنه من خلال الأنتيتي الفلسطينية بالحفاظ على اتمائية هذا الحدث النفيس خوفًا من ضياع أصالته ومنبعه. نحن لا نقدّم للبشرية فقط الشهداء وفنون النضال

<< مشهد من «أم الروبابيكيا» / عدسة: وائل واكيم

وكلمة « التفاضة » وآيات التضحية، فقد قدّمنا لها من خلال إميل حبيبي، وغيره من ادبائنا، أسلوبًا خاصًا ومميزًا، وعن طريق هذا التقديم وصلنا إلى « العالمية »، لكنّنا لا ولن ننسى محلية هذا الادب وهذا العطاء. فغوركي في « أمه » لم ينطلق بكتابته من باريس، وهوغو لم ينطلق في « أحدبه » من لندن. الكل سرح في خياله من خلال واقعه وأرضه وحتى داخل بيته وعائلته. هكذا تُصنع الروايات والحكايات. فحتّى العولمة بأعلى تجلياتها لن تستطيع محو ما هو محلي وأصيل، وهذا الأمر ينطبق على محاولة فنانينا وادبائنا الخروج من المقوّمات والمؤثرات المحلية، حيث لا يألون جهدًا بدون أية ضرورة لذلك بإثبات عالميتهم من خلال إنتاجهم. فعالميّة أو عمومية إنتاجهم ما هي إلا محليّتهم وأصالة إبداعهم الناجم عن واقعهم. فرقيّهم « العالمي »، عابر الحدود، يمر من خلال إنتاجهم « المحلي »، فقط ليس إلا.

ولمسرحية « أم الروبابيكيا » لنا عودة. يعتقد البعض منّا ان أجمل المسرح أقربه إلى العامّة. فإذا كان النص الاصلي يخص مكانًا أو زمانًا عينيًا فهذا سيعيب حتمًا على جودة المسرحية وإمكانية رواجها؟! وإذا لم يكن للمسرحية ذلك الحضور « الأونفرسالي » و« السيوجيت » العام فقد يُكتب لها الفشل! من قال هذا؟!

« أم الروبابيكيا » في نصّها الاصلي حيفاوية (وإن كانت بعيدة عن اللهجة الحيفاوية) كحيفاوية إميلها، وهذا الأمر لن ينتقص من أصالتها قيد أنملة كونها كذلك. ونخصُّ بالذكر ان النص المسرحي ما هو إلا مسرحة القصّتين كان كتبهما حبيبي في سداسيته – « النورية » و« أم الروبابيكيا ». لقد قلت في البداية إنني ما زلت ابحث عن إميل حبيبي. حقًا، فقد بحثت عنه من خلال العرض المسرحي فلم أجدهُ. حاولتُ استعادة شريط الذاكرة واستحكام المنطق والموضوعية النسبيّة حيث لا « إطلاق » في مثل هذه المواضيع الحسّاسة. إستعدت العرض مرّتين في الواقع، وعدة مرّات في الذّاكرة، حتى وصلت إلى استنتاج لم ابغ الوصول إليه. فالممثلة روضة سليمان أعطت كل ما عندها من مهارات في الاداء، حتى انها لعبت دورين – الأوّل ممثلة قديرة والثاني – تحوّلت موضوعيًا لمؤثر من المؤثرات المسرحية كمشكلة ملازمة للمسرحيديّة، وبالتالي فليس لي نقاش مع الممثلة أو مع المخرج يوسف أبو وردة. وإذن أين يكمن بحثي عن حبيبي؟! إذا عزلنا القصّتين من « سداسيّته » عن النص المسرحي الذي نقّحه إميل حبيبي في ٢٥ / ٨ / ١٩٩٥، في العدد الثاني من مجلة « مشارف » – (أيلول ١٩٩٥)، أستطيع ان أسمح لنفسي مناقشة هذا العملاق المحلي والعالمي على ما أتاه من نص غير متواصل ومبهم وكأنه « في ذاته » كقول فريدريك انجلز « الشيء في ذاته » مضادًا لـ « الشيء لذاته ». فـ « الشيء في ذاته » هو الفن للفن والأدب

للادب والشيء لذاته هو للجماهير. فمهما اجتهد المخرج واجتهدت الممثلة في أداء النص لن تستطيع المسرحية إتمام دورتها الادبية والاجتماعية والسياسية المشحونة كما ابتغى كاتبها إميل حبيبي. فقول الفصل هو لذلك الحشد من الجماهير التي حضرت المسرحية بآلافها آملاً باستيعاب التفاصيل الدقيقة دون عناء. فالمشاهد للمسرحية يحق له عزل نفسه ولو لبرهة من درب آلام التفكير ليقف أمام مشاهد لربما تعطيه الأجوبة السريعة. نحن ندرك تمام الإدراك بأن إميل حبيبي لم يرد لقارئ ومشاهد مسرحيته اليُسر في استيعابها تمامًا كما فعل في «لكع بن لكع» و«سرايا بنت الغول». فإذا كانت قراءة هذه الإبداعات محفوفة بمخاطر وعناء الاستيعاب فكم بالحري مشاهدة تلك القطعة الأدبية «أم الروبابيكيا» من على خشبة المسرح المرفقة بالجو الموسيقي الرائع، المتجدّد والحديث، ليساعد تارة الممثلة في حركاتها وفي نطقها وليعيق سمع المشاهد أحيانًا، تارة أخرى.

إميل حبيبي الكاتب، إميل حبيبي عضو الحزب القيادي، يبقى في وادي نسناسه ويصادف بيتًا منفرداً في شارع قيسارية في تلك السنوات العصيبة. يطرق باب تلك المرأة ويدخل منزلها المؤلّف من غرفة واحدة ويسألها فتجيبه. نعم، إنّها هند من شارع قيسارية من حي وادي النسناس. نحن الجيل الثاني بعد النكبة، عرفنا «هند» وعرفنا كنوزها وعرفنا كنه حياتها وعرفنا أيضًا «بديعة المجنونة» التي قطنت شارع وادي النسناس والتي فقدت أولادها خلال النكبة، ولربما دمج الكاتب «هند» من شارع المساوية مع «بديعة المجنونة» من شارع وادي النسناس، تمامًا كما دمج «النورية» و«أم الروبابيكيا». نعلم الآن مضمون تلك الـ«هند» - «ملكة وادي النسناس» غير المتوّجة. ونعلم أيضًا جوهر شخصية «أبو جميلة» و«النورية» والدبّ والدفّ والسّعدان. كل هذا لمسناه في المسرحية. إلا أننا لم ندرك حضور تلك الشخصيات الوهمية وتلك الانتقالات الفجائية لهذه الشخصيات كـ«عبد الله» و«الولد الجعدة»، وآخرين. فما ذنب المشاهد الذي لا يعرف تاريخ حيفا، فما ذنب المشاهد الذي لم يقرأ «السُّداسية»؟

أقولها بصراحة: أنا ابن حيفا أبًا عن جد، لم استطع التمتّع بما هو لي من إميل حبيبي في نصّه هذا، فكم بالحري لمن ليست له صلة؟! لمست في المسرحية النص الحيفاوي أو قل تلك المرجعية الحيفاوية، إلا انّها كانت «مشوّهة». ولنأخذ على سبيل المثال شخصية «أبو جميلة». . فالواقع انه لم يُقم أيّة حارة من التّنك، ولم تكن حارة التّنك في حوّاسة ولا في تل حنان، فحارة التّنك، وإن أُقيمت فكانت في أرض الرّمل قرب «شيمن». فحوّاسة هي المقر الاصلي لما يسمى بقرية «التخنيون» حيث حصلت مجزرة. فـ«تل حنان» هي «بلد الشيخ». أضف إلى ذلك ان «أبو جميلة» هو سوداني الأصل. على الرغم من كون هذه

التفاصيل هامشيّة إلا أن دقّتها تضفي طابعًا خاصاً على النص والأداء المسرحي.

أعرض هذه الحقائق ليس في سبيل الانتقاص من الأداء المسرحي بل في إطار محاورتي وحواري مع كاتب هذا النص. كما في النص، كذلك في المسرحية، يعيدنا الكاتب إلى أيّام الطفولة مكثراً بذلك من الأغاني والترديدات (مثل: صيد العصافير، راجعون، وطني، ابو جميلة، إم رعيدة، يا ابن العم، زينه يا مزيّن، من الهيش، ابريق الزيت، موال لعبد الوهاب)، التي، وللأسف، أخذت بالزوال كزوال العديد من مكوّنات ولَبِنات تلك الحيفا، التي عبدها ويعبدها الكاتب. فمن ناحية المحور والحيّز الزمني مسرحًا والحيّز الكمّي نصّاً نلاحظ اتساع رقعة هذه التراثيات (حوالي ١٥٪) التي تكمل الفكرة الاساس – نكبة الجزء الهام من «هند»، زوجها وأولادها، وبالتّالي نكبتنا الاجتماعية والنفسيّة، وهنا تكمن وحدة النص والمسرحية. وقد أبدأ سؤالي بسخافة معيّنة: من أين هذه التسمية؟! فنحن أبناء حيفا قلنا «رابش» أو «أم الرابش» أو «الروابش» أو «البرابيك». فليكن لك ذلك يا أبا سلام وهنيئاً لك بهذا النص الذي لن توافق عليه أنت ما دمت حيًا أو ميتًا في بحر حيفا سواء قلت «باقٍ» أم «ماضٍ» فأنت الرمز وأنت الشعلة. وسلام عليك يوم ولدت ويوم تموت ويوم تبعث حيًا من قبرك في «كفرسمير» مباشرة إلى مسرح «الميدان» لترى بأم عينك ثمرة ما كتبت وما يكتب عنك.

اعذرني يا أبا المتشائل عمّا بدر مني من «وقاحة» وكأن لسان حالك يقول: «أكتب يا ابن حيفا ما استطعت فأنا الباقي والسابق وأنت اللاحق»

وللإيجاز فـ«أم الروبابيكيا» المسرحية، على الرغم مما كتبته مجتهداً للحوار والنقد النابع من بعض الدقائق «الميّتة» خلال الأداء المسرحي، تبقى مسرحية تحاور جدلية المحلية والعالمية من خلال الخاص والعام.

أم الروبابيكيا / مسرحية لممثلة واحدة

تأليف: إميل حبيبي

إخراج: يوسف أبو وردة

تمثيل: روضة سليمان

مرافقة موسيقيّة: يوسف حبيش

إنتاج: مسرح «الميدان»، حيفا

كاتب فلسطيني وباحث بدرجة دكتوراة في الاقتصاد السياسي، مقيم في حيفا

رؤوف مُســـعـــد

عن الكتاب العربي والثقافة العربيّة في فرانكفورت

كتابات كثيرة تناولت بالمدح أو الذّم معرض فرانكفورت الدُّوليّ للكتاب. وهو كما يبدو جليًا من اسمه، يَميلُ إلى التّخصّص في فنون الكتابة وتسويقها. وحينما ظهرت فكرة مشاركة الدُّول العربية كضيف شرف اساسي في المعرض، لم يَسْتَبِن المتسابقون إلى المعرض الفرق الكبير بين الكتاب كسلعة «ثقافية» آنية وبين «الثقافة» كَجَدَلٍ إنساني وحضاري مُتواصل.

من هنا جاء الالتباس المخزي في موقف «الأنظمة العربية» التي رَحّبَت بالمشاركة من أجل «منح الغرب صورة صادقة عن الثقافة العربية-الإسلامية في أحسن صورها باعتبارها ثقافة التسامح وقبول الآخر». كما نادت أبواق الدعاية الخاصة بهذه الأنظمة. وتجاهلت أن سبب المشاركة هو عرض الكتاب العربي كسلعة ثقافية تُنافِسُ، أو على الأقل تحاول أن تنافس نظيرتها الغربيّة والآسيويّة والإفريقية. هذا هو سبب وجود المعرض أو تبرير وجوده في قلب واحدة من اهمّ المراكز التجاريّة العالميّة الغربيّة.

هرولةُ الأنظمة وتهافُتها على المشاركة لم تَكُنْ مبنيةً على السَّذاجة أو عدم الفهم، لكنها تَرْتكِزُ على المبدأ الذي تقوم عليه هذه الأنظمة وهو «استغفال الآخر». مبدأٌ يقصد في هذه الحالة استغفالَ الآخر الكامن في هيئات «الغرب الرأسمالي الإمبريالي» الذي تتنطّع هذه الأنظمة بأنها في صراعٍ مصيريٍ ضدّه بعد أن وُلِدَت وَرَضَعَت وَتَرَعْرَعَت بين ذراعَيْه وَتَسَلَّمَت منه «الكارت بلانش» في اضطهاد شعوبها المقهورة والمغلوب على أمرها.

مثلما تواصِلُ الأنظمةُ محاولات استغفال الغرب، كذلك الأمر تواصِلُ استغفال شعوبها، وبنجاحٍ، فتُثير حساسية هذه الشّعوب لكلّ ما يأتي به الغرب أو من الغرب، لتُؤَجّجَ رفضها (شعوبًا وأنظمةً) لإصلاح حالها، قبل أن تفلت الأمور من زمامها نتيجةً للظلم والفساد والتّوريث، ترفضه باعتباره تدخلاً في شؤونها السيادية!

فكرة استغفال الآخر تطوّرت طوال التّعوُّد على استغفال المواطنين، لتصبح عادةً مُتأصّلَة.

انتقلت بدورها من الأنظمة إلى الأجهزة الثَّقافيَّة في البلاد العربية، أجهزة من المفترض أن تلعبَ دورًا حِياديًا – على الأقلّ – بين الأنظمة من ناحية و« المثقّفين » من ناحية أُخرى. لكن « الأجهزة » شَابَت على ما شَبَّت عليه، فاختلطت عليها الأمور بعد خلطها المتعمَّد لها، وانداحَت الفواصلُ بين طبيعتِها المفترضة وطَبْعِها المفروض.

إحدى هذه الأجهزة هو « اتّحاد النّاشرين العرب » الذي قام بالتَّنسيق مع « جامعة الدُّول العربيّة » التي خاطبت بدورها « وزارات الثّقافة العربيّة ». كل هذا بهدف توفير الأموال اللازمة للاشتراك. أي اشتراك؟ مجرّد حجز مساحة من القاعات كَلَّفَت حوالي ملايين ثلاثة من الدُّولارات (أو اليوروات؟) دفعت معظمها بعض الدُّول النّفطيّة، وبعض الدُّول غير النّفطيّة، التي تَدَّعِي لنفسها رِيادةً حضاريّةً–ثقافيّةً–عربيّةً–إسلاميّةً، وإلخ... كما تمّ دفع حِصَص الدُّول الأُخرى الفقيرة بحيث تظهر الشُّقيقات العربيّات متماسكات ومتخاصمات امام الغرب المتآمر، الذي هدفه الأول والأخير تمزيق الصَّفّ العربيّ وتشرذُم الشُّقيقات، لكي يسهل عليه ابتلاعهنّ (كأنهنّ يستعصينَ على الابتلاع السهل).

تَبَنّى « اتّحاد النّاشرين العرب » في شخص رئيسه المصريّ، إبراهيم المعلّم، التّرويج للذاهب إلى المعرض والتسويق للأجهزة الثّقافيّة والجامعة الدُّول العربيّة. وتَمَخَّضَت مبادرة الاتّحاد عن مولود مُشَوّه، يَتَنصَّل منه « المعلّم » في حديث صحافيّ له بعد المعرض، مُدَّعيًا بأن سبب وجود هذا المولود المشوّه هو « أنّ الأجهزة الثّقافيّة تعاملت مع معرض فرانكفورت بنفس أُسلوب تعاملها مع معرض القاهرة ». نُلاحظ هنا سيادةُ « ثقافة إلقاء اللوم » على الآخر بدلاً من تحمُّل الخطأ والنّقد الذّاتيّ.

الأجهزة الأُخرى التي شاركت في المعرض هي تلك المسؤولة عن وزارات الثّقافة العربيّة وأجهزة الجامعة العربيّة. وبالطّبع، فجميعها أجهزة لا غبار عليها من النّاحية المهنيّة، فهي في النِّهاية تطبّق سياسة « ولي الأمر ». هذه السياسة التي كانت وما تزال تطبّق نداء الخلفاء في عصور ازدهارهم وانحطاطهم: « من بالباب اليوم؟ » فتُلقى على مسامعهم أسماء من يقف بالباب ينتظرون السَّماح بالمثول والإنشاد والمدح كي يَتَسَلَّمُوا عطاياهم.

بل إن بعض مسؤولي هذه الأجهزة دَعَوا أنفسهم إلى فرانكفورت باعتبار أنهم أَولَى بالعطايا من غيرهم. فمع أنّ المعرضَ مُخَصَّصٌ لصناعة الكتاب، مهنيًا وفكريًا، وبالتالي لتبادله كسلعةٍ ربحية، إلا أنّ القارئ الغربيّ المعنيّ، يقوم أيضًا بدوره بتنشيط صناعة الكتاب من خلال متابعته المجلات المتخصّصة في النّقد، وتردّده على ملايين المكتبات الخاصّة والعامّة ومُزاولته « ثقافة » إهداء الكُتُب في الأعياد والمناسبات، و« ثقافة » إشغال الوقت بالقراءة، أنّى كان، سواء في المواصلات العامّة، وسواء في البيوت، وكذلك في

نوادي الكتاب المتخصّصة.

هذه «ثقافات» لا علاقة لها بنا في العالم العربيّ. فمن يعرف تاريخ منطقة قاهريّة اسمها «الفجّالة»، يُدرك مصير المكتبات الخاصّة التي احترفت متاجرة الكتب. تحوّلت هذه المكتبات إلى متاجر للأدوات الصحية، واختفت تدريجيًا المكتبات التي تبيع الكتب في القاهرة (١٤ مليون مواطن) لِتحلّ محلّها محلات بيع الأغاني والأشرطة الدينية. والمصير ذاته يتحرّك ببطء، زاحفًا تجاه المكتبات العامة.

صناعة الكتاب العربيّ، هي أيضًا سلعة تخضع للعرض والطلب. فالطلب هذه السنوات على «الكتاب الدينيّ» باختلاف أنواعه. إنه الكتاب الذي يظهر فجأةً في شهر رمضان، فتجده في الأيدي المرتجفة والأصوات المتهدّجة في المترو القاهري، ليختفي بعد ذلك فيظهر في مواسمه الرّسميّة مرةً أُخرى.

تشيرُ الإحصائيّات الرّسميّة إلى أنّ «مكتبة الأسرة» التابعة للهيئة العامة للكتاب (الرّسميّة) تطبعُ ما بين خمسة آلاف إلى سبعة آلاف نسخةٍ من كتابها الرخيص الثّمن، وتوزّعه على شعبٍ يقارب تعداده السبعين مليونًا! بالمقابل، فإنّ تقريرَ الأمم المتّحدة للتنمية البشريّة يشيرُ إلى ما يُترْجِمُه بَلَد أوروبي صغير، مثل إسبانيا، يتجاوزُ كمًّا، مُجْمَلَ ما تنتجه الدُّول العربيّة جمعاءَ من تأليف وترجمة.

ثم يتنادى الرَّكْبُ: «علينا أن نذهب إلى معرض فرانكفورت الدّولي للكتاب»! وَهُم على حقّ المعرفة بأن معظم «كتبنا» غير قابلة للتسويق، والسَّبب في ذلك لا يكمن في التّرجمة المتّهمة بكل نقيصة. السّبب هو أنّ الكتاب العربيَّ – في معظمه – سلعة غير قابلة للتسويق.

(هذه تهمة خطيرة، معاديةٌ للثقافة العربيّة، بل وللقوميّة العربيّة وتسيء بالتالي إلى سمعة الكتاب العربيّ، بل وإلى الشّعوب العربيّة).

فلكي تُباع سلعةٌ ما، يجب أن تجدَ لها شاريًا ما، ولكي يتواجد هذا الشّارِي، يَتَوَجَّبُ على أصحاب ومُنتِجي هذه السلعة أن يقنعوه بحاجته المُلِحّة لشرائها. وبالتالي، فعليه هو أن يقتنعَ بضرورةِ هذه السِّلعة له وبحاجته إليها.

فهل تنطبق أيًا من هذه الشّروط على القارئِ الغربيّ؟ أيٌّ من كُتُبنا تُثير شهيّة القارئ الغربيّ الحريصِ عادةً في إنفاقِ نقوده على شرائها؟ كتب إسلاميّة؟ كُتُبٌ تُلقِي على الغرب وحده تهمة جلب وتجارة الرّقيق؟ كُتُبٌ عن المؤامرة الغربيّة السّياسيّة الصّليبيّة على الإسلام وعلى الحضارة والقوميّة العربيّة؟

كُتُبٌ تُبشّرُ بحقوق المرأة والإنسان في الأنظمة العربيّة والدّساتير الإسلاميّة تتحدثُ عن

حقوقٍ تفوقُ مثيلاتها في الأنظمة الغربيّة؟

أو روايات «مُنَقَّحَة» عن «ألف ليلة وليلة»؟

أو الكُتُب التي دَبَّجَهَا كاتِبُوهَا تؤالب الأجهزة والقرّاء على المؤلّفين المصادرة كتبهم مثل «مقدّمة في فقه اللغة» (لويس عوض) أو «وليمة لأعشاب البحر» أو «الخبز الحافي» مثل تلك التي يكتبها حلمي القاعود (وهو يُدَرِّسُ الأدب العربيّ في جامعة إقليميّة مصريّة) بعنوان «الواقعيّة الإسلاميّة في روايات نجيب الكيلاني» والحبلُ جرّارٌ على الشّعر وبقيّة الأجناسِ الأدبيّة الأُخرى.

بالطبع هذا إجحاف بحقّ «الأقليّة الأدبيّة» التي تغرّدُ خارجَ السِّرب، التي تستطيع بسبب وجود الإنترنت وبسبب انتشار النّشر الخاصّ، أن تسرِّبَ أفكارها وكتبها. لكن بما أنها أقليّة، فهي تتبارى في ملاعبها الدّاخليّة وغير مهتمّة بالتّرجمة التي هي أيضًا لا تُعيرُهَا اهتمامًا من خلال المُترجمين.

إن الكتاب الذي يُنشر بالإنكليزية ويُبَاع منه مليون نسخة في طبعته الأولى، يُقَدِّمُ للكاتب والناشر الربح والانتشار. ولا يجرؤ النّاشرُ على الادّعاء ببيع المليون نسخة كذبًا، فهناك أجهزة متخصّصة مهمّتها التأكّد من هذه الأرقام، بالإضافة إلى الأجهزة الضرائبيّة أيضًا!

ليست كل الكتب تخترق حاجز المليون. لكن منافذ بيع الكتاب متعدّدة، في المطارات ومحطات القطارات والميترو: هناك قراءة للمصايف وقراءة للشتاء، إلخ...

لكن القراءة في بلادنا موسميّة كما ذكرتُ. موسميّة دينيّة بالتّحديد. منافذ البيع محدودة. وحينما نريد أن تهدي شخصًا ما هديةً ما، فأنت لا تفكّر في كتاب ما، بل في غرَضٍ «مفيد» مثل احتياجات المطبخ أو غرفة النّوم أو السّيارة.

فما الذي سيستفيده هذا الشّخص المعيّن من كتابٍ ما، لماركيز أو لطه حسين؟

ومع ذلك تُنادَى الرُّكْبان «هيّا إلى معرض فرانكفورت الدُّوليّ للكتاب»!

أي كتاب فكّرت الرُّكْبانُ في تسويقه عالميًا في فرانكفورت؟ لنجيب محفوظ النوبلي، تَمَّ تسويقه وانتهى الأمر، وقدّمت نوبل إلينا هذا العام كاتبةً «شَهِيَّةً» سوف تطغى مبيعات كُتُبِهَا بلغتها الأصليّة وبترجماتها العالميّة على من سبقوها، وخاصةً على محفوظ.

إلى اللغة الألمانية تَمَّت ترجمة بعض الأعمال العربيّة، كذا إلى اللغات الأُوروبيّة الأُخرى والقليل جدًا إلى اليابانيّة والصّينيّة والروسيّة. تَمّت التّرجَمَةُ عبر مؤسّسات أُوروبيّة مثل «ذاكرة المتوسّط»، وقد توقّفت منذ سنوات لقُصورٍ في التمويل. ثم أنشطة بعض دور النّشر التي هي نتيجة لتحمّس بعض المترجمين الأُوروبيين لأعمال بعينها. وبالمناسبة قد لا

يعرف العديد من قرّاء العربيّة أن « شيخة » المترجمات والمترجمين الألمان، دوريس كلياس، ترجمت « زبيبة والملك » المنسوبة إلى كاتبها صدّام حسين لدار النشر الألمانية « توماس باليور » . وهذا يؤكّد قولنا إن دور النّشر الغربيّة مثلها مثل الشّرقيّة تبحثُ عن الرّبح، بغضّ النّظر عن أهميّة الكتاب أو مُستوى الكتابة .

اذكر التّرجمة هنا لأؤكّدَ على دورِها الغريب والخطير أيضًا في تعريف القارئ الغربيّ بالأدب العربيّ . يقومُ بالترجمة متخصّصُون في اللغة العربيّة . دَرَسُوها اكاديميًا واحْتَرَفَ بعضهم التّرجمة التي لا تُغْني عن جوعٍ بجانبِ ما يَقْتاتُون به من اعمالٍ أُخرى، في الاغلب جامعية .

لا تتجاوزُ الأعمال العربيّة المُتَرْجَمَة في مُجْمَلِها لِنسبَة ضئيلة للغاية من مُجْمَلِ الإنتاج العربيّ، كما انّها ليست بالضرورة تمثّله أحسن تمثيل ؛ جغرافيًا ام كيفيًا . كما انّ الترجمة متهمةٌ بانها تبحثُ عن « أدب الإثارة الغرائبيّ » لتضمن تسويق الكتاب . وهي تهمٌ في الاغلب جائرة .

التجأ الكثيرون إلى إلْقاءِ اللومِ على التّرجمة باعتبارها المسؤولة الأساسيّة عن عدم وجود الكتاب العربيّ في السّوق العالميّة . هي تهمة تحمل بعض الحقيقة لكن ليست كلها . فكل الحقيقة تقعُ مسؤوليّتها على « الاجهزة الثقافية العربيّة » وعلى وُلاة امرها، فهم يستطيعون بما تحت أيديهم من أموال « كراء » بعض المترجمين . لكن الوجه الآخر من الحقيقة يجعلنا نجزم بأن هذه الاجهزة ووُلاة الامر ايضا، لا يعنيهم هذا الأمر في قليلٍ أو كثير .

لكن هل السّوق الغربيّة مُهِمّة إلى هذه الدرجة ؟

للكاتب ام للناشر ام لكليهما ؟

حينما بَدأْنا الكتابة في منتصف السّتّينات في مصر، ظهَرَ مترجم إنكليزيٌ يُدْعَى دينيس جونسون ديفيس . قام بترجمة عدد من القصص المصريّة وغير المصريّة القصيرة لِكُتّاب لم يَكونُوا معروفين أيّامها سوى في دائرةٍ ضَيِّقَة مِنَ المُتابعينَ مثل إبراهيم إسحق إبراهيم، ومحمد خضير، وبهاء طاهر، وابراهيم الكونيّ، وحنان الشّيخ، وعبد الحكيم قاسم، وجمال عطيّة إبراهيم، وغسّان كنفاني ومحمود الورداني، وغيرهم، ثمّ أُعيدَ نشرها مرةً أُخرى عامَ ١٩٨٣ من دار نشر « كوارتيت » البريطانية .

كنّا نَعْتَبِرُ التّرجَمَة « مفيدة » في وضع الكاتب على خريطة الكتابة . وبتعبيرٍ أكثرَ صراحةً، كُنّا نعتبرُها اعترافًا عالميًا بأهميّتنا كَكُتّاب، وَبِوُصُولِنا إلى العالميّة !

لكن الحقيقة غير ذلك، فأنا أسْكُن في نفس الحي (في أمستردام) ونفس الشّارع منذ اكثرَ من خمسة عشر عامًا ولا يعرفُني أحد باعتباري كاتبًا إلا بعد أن نَشَرَت صحيفة الحيّ

التي تُوزّعُ مجانًا صورتي وحوارًا قصيرًا معي، وذلك بعد أن تمّتْ ترجمة «بيضة النعامة» إلى الهولنديّة. لم أُحسّ بالفخر أو العالميّة، أحسستُ بالحَرَج من الشُّبّانِ المصريين العاملين في محل الشوارمة المُجاور، إذ تحوّلتُ في نظرهم من مجرّد مواطن مصري أحتسي القهوة معهم وأتبادَلُ النكات إلى «شخص مهمّ»، يَستَفتُونني في كُبْرَيَاتِ الأمور.

لذا وبمعرفتي – الآنَ – بتقنيّات التّرجمة والتّوزيع أستطيع أن أجْزِمَ أنها لا تُضيفُ شيئًا للكاتبِ غير الغربيّ سوى بضعة «يوروات» قليلة لا أكثر من هذا ولا أقلّ. فما زال قرّائي العرب هم الذين يتابعون كتاباتي، ويتواصلون معي عبر الإنترنت.

يجب أن يُطْرَحَ السؤال التالي: هل يجد الكتاب العربيّ سوقًا عربيّةً ويستطيعُ أن يَعْبُرَ بكتابه الحدود، بين دول تتحدّثُ العربيّة ويصلُ تعدادُها إلى أكثر من مائة وخمسين مليونًا من المواطنين العرب؟!

وبالتالي كم نسخة يوزّعها الكتاب العربيّ على هؤلاء الملايين المُفتَرَضِين؟!

أرقامٌ هَزِيلةٌ ومُخْجِلةٌ، نحنُ شعوبٌ شَفَهِيّةٌ سَمَاعِيّةٌ غير قارئةٍ. وَضَعْنَا الأبجديّةَ وَتَرَكْنَا القراءَةَ.

ثم هل يستطيع الكتاب العربيّ أن ينتشر بدون عوائقَ داخل حدود دولة الكاتب نفسه؟!

الإجابةُ معروفةٌ للسؤالين، ولا داعٍ للاستزادة!

إذن، فالترجمة، أي اعترافُ الآخرِ الأجنبيّ بالكاتب العربيّ، يتحوّل إلى شيء عبثيٍّ طالما عانى الكتاب العربيّ من عدم الاعتراف به داخل حدوده.

لماذا كانت هذه الضجّة على فرانكفورت ونحن لا نمتلكُ سلعةً نبيعُها في السُّوق هناك أو نُقَايِضُ بها؟ وحتى إذا امْتَلَكْنَا هذه السّلعة أو بعضها، فهل – كما قلتُ – نستطيعُ تسويقها طِبْقًا لقانون السوق الغربيّ؟!

أعْتَقِدُ أنَّ كافّة الأطراف التي اشتركت في معرض فرانكفورت، ذهبت بدافع حُسن النيّة، فلستُ من أنصار نظريّة المُؤامرة. دَفَعَ بهم حُسْنُ النّيّةِ إلى إنفاق ثلاثة ملايين دولار (أو يورو) ذهبت إلى جيوب الألمان «الشّاطرين» من أهل السُّوق الذين باعُوا الشّمس للعرب. ثلاثة ملايين كانَ من المُمْكنِ أن تستثمرها في صناعة الكتاب العربيّ في بلداتهم. لكن هذا أيضًا مُحَالٌ. المُمَوّلون العرب لم يعنهم الكتابُ العربيُّ بقَدْرِ مَا عَنَاهُم تَجْمِيلُ صورتهم أمامَ وليّ الأمر الأجنبي «انظُر. نَحْنُ نُنَادِي بثقافة التّسامُح وقبول الآخر. انظُر إلى «مُنتجاتِنا الثّقافيّة» من خَيْلٍ وليل وبيداء وقهوة بالهيل... انظُر هؤلاء كاتباتٌ سافرات الوجوه يتأبّطن كُتُبهن التي ساهَمْنَا في إنتاجها باعتبارنا دولةً متسامحةً». نَظَرَ وليُّ الأمر وابتسمَ وهو يهمسُ ضاحكًا: «على مين؟ على بابا؟!».

تَنبَّهَ الألمانُ إلى افتقاد المعرض «للرأي الآخر» العربيّ، فقامُوا بدعوة كُتّاب من خارج الأجهزة، وهم الذين أضْفَوا بعض الحرارة المُفتَقَدَة في معرض تجاري – لا علاقة له بالثقافة – يُرَوِّجُ لسلعة اقتصادية.

ومن قواعد التّرويج أن يرى المُشْتري بين وقتٍ وآخر «نجومه» من المؤلّفين ويستمع إليهم يتناقشون ويتحاورون في قضايا السّاعة التي تهمُّه وتؤرّقه، (فالكاتب في الغرب نجمٌ له جمهوره الواسع). يطمحُ الجمهور بالاستماع إلى نقاش عن العولمة، والإرهاب، والحُبّ، والإسلام، والحِجاب وتنفيذ الشّريعة الإسلاميّة، والعلاقات العائليّة والـ «ساينس فيكشن»!

لذا جاء جمهور ألماني غفير يستمع إلى نجمه: جونتر جراس. فهو نجمٌ وكاتبٌ هامٌّ على المستوى الألمانيّ والعالميّ. يقومُ دائمًا بإعلان وُجهة نظره الإيجابيّة والمُتحيِّزة –أيًا كانَ موقفُنا منها– لجانب الثّقافة العربيّة.

قامَ جراس أيضًا، في أثناء مشاركته في المعرض، بقراءةٍ تبادليّةٍ مع شاعرةٍ عراقيّةٍ، أثارت مشاركتها إيّاه زوابعَ ورمالاً من المُعلّقينَ وكتّاب الصّفحات الثّقافيّة والأعمدة الصحافيّة. كما أثارت ردود أفعال على هذه الكتابات. تكمن أهميّةُ جراس في أنه كاتب يستند على إنجازاته الأدبيّة والثّقافيّة، التي تثيرُ ضجّةً وحوارًا، وتُناقشُ بشكلٍ أساسيٍّ «الحالة الثّقافيّة الألمانيّة» منذُ تأسيس الدولة الألمانيّة، أي الحالة العسكريّة البروسيّة سابقًا، ثمّ الحالة النازيّة والموقف من الحرب وتأييدها الشّعبيّ الحاشد، والموقف من العنصريّة الآريّة، والتّطهير العِرْقيّ المُصاحب لهذه الحالة الألمانيّة، أثرت ليس في أُوروبا وأمريكا فقط، إنّما امتدت تأثيراتها المعقّدة إلى آسيا وإفريقيا والعالم كلّه لتثمر «ثقافة الهولكوست» ونتائجها، التي تلخّصت أهمّها في «تأسيس دولة لليهود في فلسطين».

145 من هنا تأتي أهمية جراس الفكريّة وإسهامه الثّقافيّ، ليس الألماني فحسب، بل على المستوى العالمي. فهو يناقش بشجاعة صعودَ وانحطاطَ الثّقافة الألمانيّة في مراحلها المختلفة، ولا ينسى إعلان موقفه الإيجابيّ من «القضيّة الفلسطينيّة» رغمَ ما يجرّه عليه هذا من متاعبَ.

دوزي

أين نحن إذن من هذا كلّه؟

أوَلَمْ يُحرَم كاتبُنا النوبليُّ الوحيد، نجيب محفوظ، من رؤيةِ روايته «أولاد حارتنا» تُطبَعُ في بلده؟ بل أليس هو القائل دومًا «إنه يريد أن يُوافقَ الأزهر عليها قبل طبعها»؟!

ألَمْ يُعلن الرّاحل الشّيخ الغزالي، بأنه هو الذي أرسَلَ إلى جمال عبد النّاصر يشتكي من «أولاد حارتنا» ويُطالبُ بمنعها من النّشْرِ مسلسلةً في صحيفة «الأهرام»، ومع ذلك واصلَت الصّحيفة نشرها؟ لتمنع الرقابة الدينية بعد ذلك صدورها مطبوعة في كتاب في

مصر؟!

تُعْتَبرُ الكتابةُ والفنُّ إعادةَ إنتاجٍ للثقافة السائدة. فالعصر الذي كَتَبَ فيه محفوظ «أولاد حارتنا» كان عصر طرح الأسئلة وعصر القَلَقِ الوجوديِّ على الكِيانَاتِ العربيّة بعد الاستقلال. وفي عصر النازيّة الألمانيّة، ظهرت موسيقى وقصائد ومسرحيّات وثياب وقصّات شَعر وحتى هندسة عمارة، تعكس الرؤية النازية للألمان عن أنفسهم وعن العالم. وحينما دُحِرَت النّازيّةُ عسكريًا، تمّت هزيمتها ثقافيًا أيضًا، ليس بشكلٍ نهائيٍّ، فالثّقافات المختلفة، تنهزم لكنها لا تموت أو تختفي نهائيًا.

كذا دُحِرَت ثقافةُ عصر «أولاد حارتنا» والتي كانت ثقافة مرحلة طلوع الرُّوح للعصور التي سبقتها: الشّعر الجاهليّ، والإسلام وأصول الحكم، ولماذا أنا مُلْحِد؟

لكن الإنجاز الألمانيُّ الفكريُّ لسنوات ما بعد النّازيّة، لم يتنكّر نهائيًا للماضي باعتباره جريمةً وخطيئةً، بل حاولَ أن يفهَمَهُ ويفسّره ويبرّره، لكي يتصالح الألمان مع أنفسهم ومع الآخر.

هذا هو واحد من إنجازات جراس منذ «الطبل الصّفيح» حتى «مِشْيَة السَّرطان»، لهذا حينما نضربُ مثالاً بجراس، فنحن نتحدث هنا عن إنجازٍ فكريٍّ حيٍّ ومُعاصرٍ ومُتناغمٍ مع نفسه ومع العالم.

إنجازُ كتابة ما بعد «أولاد حارتنا» تنكر نهائيًا للفروق بين الثّقافة المصريّة الهيلينيّة، والقبطيّة والإسلاميّة. اختار لثقافة وحيدة، مثلما اختار نظام عبد الناصر نظامَ حكمٍ وحيدٍ، وأعلنَ تنكُّرهُ لكل الإرهاصات السّياسيّة لما قبل يوليو.

لذا لم يكن غريبًا أن تلدَ يوليو –بعد جمال عبد الناصر– نظامًا يُنْكِر ثقافات ما قبل الإسلاميّة.

بعض الاستخفاف العربيّ، الذي قُوبِلَ به جراس كشخصٍ وكمفكّرٍ، لمشاركته القراءة المتبادلة، يعبّر عن عَطَبٍ أساسيٍّ في «الكتابة» العربيّة، أي عن الاستهانة بالآخر مهما كانت انجازاته، طالما اختلفنا معه حول بعض التفاصيل غير الهامّة.

هذا العَطب في الكتابة هو انعكاس للعَطَبِ الثقافيّ. وهو يظهر جليًا في تناوُل معرض فرانكفورت. عَطَبٌ لم يتعرّض للالتباس بين «المثقّف» والكاتب، بين الثّقافة باعتبارها الروح الجمعيّة المستمرّة والمتجدّدة لشعبٍ ما، سلبًا أم إيجابًا. والكتابة التي هي انشغالٌ بالقضايا التي تطرحها الأزمات الثّقافيّة لشعبٍ ما. الكتابةُ التي قد تُعَبِّرُ، أحيانًا، عن هذه الأزمات، كما تعبّرُ عن ثقافةٍ دَخيلةٍ أو ثقافةٍ مُنْحطّةٍ. قد تُعبّر عن مصالحَ آنيّة لهذا الكاتبِ أو ذاك، سياسيّة أم شخصيّة، كتابة لا علاقة لها بالإبداع الخلّاق، لكنّها تُعبّر عن أزمة

مجتمع.

لهذا كان الإحساس العربيّ في المعرض، يشبه إحساس شخص أخطأ العنوان لدعوة على العشاء، فهو يريدُ أن يشاركَ بشكلٍ فعّال، لذا أحضرَ معه مساهمته. أحْضَرَ الحلوى والموسيقى ومظاهر الضِّيافةِ العربيّة (كما يتخيّلها) ليَجِدَ نفسه وَسْطَ عشاء عملٍ رسمي. أطباق صحيّة جافّة ونقاش جدي.

أحضرَ بعضُ العَرَبِ، خيولهم العربيّة تتراقصُ بخطوها أمام الأعين المندهشة، بجوار «الخيمة» التي وَقَفَ فيها أدونيس يُلْقِي بعضَ قصائده بمُصَاحَبَةِ توزيع موسيقيَ عَرَبِيٍّ. كانت هناك عربيّات يَقُمْنَ بوضع الحنّة فوق الأكفّ البيضاء الشّاحبة لزائرات غربيّات. كانت هناك أطباق حلوى عربيّة شاميّة وخليجيّة، مختلطة بنشرات دعائيّة سياحيّة وخناجر وسيوف وعمائم. وفي أطراف المدينة كانت هناك معارض عن أيقونات قبطيّة وتمائم مارونية وليالٍ شعريّة حضرها العربُ فقط ليناقشوا بعضهم البعض وليستمعوا لبعضهم البعض.

كما حضرت كاتبات عربيات لَهُنَّ باعٌ ونفوذٌ وحضورٌ، شارَكْنَ في ندوات ونقاشات عن الحريّة وعن فلسطين وعن وضع المرأة العربيّة، معظمهنَّ لهنَّ كِتاب أو أكثر مُترجَم إلى الألمانية. معظمهنَّ جِئْنَ بترتيب ودعاوى من ناشريهنَّ الألمان.

مساهمات المؤلفين والمؤلفات الثّقافيّة وحضورهم الشّخصيّ، كانت الإنجاز الإيجابيُّ الوحيد في هذا الالتباس الحواريّ.

وماذا عن سلعتنا الأساسية إذن؟

من المُفترض أن تُثيرَ الكُتُبُ الأسئلةَ عندَ القُرّاء وتحفّزهم على التّفكير في الأجوبة المتروكةِ عمداً من الكتّاب.

لكن المُتابع لحركة النّشر العربيّة سيجدها مليئةً بالأجوبة القطعيّة الجاهزة والمكرّرة، فـ«الكتابات الإسلاميّة» تقدّم الأجوبة وتُعْلِنُ مرجعيّتها المقدّسة التي لا تقبلُ النّقاشَ، وهي تتصدّرُ قائمةَ النّشر. كتابات يكتبها متخصّصون وغير متخصّصين. كلها تحريضيّة. بمعنى أنها تحرّض قارئها على «رفض الآخر» أيّاً كانَ هذا الآخر: أُصوليٌّ أم «عِلْمانيٌّ»، كما يحلو للأصوليين وصف مُناوئيهم. كتابات تُرجِعنا إلى زمنِ المعتزلة وقضية «خلق القرآن»، زمن اظنّنا تجاوزناه بعدة قرون، لكننا اكتشفنا أنه مثل مرض السّرطان، يختفي ليظهرَ أكثرَ قوّةً، حتى يقضي في النّهايةِ على المريض الذي ظنَّ أنّه غالبه.

كتابات من نوع «هل يجوز للمسلم أو المسلمة مصافحة الآخر؟» و«هل ريق الصائم يفطره؟». هناك بالطبع بعض الكتابات العقلانيّة عن الإسلام، لكنها لا تضيفُ كثيراً إلى

147
دوفي

الكتابات التي لها وَزْنٌ وكتبها المتخصّصة في الشأن الإسلاميّ في الغرب، بلغة قرّاءهم وبدون الحاجة إلى الترجمة!

وهناك قصص وروايات عربيّة ترجعنا، معظمها، إلى العصر الفيكتوريّ البريطانيّ بمواعظها الأخلاقية وعبرتها الدينية. أقول معظمها، لأن هناك «أقلية أدبيّة» خارج السّياق الفيكتوريّ العربيّ، تُكْتَبُ عن وفي الدِّين والسّياسة والجنس بشكل يُثيرُ أسئلةً عند القارئ غير الكسول ليتماهى مع الكاتب في رحلته المليئة بالشُّكوك والتي تَخْلُو من الإجابات الجاهزة.

ما زلنا نقاتل أيضاً في معاركَ ضاريةٍ، هل نسمح بترجمة أدبنا إلى العبريّة أم أنَّ هذا تطبيعٌ يصبُّ في طاحونة شارون ونتنياهو ومن لَفَّ لَفَّهما؟!

للأسف، لم يترك لنا المترجمون السّابقون مداخلاتهم عن الترجمة وحولها. المترجمون الذين ترجموا إلى العربيّة الفلسفةَ اليونانيّةَ المنبثقةَ من شعب لم يؤمن بإله واحدٍ، ومارسَ الاحتفالات الدينيّة الجنسيّة. وحينما اكتشف الغرب في عصر التّنوير الفلسفةَ الإسلاميّةَ وقامَ بترجمَتِها، لم نعرف أيضاً الحوارات التي دارت بين المترجمين حولَ ترجمة إنجازات حضارةٍ دينيّةٍ مختلفةٍ عن حضارة المترجمين.

من المؤكّد أنَّ هذه مسائل تافهة لم تشغل بال العابرين، لكنّها تشغلنا بشدّةٍ الآن وهذا دليلٌ على اهتمامنا بالتّفاهات وتَركنا كُبْرَيات المسائل.

اهتمامنا بهذه السّفاسِف والتّفاهات هو ساترٌ لعجزنا أن نعترفَ بأنّنا ما زلنا دون إنجازٍ ثقافيٍ أو فلسفيّ أو إبداعي هامٍ ومُعاصِر. وإحساسنا بأننا لم يعد يهمّنا أن نؤثر في العالم من حولنا وألا نتركَ أثراً بعد خروجنا من العالم، سوى آثار كاذبة، آثار العنف الدينيّ المختلط بالقوميّ، والذبح أمام الكاميرات.

باعت لنا إدارة معرض فرانكفورت الوهم، واشتريناه وحاولنا تسويقه لمن باعوه لنا.

لقد تعوّدنا أن نشتري الوهمَ، وقرّرنا تدويره، وأن نبيعه لمن باعوه لنا.

هذا هو العبث بعينه!

نـصـوص»

يـاسـين عـدنـان

تفاح الظّل

كان عليّ في الحقيقة ان اكتب هذه القصة منذ خمس سنوات . فالحكاية حينها كانت طريةً ما تزال في القلب والوجدان . لا أخفيكم انني حاولتُ اكثر من مرّة، لكن دون توفيق . كنتُ أجد صعوبةً في وصف رجاء . خصوصًا في المشهد الاوّل حين طرقت بابي أوّل مرّة . تلك الجرأة المُفاجئة الصادرة عن كائن شفّاف وخجول، هذا بالضبط ما كنت افشل في وصفه فأمزق المسوّدة وأخرج . كلّما تمنّعت عليّ الكتابة أصفق الباب ورائي وأغادر إلى الحانة . لكن مع هذه القصة بالذات كنتُ أفضل الذهاب إلى الحديقة المجاورة . لماذا الحديقة بالضبط ؟ ولماذا مع هذه القصة بالذات ؟ لستُ أدري . هناك أمور كثيرة لا نستطيع شرحها . الطريقة التي دقّت بها رجاء الباب مثلاً والثقة التي خطت بها داخل الشقّة وهي تقول : اسمح لي أن أدخل أولاً، ثم الطلاقة الصاعقة التي أسرّت بها شعورها نحوي، دون أن تنسى التلميح إلى انها تعرف انه متبادل، فكل الرسائل التي كنتُ أبعث إليها على طول السنة الدراسية كانت تصل، ويبدو انني انا من كان يفشل في فكّ شفرات الأجوبة مع الأسف . هناك فعلاً أمور لا يمكن شرحها . فمباشرة بعد أن قالت رجاء كل شيء وبعد أن هرّبتُ ارتباكي إلى المطبخ لاحضر لها عصيراً كانت البنت قد استعادت خجلها الساحر . عدتُ إلى الغرفة ووجدتها منكمشة من جديد . ورغم انني بدأت أهرّج كعادتي حين أكون مرتبكًا، إلا انها كانت قد دخلت قوقعتها الصغيرة ولم تعد قادرة حتى على رفع بصرها في وجهي . في البداية، أعني في المحاولات الأولى، كنتُ ابدأ بوصف رجاء وهي تطرق الباب ثم وهي تدخل . كنتُ أحاول وصف جرأتها وأذكّر القارئ بعد كل جملة بخجلها الأصيل . لكنني كنتُ أفشل صراحة . كنتُ احيانًا أكتب صفحتين كاملتين . وحين أتجاوزهما دون أن أصف المشهد كما تلقيته وأحسسته بالضبط أمزق المسوّدة، خصوصاً وان هذا المشهد ليس أكثر من بداية للقصّة الحقيقية . ليست قصّة رجاء لوحدها . بل وقصّة نعمة أيضًا . طبعًا رجاء كانت تلميذة عندي لموسم دراسي كامل . كانت بنتًا صغيرة بوجه

صبوح ساحر، بجسد ضئيل ملفوف على الدوام في وزرة مدرسية بيضاء. لكن لمعة الذكاء في عينيها وورد الخجل المتفتّح على الدوام في وجنتيها كانا كافيين لأتورّط. لم يكن حبّاً في الحقيقة، بل فرحاً أبيض دافئاً ولذيذاً. فرحٌ بها وبحضورها الشفيف. كنت أحسها نسمة منعشة أسعد بها في الصباحات وهي تلفح وجهي وتتسرّب عبر فتحة القميص لتدغدغ جسدي كله. في محاولاتي السّابقة كتبتُ كثيراً من هذا الكلام. شيء كالشعر كنت أصفُ فيه حضورها البهي وطبيعة إحساسي بها قبل تلك الزيارة. لكنني اليوم سأحاول المرور مباشرة إلى صُلب القصة دون استفاضة في التمهيد. نسيتُ أن أخبركم أن رجاء حينما طرقت الباب واندفعت إلى الداخل لم تكن وحدها. كان وراءها ظل من لحم ودم. لذا حينما أحضرتُ العصير وجلستُ قبالتها قلتُ: لم تُعرّفيني برفيقتك؟ فأجابت في خفر بعينين خفيضتين: إنها نعمة. صديقتي الوحيدة. بحال نفسي، اعتبرها غير موجودة. ومنذ ذلك اليوم صارت نعمة دائماً معنا. وكنا دائماً نعتبرها غير موجودة.. ونحن نحضن بعضنا ونتبادل القبل. ونحن نتحرّك في الشقة شبه عاريين. بل حتى حينما نكون في غرفة النوم، كانت نعمة تداهمنا أحياناً فتفتح الباب لكي تسأل: أين وضعتَ السكّر؟ لم نكن نخفي عنها حميميتنا. كانت ظلاً خفيفاً لرجاء. ولم أكن أفهم علاقتهما. صحيح أن نعمة ليست جميلة، لكن هذا لا يمنع أنها جسداً بدأت مفاتنه تتفتّح والأكيد أن له نداءاته السريّة المشتعلة. لكن نعمة كانت تبدو سعيدة بوضعها. كانت تكتشف الحب والرجل واللّذة عبر رجاء.. وعبر حكايات رجاء. والأكيد أنها تعرف حتى الأشياء البالغة الخصوصية التي تحصل بيننا في غرفة النوم. فرجاء تحكي لها كل شيء، كل شيء، مهما بدا صغيراً وتافهاً. ومهما كان خاصاً وحميمياً. لكن المدى المذهل الذي بلغته علاقتهما لن أدركه إلا حين مرضت رجاء. كانت رجاء وظلّها تزورانني مرتين في الأسبوع. مساء الثلاثاء ومساء الجمعة. مرضت رجاء وأجرت عملية جراحية ألزمتها السرير لشهر كامل. وهنا كانت نعمة تزورني. تحرص على أن تملأ الشقة بنفس الصخب الجميل الذي كانت رجاء تنثره في أرجائها خصوصاً بعد أن غادرت خجلها الأوّل وصارت أكثر انطلاقاً في علاقتها معي. كانت نعمة تفعل الشيء ذاته. ترقص وتغني. تهيّئ الشاي والقهوة وترتب الغرف أحياناً حين تعمّ الفوضى. مرة ونحن في مرحنا الأبيض السعيد رنّ الهاتف. هاتفي في غرفة النوم جنب السرير مباشرة. لذا هرعت إليه. حملت السماعة واستلقيت على السرير وقلت: ألو.. كانت هي.. تماماً كما توقعت.. أقصد كما تمنّيت...

– رجاء حبيبتي، كيف أنت الآن؟

– بخير. لقد خرجتْ ماما قبل قليل وتسللتُ إلى غرفة نومها لأهتف لك. قل لي هل نعمة هناك؟

– طبعا حبيبتي إنها هنا. في الغرفة الأخرى. هل أناديها لك؟

– ....

وجاءت نعمة واستلقت إلى جانبي وبدأنا نكلّمها معًا. قالت رجاء إنها اشتاقت لي، فقبّلتها على الهاتف. لكن ذلك لم يكن كافيًا. قالت إن حرارة القبلة لم تصلها وطلبت مني ان أقبّل نعمة من اجلها. ان أغمض عيني وأفكر بها واطبع قبلة حارة ساخنة على شفتي نعمة. «إنما يا حبيبتي...». لكن شفتي نعمة كانتا حاسمتين. تبادلنا القبل لما يزيد عن عشر دقائق ورجاء تتأوّه في السمّاعة. صوتها يصلني كأنها معي. وأنا أغرق في شفتي نعمة ورجاء تتأوّه. ثم طلبت مني ان أمسك بنهدها الصغير. ورغم ان نهد نعمة كان انضج واشهى واكثر امتلاءً، لكنني ما كنت لأخون رجاء. لذا تخيّلت نهدها الصغير واطبقت عليه. بدات أمصمصه كما كنتُ افعل دائمًا مع رجاء. أمصمص الحلمة والحسها بلساني والنّهد الشهيّ يتفتّح امامي كزهرة برية تُسقى لاوّل مرة. كنتُ أفكر في رجاء وأنساها. وهي تتأوّه في الهاتف فيما بدت نعمة حريصة على ان تحبس انفاسها المتقطعة، وإذ تتأوّه كانت تفعل ذلك بصوت كتيم. ظلّت نعمة تأتي، وكلّما خرجت أم رجاء لشأن تحمل الشقيّة السمّاعة وتبدأ. وحينما لا تتصل نجلس انا ونعمة بشكل عادي في الغرفة الأخرى نلعب الورق ونسمع الموسيقى، أو نتفرّج معًا على التلفزيون. أشتهي مرارًا ان احضنها وان أقشّر تفاحتَيْ صدرها، لكنني ما كنت لأخون رجاء. ما كنت لأفعل وصوتها ليس هناك. لذا كنا نجلس هادئين إلى أن يرن الهاتف وحين لا يرنّ لا شيء يشتعل بيننا.

عادت رجاء. عادت إلى زيارتي مرّة أخرى. هذه المرّة تركت ظلها يطرق الباب ويتقدّم اولاً واختفت هي وراءه. لم تخبرني انها قد عادت لحياتها الطبيعية وانها غادرت السرير منذ يومين. ارادت مفاجأتي. كم أحب هذه البنت. حينما عانقتُها في الباب احسست نفسي خفيفًا كريح. رشيقًا كفراشة. مصطخبًا كموجة. ولا اعرف كيف حلّقنا كروح طائرة لنجد جسدينا ممددين على السرير. كانت رجاء تقبّلني وتبكي. وكان جسدها قد استحال بحيرة مقدسة وانا أعوم فيها وأسبح. لكن ما بالُ الماءِ يزبدُ ويصطخب داخل هذه البحيرة التي ألفْتُها هادئة؟ احسست وكان موجًا دافقًا يتسلّقني ويتكسّر على ظهري فيدغدغه. وحين التفتُّ كانت نعمة عارية هي الأخرى إلى جواري تلحس ظهري وتقبّله وتدفن وجهها بين كتفي. وكان نهداها ملتصقان بظهري من الخلف تمرحان فيه كمهرين

شقيين يلهوان فوق مرج أخضر. لم أفهم كيف حصل ذلك ولم أكن أتخيّل حدوثه. لكنّه حصل وتكرّر. فلم أعد أعرف أين ينتهي جسد رجاء ومتى يبدأ جسد نعمة. إذ في السرير كانا يستحيلان بحيرة. بحراً. بحرين. فمن يستطيع فصل الماء عن الماء؟ لكن نعمة ستبقى رغم ذلك ظلاً. فحتى وهي في أقصى حالات اللذّة كانت تكتم تأوّهاتها. وكان كل أنّة تلذّذ تصدر عنها خيانة لرجاء. وأنا أيضاً لم أكن أنطق غير اسم حبيبتي. وكانت نعمة بيننا. جسد أخرس يتلوّى بلا صوت ويتلذّذ بلا صوت، وبلا صوت ينتشي. وحين تنتشي كانت تنسحب من السرير إلى الخارج. تهيئ لنا شيئاً. عصيراً في الصيف وشاياً في الشتاء. ثم تطرق علينا الباب بأدب وتطل برأسها الصغير وهي تردّد مازحة: ألم تتعبا بعد؟ تعالوا نشرب شيئاً قبل أن نغادر. ثم مُوجهةً حديثها لرجاء: لقد تأخّرنا. وكنا نشرب عصيرنا في الصيف أو شاينا في الشتاء وتنسحب البنتان. وفيما كنت أقبّل رجاء بالباب مودعًا كانت نعمة تمدّ لي يدها مصافحةً. كنت أُصافحها فقط وحين تغادران أُفكر في رجاء كثيراً وأشعر بسعادة بالغة لأنني عثرت لها في البحيرة على تفاحتين أشهى. أكثر نضجاً وامتلاء. ولم أكن مع ذلك أفكر في غيرها حتى وأنا أكتب الآن هذه القصة. لكنَّ نعمة ظلُّها. فمن يجرؤ على فصل الجسد عن ظلّه؟ من؟ ثم إنَّ تفاح الظل أشهى لو تعلمون.

ورزازات، ٢٠ ماي/ أيار ٢٠٠٣

شاعر وكاتب مغربي مقيم في مراكش/ المغرب

عليه الستار.

عندما رأيتُ لينين للمرّة الأولى، وأنا أصل برلين قبل أكثر من عقدين، شعرت بالدّهشة. إذ واجهت الرجلَ الذي أعرفه منذ فترة الصبا، وها هو الآن يقف امامي. لم أحاول اكتشاف كنه الدهشة التي أُصبتُ بها، وما إذا كانت مشوبة بالحزن. لكن للحزن امام لينين أسبابٌ كثيرة، شخصيّة وغير شخصيّة. منها تلك التي تجعلك تفكّر بالمشاقّ وبالصعوبات وبالعواطف المتضاربة التي رافقت معرفته وصداقته. ومنها مصائر أولئك الذين دخلوا محرابه فخانهم النبيُّ، أو هم الذين وشوا به فحملوا الخطيئة. ولكن يكفي ان الحزن عاطفةٌ تحيلك إلى ميدان تمسك فيها ذاتك وتغتبط بعض الشيء في أنك تملك في داخلك ما يُحرّك الراكد. عندئذ يكون لينين امامك تاريخًا تتصالح معه، تقرأه، تسأله دون وَجَل.

كان ميدان لينين صغيراً مشذّبًا، كما لو انه بطاقة بريدية. ولكنه كان أيضًا يَضجُّ بالحركة لمن يراقبه بصبر وبتأنٍ. ثعالبُ وأرانب تتسل احيانًا من مكامنها، خاصة في الأماسي التي تُرسل الشمس أشعّتها الحمراء الشحيحة على الميدان، تاركة شجيرات العلّيق الكثّة حيث تختبئ تحتها خوفًا من الناس ومن الكلاب. بينما تحدّق احيانًا سناجبُ منفوشة الذيول في رجل يقف على منصّته وسط الميدان.

كان الرجلُ، آنذاك، يعتلي المنصة هناك. وُضع ونُحت على هيئته، عندما خطب في أكتوبر إيذانًا بالثورة، منقولاً من الصورة، التي حُذفَ منها تروتسكي، وعُمِّمَتْ ليكون وحيداً على المنصة بين العمّال وخلفه العلم الأحمر يخفق.

لقد تغيّر الزّمن منذ ان رَحّلوا لينين، وانسلت السنوات العشر الأخيرة، بسرعة أحيانًا، وببطء في احايين أخرى، وفق ما يحس بها المرء عندما يستعيدها. أو عندما تحضره من دون استئذان.

قبل قرابة عقد من الزمن، كان الرجل ذو اللحية المشذّبة يملك فائضًا من الوقت ليهشّ الضواري ويحيّدُ أسنانها حفاظًا على كائناته الوديعة التي يقضي معها ساعات طويلة تبعدهُ عن الوحشة، خاصّة في الليالي الباردة الطويلة التي لا يمر به كائن ما. كانت لديه القدرة على إسكات صوت الضباع والذئاب. جاءته تلك المقدرة من معرفة اللغة التي تتحدّث بها تلك الكائنات، وهو الفلاح الوحيد الذي انتحل المهنة وتكلّم معها بلغتها واعداً إياها بالغنائم، مهدداً بالعقابِ في الوقت نفسه، بالفأس الذي يخفيه تحت معطفه الضيّق.

رجل ملتحٍ من الرُّخام البنّي الذي أتوا به من الأورال، يملك ساحة واسعة باسمه. يُمسك بياقة معطفه أمام راية حجرية، يقف بين شجيرات الشربين، وهو يحدّق دائمًا إلى الأمام،

غير عابئ بحركة المرور وبالزّعيق المتصاعد من الحافلات، لأنها بالنسبة له زحافات تدخل إلى باطن الأرض. إنّها ذات التجربة التي واجهها في كهربة البلاد وفي حفر المناجم التي لم تجد نفعًا في حماية إرث اشتراكيته.

وما عدا بعض النداءات المبهمة التي كانت تصدر منه، وهي غير موجّهة إلى أحد، لم يحرّك شفتيه بل زمّها وكزّ على أسنانه طوال الوقت. كانت عيناه، معظم الوقت، تفيضان بالمودّة لمن يتأمّل سحنته عن كثب. وقد فعلتُ ذلك وتأمّلته عدّة مرّات لأكتشف الفرق بين رجل ينبض بالحياة وبين حجر نُحِتَ من الجرانيت. ولكن مَنْ يملك بعض المخيّلة يستطيع أن يتجاوز الرمز الحجري، ويُحلّق في سماء قادرة على إضفاء إنسانية طريّةٍ على الأشياء. كانت عيناه تقطر دمعًا حينما يلاقي أحداً في ساعات الليل المتأخّرة؛ حين يطلب السكون والوحدة من المرء أن يجد كائنًا يلتقيه ويتحدّث معه ويُفصح له عن دواخله. لم تكن الدموع التي تسيل من تلك العينين جرّاء ندى منتصف الليل الذي يُلامس الرخام البارد، بقدر ما كانت تسيل بسببٍ من سوء الطالع الذي يُلوّعُ القلبَ في الغربة، ويجعل العين تذرف دمعًا حتى وإن كان القلب من رخام. لقد جاؤوا به من الأورال، وبطقوس خاصة وبمعرفةٍ وبنانٌ نحتوه هنا بالأزاميل.

كان لينين يرتدي معطفًا واحدًا، هو ذات المعطف، لم يُكْوَ ولم يُنظَّف. وعلى هامته وكتفيه رَشْقُ الطيور. أما الحذاء الأيسر فقد كان مثلومًا بعض الشيء بضربة إزميل خاطفة. وما عدا ذلك بدت ملامحه هادئة ثابتة لا تتغيّر بتغيُّر الفصول، وتحوّل المشاهد، وتنوّع الطقوس.

ذلك إذًا هو الثبات أمام الكثرة، كما كان يريد. وهو الإصرار على الامتناع عن التنوُّع. واحدٌ لا يقبل القسمة مُطلقًا. وحساب الكسور خاطئ يُدخلنا في المتاهات. والمتاهاتُ عتمةٌ كالليل. والليل سمحٌ يمنح المخيّلة غلالة تغلّف بها الوهم والحلم والحقيقة بلون واحد.

هكذا كنت أعود في ظلمة الليل، حيث الهدوء والسكينة. النوافذ مطفأة النور. والصمت المطبق يتيحُ ليَ التجوال في الماضي والخوض في جدل الحاضر. وطوال الطريق إلى ميدان لينين، حيث أسكن العمارة العالية التي تطل على الساحة، تتلاشى أمامي الحدود وتضيع منّي الأماكن فلا أُدرك أحيانًا مكاني. لم يكن ما أشعر به من وجل مبعثه الخوف، بل كان ناجمًا عن احتشاد مشاعرٍ شتّى تأتي إليّ دفعة واحدة حتى أنني لا أتبيّن ما في دواخلي من عواطف لأُمسك بواحدة منها. كنت أُحس أحيانًا بأنني فائض، واستغرب من المكان. وأحيانًا متبوعٌ من قبل الآخرين. أناسٌ مجهولون يقتفون أثري. تختلط عليَّ المدينة في أماكنها وأسمائها، فادخل شارعًا لا أتخيّله في مدينتي الأُولى، وأرى وجوهًا تأتي من

الماضي فابدأ الحديث معها، ثم أسكت. كل شيء محتشدٌ في كيس واحد: الأمكنة والماضي وهذا الحاضر، والعواطف مرصوفةٌ أمامي على المائدة.

يحدث هذا غالبًا في الليل، حيث تختلط عليَّ الأشياء. وعندما أعود أرى نفسي كتلةً من السواد تمشي. أخترق ساحة ليتين وجلاً، غير مكترث بحفيف الأشجار وخشخشة الحشرات. ولكنّني أسمع في بعض المرّات وقع أقدامي على بلاط الساحة فأقف مندهشًا ومُشككًا؛ قد يصدر هذا الصوت من مصدرآخر. أُدير وجهي لأعثر على شخص ما يخرج من بين الشجيرات. يتناهى إلى سمعي صوت طرقات ثقيلة ورتيبة لمخلوق من الرخام ينزل من على منصّته ليتمشّى قليلاً. يرعى كائناته الصغيرة متأملاً في البرد القارس وفي صعوبة الوصول إلى مأوى دافئ يجلس مع عائلته أمام منضدةٍ عامرةٍ بالطعام يملأ أذنيه بصخب الأطفال.

كنت، في معظم الأوقات، أتأكّد من أن أصوات الليل تأتي من وقع أقدامي، لا يسمعها حتى أولئك الذين يحفّون بالسّاحة ويسكنون في طوابقهم العالية. وكنتُ مقتنعًا بأن هؤلاء لهم همومهم الكبيرة ومحاكماتهم الصعبة التي تقودهم إلى إصدار أحكام قاسية ضدّنا وضد الآخرين، وربّما تصدر عنهم أيضًا، في صخب جلساتهم، عقوبات تقضي بنفيهم وإقصائهم عن الحياة. لذلك فهم لا يسمعون أو لا يعبأون بالأصوات الصادرة في منتصف الليل. سواء كانت صوت وقع أقدامي أو صوت وقع أقدام ليتين الثقيلة التي تحدث ضجةً ورجةً عندما ترتطم بالبلاط.

كنت أعتقدُ دومًا بأن أصوات الليل غنيّة، كثيفة، وعديدة المصادر، متداخلة تلزمُ تصفيتها مَلكةٌ خاصة بمستطاعها فرز الأصوات وفصلها وتفكيكها للوصول إلى مصادرها الرئيسية.

الأصوات والأشياء القادمة في الليل غنيّة، بما تجلبه لنا مما راكمناه من كنوز نسينا مكانها، هي الأرواح التي تسكننا والتي تحوم حولنا لتمسّنا ولتزيد من إرث ما نملكه ويملكنا. هكذا الليلُ يتجسّد أمامنا بلونه الأسود عميقًا ولا نهائيًا، يولّد الأشياء، فلا تكترث ما إذا كانت حقيقيّة أو وهمًا في قوّة الحقيقة. حسنًا، حينما تكون في الليل وحيدًا وأنت تحمل كل هذا الإرث الثقيل في ضباب حياتك، تسأل: ما الجدوى من الحقيقة وما الذي سوف تفعل بها. بل أين ستحفر وستبحث لتعثر عليها.

ومع ذلك فإن ذهني، القادر على التأويل في الساحة التي أقطعها، يقول لي دومًا: لا تذهب بعيدًا ولا تولّد المعاني، ولا تفرز الأصوات، ما زال ليتين على منصّته يحرس الأشجار وينظر بعبث إلى أولئك الذين لا يقدرون على اجتياز عتبة الصبا أو أولئك الذين يعقدون

محاكمات لهم وللآخرين. حسنًا، ربّما تتجوّل هنا وهناك، قبل أن تأتي إلى السّاحة مختلط الذهن، ولكنه الآن كما ترى واقفٌ على منصته، يحرس الكائنات الصغيرة في الميدان، وقد دعاها اليومَ إلى الاختباء.

ومع قليل من الشّك في حقيقة المشهد، ما إذا كان لينين يختار أوقاتًا مناسبة ليغيّر من وقفته، كنت أُطلّ من النافذة المشرفة على الساحة، أو من الشرفة الصغيرة، حينما يتيح لي الطقس ذلك، فأتلصّص لمعرفة الحقيقة. وقد نفت الحقيقة نفسها مرّات عديدة. والواقع أن الحقيقة ليس لها ميقات. فقد واجهت الرجل في أوقات متباعدة، هناك وهنا. سواء تحدّثت معه، أو مشينا سويّة. إلا أنني كنت أمسح من ذاكرتي ما يحدث لكي أبدأ المتابعة والتأكد من جديد. وطالما حدّثتُ نفسي: هذه لعبةٌ أستمرؤها وأكررها، وربّما هو إدمان على لينين. بل، على الأرجح، هو إدمان على تأويل الأشخاص، واستحضارهم لكسر شوكة الوحدة. ولكن ما شأن الوحدة باستحضار رجلٍ لم يعد الحديث معه مجديًا بعد كل هذه التحوّلات التي جرت. وقد راحت البلدان، التي ربّما رسم لها مسارها في مجرى النبع الأول؛ النهر الذي فاضَ وحمل معه الماء والنفايات. كما لم يعد مجديًا السؤال عن القطار الذي عاد به إلى روسيا ليعلن الثورة، فالثورة قد انتهت إلى الدولة التي أرادها، واستمرت في النمو متخيّلة فضيلة العالم ناسية فضيلتها.

كنت أتلصّصُ من النافذة على لينين، بعيدًا عن متابعة الخيول وعن السيارات الخضراء التي تتأكّد من سلامة الميدان، ولكنّها قلّما تمرُّ في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل. تبدو السّاحة من نافذة المطبخ مثل مرآةٍ ترفعها وترى فيها وجهك منعكسًا. تتناهى إليّ في الليل الموحش أصوات وطرقات الأقدام. أعتقد أن الأمر لا يقبل التأويل: إنّه هو الذي يمشي. أتلبّسه في سرّية حركاته. برويةٍ يضعُ قدمًا أمام أُخرى. كلا، لا حاجة أن أفرك عيوني. إنّه يخلع معطفه الثقيل، ليستريح قليلاً من سجنه الرخامي، غير عابئٍ بالبرد القارس لأنه قد اعتاد عليه في سيبيريا. وحين كنتُ أراه يمشي، كنتُ أبحث عن الفأس المخبّأة تحت معطفه الضيّق. تلك الفأس التي روّض بها الضواري وأبعدت عنه الثعالب والأرانب وشرور أنيابها.

ومقارنة بهذه الكائنات الوديعة التي تمشي في الليل وتصدر عن وقع أقدامها طقطقات خفيفة، وهي لا تتذكّر من أخافها بالأمس القريب، كنتُ أعود متجولاً بالذاكرة اليَقِظة إلى الطفولة، أو ترجعني تلك الأصوات إليها. أرى شيوخًا مبهمين، يمضون بسلاسل ثقيلة تخشخش في أثناء مشيتهم الثقيلة في الطرقات الضيّقة. يمضون إلى أماكن بعيدة مقدّسة حاملين أصفادهم شفاعةً لهم عند القدّيسين، ولكنّهم يخيفون بها الأطفال في الليالي الظلماء ويعتقدون أنهم بذلك يعلمونهم الصّبر على قسوة الاغتراب. لم يكن لينين مغتربًا

هنا. هذه دولته. ولم أكن أنا مغتربًا تنطبق عليّ مواصفات الاغتراب. أمّا صورة لينين ماشيًا، وأنا أمه، فلم تبعث التوجّس فيّ، بل بعثت صورًا تتداعى، والرّجوع إلى الصِّبا غير محظور، بل هو مطلوب لاستكمال السيرة الناقصة لمن يُرغم على أن يتذكّر التفاصيل التي تبتعد عنه قسرًا.

عندما كبرت وأصبحت يافعًا، حدث معي مثلما يحدث لأولئك الذين يريدون ترميم عالمهم. وكما لو أنهم دخلوا كهفًا يحفرون فيه فوجدوا إلى جانبهم آخرين يحفرون معهم في ذات الكهف، آملين جميعًا الوصول إلى منفذ يفضي بهم إلى البريّة. إلا أن الأمر سوف لن يكون بهذه البساطة للوصول إلى نهاية المطاف. فثمّة في البرية أيضًا صيّادون مجهّزون بكل أدوات الصيد يطاردونك. أنت الطريدة – الغزال الذي يركض ويفرّ هاربًا خائفًا من الطلقات ومن زعيق السيّارات التي تسعى من كل جانب للإطباق عليك. وبسبب من المطاردة ومن الحصار الخطر الذي يهدّدك بالموت لا تملك إلّا أن تحلّق في الخيال. تكون ساحرًا تناور الصيادين ثم تقودهم إلى كهفٍ سري. تسحرهم هناك، فلا يعثرون على منفذ للخروج منه.

المخيّلة ملابسُ واقيةٌ ضدّ برودة المكان، قادرة على السّفر إلى المسالك والانتقاء منها، لذا فهي تعلن سيادتها على رتابة الزمن والانتقال حيثما تريد. نرحل مع الزمن في نهر عظيم – مثل نهرنا في تلك البلاد. نهرٌ يقسم كلّ ما يجده في طريقه، جاريًا بين الجبال، المدن مفتوحة للفيضان. وعندما يضطرب النهر وتفيض المياه البرتقالية بغرينها يقفز ضيوف مقنّعون يحذّرون الناس من الغرق.

في تلك المدينة المخصبة، بما تركه الفيضان، عقدتُ في الليل، قبل أن آتي إلى هنا، صداقات كثيرة. كان الرجال يأتونَ إليّ من أطراف البساتين فأفتح لهم الباب الحديديّ بصرير مكتوم. تحدّثت معهم. تبادلنا الأسرار وفينا شوق للمحبة. أخذ عشقنا يتوسّع ويتعمّق. قرأت كتبهم المكتوبة والمرويّة. قرأتهم أيضًا، مؤولاً حياتهم دون كلمات. كانت الشحنة التي تأتيني مثل تيّار كهربائي تضيء فيّ النور. وها هو عالمي يغتني وأنا أمضي فيه. وها هي دهشتي من كثرة الأسماء والأحداث والأماكن تمسكني من يدي وتفتح عينيّ على طيفٍ وعلى حجرٍ صغير. وها هي المخيّلة قادرة على استشراف الأرواح واستحضارها، وديعةً، صديقةً وأليفةً.

أولئك الناس، وتلك الكلمات السرية التي فككتُ طلاسمها، عرّفتني أيضًا برجلٍ ملتحٍ قطع بلدانًا كثيرة ليصل إلى النّبع ويحثّ على الفيضان. وقبل أن ألتقيه هنا في الساحة الباردة ينتصب وحيدًا في ميدانه، تعرّفت عليه هناك. خبرت صداقته. كما رأيتُ

عداواته. تجادلنا. مشينا معًا، وتحاشينا النظرات الخطرة للمخبرين. كان الرجل في غير بلاده حذرًا. لا يألفه الناس بلحيته القصيرة المشذّبة وبمعطفه الضيّق القصير. وكان يبدو نشازًا بين ناس ملفّعين بالأقمشة يسعون طوابير إلى القدر.

مع ذلك لم يكن الرجل الملتحي يائسًا، بل يتحدّث للنّاس عن الطبقة ويُبسّط تركيبها. يتقصّدُ في أن ينتظر القطار الصباحي في مدينتي، ويتسمع إلى زعيقه الذي ينطلق ثلاث مرات يوميًا. كان الزعيق يدعو عمال النفط للركوب إلى رحلة الآبار المتدفّقة بالنفط. وكنت أرى الأفق الغربي في المدينة مشتعلاً بالنيران، تُلوّنهُ الغيوم في الليل بلونٍ أحمر. وحينما يعود القطارُ عند المساء، ينزل منه الرجل الملتحي، متخفيًا، يحفّ به عمال متعبون، سرعان ما يتوزعون، فتخفيهم الأزقة والطرقات الضيّقة، عائدين إلى بيوتهم للنوم بعد التّعب الشديد.

كنت ألتقي الرجل الملتحي احيانًا، وخاصّة في ليالي الصيف الحارة المضنية. لم أكن أسأله عن محل سكناه، وكيف بمقدوره أن يتجوّلَ في كل هذه البلدان. كثيرًا ما كان يُحيّرني اليقين الملتمعُ في عينيه ويجعلني أُفكر، ليس فيه وإنّما في الناس الذين يريدونه ويتراكمون عليه، خوفًا من الوحدة وأملاً في الوعد، فيذهبون جميعًا إلى بيت واحد، يقودهم دليل ما، أي دليلٍ كان، قبل أن يتسنّى لهم أن يكتشفوا بأن البيتَ ضيقٌ والمكانَ حرج، فيبدأوا بضرب الدليل.

ولأن لا بيت له، والعمال الذين عادوا تعشّوا وناموا في بيوتهم، فقد مكث هو يتجوّل ويتأمّل، ليضبط في الزّمن اللحظة التي تدقّ فيها الساعة لئلا تفوته تلك اللحظة. كنت ألتقيه في تجواله الليلي، أو يأتي إليّ ليخاطبني وليتحدّث معي. يقول أشياء كثيرة عن المعرفة، تلك التي تعالج المعرفة فيمكنها أن تشيّد الطمأنينة لدى المرء فلا يقف عاجزاً أمام تساؤلاته. كنت بحاجة إلى تلك الطمأنينة، لأن العالم الذي خلته مشيّداً ثابتًا منذ الطفولة أخذ ينهار شيئًا فشيئًا وأنا مكبّل بالأسئلة التي تبعث فيّ الحمى. لم أكن أعرف آنذاك بأن الأسئلة سرعان ما تولّد الأسئلة، والوصول إلى إسكاتها عبث، إن لم يكن مجرّد طمأنينة مؤقتة مغلفة بالقناعة الساذجة التي تقول إن العمر لا يتقدّم والزّمن لا يمضي إلا باتّجاه واحد.

كنت أقول له بأدب وبوجل: لكن الأسئلة لا تنتهي، ومن يريد أن لا يكون قانطًا سيجد نفسه، دون إرادته، حفّارًا في عالمه وفي داخله. وكان هذا الحفرُ هو مبعث قلقي آنذاك، مثلما كان الجمرة التي تشوي أحشائي. كانت مسافة تكمن بيننا، تتوسّع، دون أن أقيسها أو أنتبه إليها. وربّما عرف هو ذلك، لكنّه لم يُفصح عن موقفه ولم يحدثني بما يسمى وفق

رؤيته بالموقع الطبقي.

كان رجلاً دمثًا، هذا الملتحي القصير، عندما عرفته آنذاك. وحينما كان يجد متسعًا من الوقت يمشي معي واضعًا يده في يدي. يَحدُثُ ذلك غالبًا في الساعات المتأخرة من الليل عندما يُتعبني الأرق ويُتعبه. وخوفًا من الحرّاس كنت أملك الظلام وأشعر بالغنى وبالأمان فيه. وأعتقد بأنه كان أيضًا رجل العتمة، وقد قرأ وتأمّل فيها كثيرًا. كانت العتمة في الواقع تخفيه وتخفيني. وغالبًا ما تحدث معي، ونحن نتجوّل، عن بلدان أخرى وأوغل بي في التاريخ ليكشف سيرورته ويحدّد مساره الأكيد ونهايته الحتميّة. كنت أستمع إليه بانتباه شديد، ولكن أشكّك مرّات في آلية الوصول إلى النهاية، وفي تلقائية تطور العالم. لأنّ المصير المختفي هناك في رحم المجهول، ليس هو بالضرورة مثل الأفلام التي نشاهدها ونتوقّع نهاياتها. الأفلام مجرّد قصص مؤلفة، والمؤلف يملك معرفة ومخيّلة بسيطة وشحيحة إزاء الحياة. كلّ نهاية لعرض الحياة، وبهذه الصورة الضيّقة، تلزمها بداية جديدة. وطالما مُنحنا هذه الحياة التي لم تكشف آلاف السنين وتيرتها الهادئة، فإنها لا بدّ مكثّفة متداخلة تولّد نهايات لا تحصى، وتبدأ منها بدايات مستمرة التجدّد على نحو دائم.

على أية حال كانت صداقات الليل غنيّة ومشوبة بالعاطفة. لقد دعوته مرّات عديدة إلى البيت ليتناول شايًا أسود دون أن نعبأ بمخلوقات الليل أو نحذر منها. كان يعتذر دائمًا، ويستمر معي في الحوار، من غير فسحة للهزل، جادًا في حديثه كما لو أنه مجرّد صوت ينبعث من اللانهاية. وفي الحوارات سهونا عن سماع أصوات الضفادع والجداجد أو نباح الكلاب البعيدة الصادرة عن تلة «عرفه» المسورة بالأسلاك والأشجار. وما أعرنا أيّ اهتمام لهمسات العشّاق الذين يقضون تحت النجوم الواضحة ساعات سعيدة، ولا أصابنا الحرج من استمرار حوارنا. كنّا ممنوحين للكلمات، وما تولده الكلمات من معانٍ تفوقها.

ساعدني في الكلمات، وعرض عليّ ترتيب عالمي على نحو جديد، وتوجيه عاطفتي الغنية نحو الاستثمار. وبسبب حديثه عن المجتمع المتكوّن من الطبقات خفت من الأضواء الساطعة المتألّقة ومن البيوت السعيدة. كما خفت من سحر الرضا الذي يغلف الناس انتظاراً لنهاية العالم. هكذا بدأت أحاصر قلبي وأدفعه بعيداً عن العاطفة الغفلة، مثلما وضعت الجمال حليةً في صندوق مغلق. كنتُ أخفي أسئلتي بدافع من عدم الوضوح، وبدافع من دماثة الخلق، لئلا أحرج هذا الرجل الملتحي الذي انسكب عليّ محاولاً تغذية عالمي الحرج. ربّما كنت آنذاك فتيًا ما يزال يحمل قيود الأسلاف. ربّما كنتُ أنبهر بما هو مغاير وجديد، يلائم مخيّلتي الخصبة التي تريد استشراف العالم الذي أحلم به.

كان صوت لينين صوتًا بعيداً يتناهى إلى سمعي، مثل صوت نفير يصدر عن عريف في

الجيش يقود جنوده إلى الحرب، وليس مثل صوت بوق ينفخ فيه غاضب يقف على التل.

على أية حال، لقد بقي ذلك الصوت يتردّد في أُذنيّ، بعد عقود من الزّمن. وعندما أستعيده الآن أستعيد صوت نفير حزين كنّا نسمعه في المدينة مساءً، في نهاية كل أسبوع، إيذانًا بإنزال العلم.

وكما تمضي سيول الربيع، وتترك غرينها حيث تصل، تُرِكَتْ سنوات من عمري على هذا المنحدر، أو في ذلك الوادي. يحضرني بعضٌ منها، ويغيبُ عني كثيرٌ من تفاصيلها. أجلب بعضها بقليلٍ من الجهد، ولكن في أحايين، ولكثرة ما في المشهد من الناس والأحداث والأماكن وما للأحلام على حافة التذكُّر من الانزلاق، تختلط عليّ المشاهد وتسقط الستارة الفاصلة ما بين الحقيقة والوهم. أن أعود إلى ما قبل أربعة عقود ونيّف، مختلطًا بدخان ذلك العهد مدمنًا على التذكُّر يجعلني أن أُمحّص ذلك الماضي، بل أن أشكّك فيه. ربّما هو ماض، أتماهى معه وقد سطوت في جزء منه على ماضي الآخرين، على ذاكرة جماعية نريد أن نملكها وتملكنا. حسنًا، لا ضير في ذلك ونحن لم نكن نعرف ذواتنا ولا نملكها، ولا نرى أنفسنا حزمة قش تأخذها المياه. وهل في استرجاعنا للماضي لا نبتغي إلا السّطو على ذاكرة الآخرين لننتقي منها ما يُلائمنا من بطولات. لم يعد جلجامش في الواقع إلا بطل زمانه المدوّن في الأسطورة، وكذلك سرگون الأكدي وحمورابي وغيرهم من الأبطال. أي بطل لهذا الزمان؟ وأية عقلة لمن يتمثّل البطولة؟

على أنني، بهذا التفكير وبهذا التأويل، أصبحتُ غير متأكد من ملاقاة الناس الذين التقيتهم، وما إذا كان لتلك الوجوه التي رأيتها وتحدّثت معها حضورٌ حقيقي. وكما يحدث لدى تناول المخدّرات، إذ ينقلب العالم ويثرى في وسعهِ وفي تراكمه ثمّ يبتعد عن التشخيص، تتّخذ كافة الوجوه وجهًا واحدًا. أو بالعكس يُوَلِّد الوجه الواحد وجوهًا عديدة من غير حيرة أو تساؤل بشأنها. تتحدّث معها، تجادلها، تدعوها أينما تريد، أو تمضي معها دون مقاومة. ليس في الاسترجاع منطق، ولا يحكمه جدل العقل. ولعلّ الحلم وطواف الذاكرة في الماضي هو الحقيقة التي تملك منطقها وقوتها في ذات الوقت. ولذلك فإننا محتشدون بالآخرين، مثل جبال قديمة تكمن في طبقاتها أسرارٌ وأرواحٌ ومدنٌ وأفكارٌ يجهلها من يمشي عليها لمجرّد الوصول إلى خيمته. لذلك أنا على يقين من ملاقاتي لهؤلاء الذين رافقوا حياتي أينما كنت وأينما حللت.

الذي أعرفه، أيضًا وبالتأكيد، هو أنني سكنتُ في هذه العمارة في برلين قبل عقدين، بعد تجوالٍ كثيرٍ في الأماكن وفي المخيّلة. بنايةٌ أسمنتية عالية، هي البناية المطلّة على ميدان لينين، في الطابق الخامس والعشرين منها. اندهشت آنذاك من رؤيته، ووقفتُ أتأمّله

طويلاً. تذكرتُ عقد الصداقة الماضية بيننا في مدينتي التي غادرتها قسراً. وتلمّستُ فعل الزمن والتحوّلات التي عملت فينا حفراً وإيغالاً عميقًا في التأمّل. ولأنها صداقة قديمة يحملها المرء مثل نقودٍ في محفظته، تأمّلته، وكان نهاراً. رأيتُ رخامه البنيّ الصقيل العاكس للضوء ولحيته الحجرية المشذّبة، مثلما رأيتُ معطفه الثقيل الذي أمالته الريح قليلاً وهو متمسّك بياقته لئلا يطير. كان ثمّة لينين آخرَ هنا، ليس ذاك الذي عرفته في مدينتي وتحدّثت معه. بدا طيفًا يكمن بعض منه في الحجر. يشعر بالحيرة من العالم الذي يحيط به. وخلته ما زال يجادل بصمت ويستشرف على ما يرى ليحدد مجدداً الأسئلة التي أجاب عليها جميعًا، ولكنّها انطلقت فجاة أكثر من ذي قبل. كان لينين في حيرة. كل ما يفسّر العالم قد دوّنه، وترك نموذجًا حيًا للثورة، مثلما ترك مثال الدولة حاضراً. ما الذي حدا بالعالم ليثير هذا الالتباس حول وجود الفرد وطريقه إلى الجنّة. كان لديّ العديد من الأسئلة، ولكن هذه المرّة، عن الحياة وعن الشيخوخة وعن الموت، مُرجئًا التساؤل عما يغلي هنا وهناك ويتهدّد هناءَة البشر. وهل ثمّة هناءة؟.

انتظرتُ حتى المساء ليشحب الضوء ولتخفّ الحركة. نزلتُ من العمارة التي أسكنُ فيها عبر المصعد الذي أخاله دومًا نفقًا يهبط بي إلى العالم السُّفلي عندما يقطع الطابق الخامس والعشرين في طريقه إلى الأسفل. مضيتُ إليه بين أشجار الشربين القصيرة وقد اصطفّت في خطٍّ طويل، أُريد بها أن تحاكي هندسة و الساحة الحمراء. كان لينين قد أدار وجهه كمن يبحث عن كرسي يجلس عليه ليريحه من عناء الوقوف. قلتُ في نفسي، سأجلب له الكرسي المصنوع من القصب المتروك في الشُّرفة المطلّة على ساحته. ومع أنه وقف عاليًا على منصّته فقد لمستُ سترته وتحسّست قدميه لأوقظه من سرحانه، بل لأتأكّد من أنّ الأغلال كانت هي التي تشدّه وتمنعه من الرفاه، أو تحول بينه وبين زيارة الناس الذين يسكنون في العمارات التي تحيط بالميدان.

لم أتحدّث معه في ذلك المساء. كان لقائي الأوّل معه، منذ أن جئتُ إلى هذه المدينة التي لم أكتشف أسرارها بعد، مرَّ من دون حديث أو حوار. كنت مندهشًا ومتأكّدًا في ذات الوقت من أنّ الوقت سيسمح لي بأن ألتقيه وأتحدّث معه في الأيّام المقبلة. كنتُ منشغلاً بالانفعال الذي أصابني جرّاء اللقاء، بينما هو منشغلٌ في التأمّل بالسّر الذي أحاطته النّاس به في كل هذه الأعوام. وقد تكرّر أيضًا نسج هذا السّر في بلدان أُخرى. أيّة آلية لبعض الأسرار لكي تنتشر، لكنّها تبدأ بالتعثّر عندما لا تعود أسرارًا، فيبدأ الناس بحياكة سرّ جديد يلتئمون حوله مسقّهين السر القديم. كانت أفكارٌ وهواجس كثيرة قد بعثها فيّ اللقاء الجديد مع لينين، ولم أعرف ما إذا كان لقاؤنا سينطوي في المرّات القادمة على مزيدٍ

من الجدل. وماذا ينفع قتال الكلمات حينما تصدر من قاموس محفوظ في قلوب مغلقة.

احسستُ بأن صداقتنا أصبحت عارضة، لا بسبب الاختلاف فيما بيننا، بل لأنني لم أتطابق، أو عثرت على هذا التطابق الكامل يومًا ما في داخلي مع أيٍّ من الآخرين. ولربّما أصبحت علاقتنا عارضة بسبب من تلف القلب، ومن مخزون التجربة التي تعلّمناها من الزمن، في رصد التغيُّرات غير المنضبطة وفق القوانين، والمنفلتة من عقالها صعودًا ونزولاً، تلك التي لا تتكهّن بها النظرية بل تحاول تفسيرها بعد الحدوث. قد نُتّهَمُ بالفردية وبالأنانية وبأننا خارج الطبقة، بل في الجانب المعادي منها، وفق النظرية. ولكنّني تلمّست وفق تجربتي في الحياة، ما أن يصبح هذا اليوم أمسًا وتكرّر الأيامُ مضيّها ومجيئها، أكتسب المعرفة التي تقول بأن القطار الذي يحملنا في الزمن سيصل إلى مكانٍ ما، وما تركناه خلفنا من قرى ومدن وناس يصبح في المجهول، لا نملك منه إلا طيف وجوه. ننزل إذًا في صحراءٍ تلفّنا فيها الريح المحمّلة بالرمال فلا نبصر إلاّ خيالات من سراب. وربّما هذه هي الحكمة الشخصية التي تعلّمنا والتي تتفوّق على معرفة القواميس المحفوظة في القلوب.

ومع ذلك، ولعقد من الزمن، كنّا نلتقي – أنا وليبين – دون حوار عندما أعود بعد منتصف الليل وأقطع الميدان. تختلط أصوات أقدامنا التي تضرب البلاط. أنا ذاهب إلى البيت في عمارتي العالية المعلّقة في الفضاء الأسود، وهو الواقف في البرد، أو المتجوّلُ في ميدانه كشبح، متخفيًا من الكائنات. وحالما كنتُ أصل الدار أضعُ نفسي في المصعد الذي يروح بي إلى الأعلى، سواء برفقة الحرّاس أو بدونهم. كان هو يتجوّل أحيانًا في الرقعة الصغيرة من الميدان دون أن يمس عشبة أو يقطع غصنًا من أغصان شجيرات الشربين، تحيط به تلك الأرانب والسناجب، يقيها من الضواري بفأسه المخبّأة تحت معطفه الثقيل.

لم يستمر هذا الأمر طويلاً. لم يسع الناس أن يتركوا لينين ليتمتّع بخلوته المقتضبة، مع أنها خلوةٌ رتيبة وغير مؤذية. وربّما بسببه ضجّوا في هذه البلاد، وأرادوا فجأةً أن يغيّروا كلّ شيء. ليس من معرفة أكيدة، متى وكيف ولماذا حدث الأمر. ولكنّه من المؤكّد لم يكن وليد صدفة. توجّهت الناس نحو الكثرة. أرادوا أن ينظروا إلى أنفسهم في مرآتهم الخاصة، لا أن يُنظرَ إليهم مع الآخرين في مرآة واحدة. ورغبوا أن تكون لهم آلهة متعدّدة يتحاسبون معها، لا إلهًا واحداً يجلسون معه كل يوم في غرفة ضيّقة يحاسبهم ويحاسبونه.

كنت غريبًا على ما يحصل، أُريد الوصول إلى معرفة كنه القوّة التي تحرّك الناس وتدفعهم إلى أن يتراكموا في مجرى تيّار واحد، يجرفون السُّدود ويحدثون الطوفان، دون أن يعرفوا أيّة مزارع ستغرق وأيّها سوف تنتعش بالمياه. ولذلك كنتُ أراهم على هيئةِ كتل لا تمسّني

مشاعرهم. كنتُ أرصدهم بعيداً عن العواطف، بينما يجعلني عدم المعرفة التامّة بما يجري حزيناً بعض الشيء، خاصّة أنا الذي يترك خلفه من سوء الفهم ومن عدم المعرفة إرثاً ثقيلاً للحوادث التي مرّت بي.

رأيتُ النّاس في صخبهم. رأيتهم في غضبهم وفي عنفهم يضجّون ويتدافعون. ومثل تلك السيول الربيعيّة التي تهدر في بلادي وتجرف من أمامها كل شيء، سارت الناس صاخبة مملوءة بالبهجة وبالغضب في آن واحد لتهدم الجدار الذي يحيط ببلادهم وبصبواتهم ويمنعها من أن تتحقّق، حاجباً عنهم الرؤية. جدارٌ من الإسمنت يتلوّى مثل أفعى يدخلُ حيثما يريد، في الشوارع وفي الأزقّة ويقطع نهر المدينة ويعبر جسورها، وفي أحايين يقف حائلاً بين دارٍ ودار.

جدار برلين الاسمنتي المعزّز بالأسلحة، عنوان قوة الدولة، يتم التوجّه إليه، ويتم الانتصار عليه. هكذا بسهولة، فيما لم تستطع كومونة باريس أن تنتصر على بناية واحدة فيها نقود، بينما تمكّنت الناس هنا من السيطرة على جدار يمتد كيلومترات طويلة. عمالٌ متأنّقون أوقفوا سياراتهم أمام البيت، أو تركوها في ساحات قريبة، صاحوا بغضب: «لا نريد المعامل، نريد البحار والسواحل». هم شعراء بعض الشيء يتحرّرون من المكان ويستشرفون القارات، حتى وإن كان الفعل بدافع من المخيّلة. فلاحون مختصرون يمضون إلى المستقبل، يرغبون في أن يوشّحوا أنفسهم بالريح التي تحمل الوعود. الكل يطلق مخيّلته لتمضي نحو كل الأماكن وتمسّ كل الأشياء، حالمين بما سوف تأتي به الأيام.

كان العالم يتغيّر هنا. بل إنه يتغيّر بسرعةٍ شديدة. لم أكن أعبأ كثيراً برصد التحوّلات، ولكنني كنت أطل على ميدان لينين من شرفتي، لعلّني أتلمّس شيئاً ما تغيّر في سلوكه بعد هذا الزلزال. كان بودي أن ألتقيه وأسأله: حسناً، لمن كانت الثورة، ولمن كانت الدولة، بحيث أنها رحلت ولم يبرز أحد من العمال ومن الفلاحين ليدافع عنها وهي تسقط تحت أقدام البورجوازية لتتحوّل، مرّةً أخرى، بعد عقود من الزمن، إلى مجتمع طبقي. لقد أرانا التاريخ ويرينا أن البورجوازية تدافع عن نفسها بدمها، وتسكبه لتمنع العمال من تجريد ملكيتها. أيّة مفارقة بأن يعيد العمّال والفلاحون بأنفسهم الدولة التي هي لهم، إلى البرجوازية مجدداً. تساؤلات كثيرة، وإيضاحات أكثر كان يمكن أن يُسأل لينين عنها، ولكنني أعتقد بأنّه لم يكن في وضع يسمح له بالإجابة على مثل هذه التساؤلات. وما حدث كان زلزالاً قلب الأرض تحت أقدام منظومة كاملة من التمنّيات يحيل المرء إلى التّاريخ وإلى أسراره، إلى الروح التي حرّكت الإمبراطوريات صعوداً ثم نخرت فيها لتنطفئ.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى مسّت الكهرباء الرجل الذي قطع الوعود وختم للناس الأسئلة.

وفي الميدان الذي مكث فيه، طوال الأيام التي شحذت غضب الناس وبهجة الناس – هؤلاء الذين لم يعودوا محجوزين بالجدار – لم يغادر لينين مكانه، ولم تسمَع في الليل طرقات قدميه، وكأنّما ينتظر خيبة أمله، أو يُحدّق في نهاية محتومة. نهاية أبعد من الموت الجسدي. خاتمة ملتبسةٌ لا يقدر في شيخوخته أن يمسك حبالها.

وهكذا جاء كل شيء فجأةً. جاء نذيرٌ يُمسك بيده الصواعقَ فيقلب بها المدنَ ويحوّل سنوات العمر إلى محاكمات يكبر في ميادينها الأطفال، ويتحوّلون بسرعة إلى شيوخ يحدّقون في حفرة العمر ذاتها. زمنٌ طويلٌ فائضٌ يتعثّرُ بين الأشياء، يغتني النّاس فيه بالوقت الكافي للتأمّل، كما لو نُفيَ كلٌّ واحدٍ منهم إلى جزيرة، أو حَشرَ نفسه في مكعّب زجاجي، بدل أن يكون في رحلة مع الآخرين بقطار الأنفاق. كان لينين رجلاً لا يناسب المكان، وضع فيه خيمة يُدخِل فيها الجميع، مبشّرًا بالمسرّة. في المكان ذاته يراد الآن بناء قببٍ كثيرةٍ. قبةٌ صغيرةٌ لكل فردٍ يعلّق فيها أحلامه، يتصارع معها، يتلمّسها، يقودها وتقوده.

في الأيام التالية من سقوط الجدار، جاءَ مهندسون يدرسون عن كثب، وبسرّية تامّة، معالم الميدان. يقيسون بالسنتمترات طوله وعرضه. كنتُ أشاهدهم في الصباح الباكر يتجوّلون هناك. رجال أنيقون بياقات بيضاء وحقائب سوداء يودّعون فيها ما يدوّنونه ويثبتونه من مقاييس. كان ذلك إيذانًا بأن حدثًا ما سوف يقع، وتوجّستُ من الأمر. إلا أن لينين لم يكن يعبأ بذلك، وقد كفّ عن التجوال، بينما اختفت الأرانب والسناجب في جحورها تحت الشجيرات الكثّة. وقلّت الطيور التي تمسح ريشها تحت أشعة الشمس الشتائية الشحيحة، إذا طلعت.

وحدث الأمر.

في الصّباح الباكر، قبل أن تنطفئ مصابيح أعمدة الكهرباء، وقفت رافعة صفراء ضخمة وبضع شاحنات حول الميدان. كان ذلك في غسق يوم الثلاثاء. نزل منها عمال البناء وهم يحملون مناشير كهربائية، ويسعون بتفريغ حمولة الشاحنات من القضبان والعتلات والمطارق وألواح الأخشاب. ينضّدونها حول لينين. وبسرية شديدة، كما يفعل اللصوص، سعوًا نحو الرجل الملتحي، وقد اندهش، وتجمّد من هول النّظر إلى العمال وإلى الآلات القاطعة والرّافعة وقطع الحديد. تقدّم العمال نحو لينين، تحت إشراف مختصّين، وأقاموا بسعي مضنٍ صقالات حديدية تعلو قامة الرجل. وصعدوا إليه خفافًا وهم يحملون تلك المناشير المربوطة بمولّدات كهربائية تحملها الشاحنات. ثمّ بدأوا، فجأة، بنشر الرخام. بدأ الغبار الأحمر يتطاير كلما ينشر المنشار جسد الرجل. كان الزعيق، لدُفعةٍ من المناشير التي

تنشر لينين من كل صوب، عاليًا مثل زعيق حيوانات متقاتلة في غابة. وقد أيقظ الزعيق النّاس في العمارة العالية فأخذوا يطلّون من الأعالي نحو المشهد. تتقدّم الرّافعة بذراعها الطويل وتحمل قطع الجسد، الذي نشر مرّات ومرّات، لتتارجح فوق شجيرات الشربين وأعشاش العصافير وجحور الأرانب والسناجب. تاخذ ذراع الرافعة الأصفر الرأس أوّل الأمر. تحمله فياخذ الرأس بالدوران حول الميدان، ثم يهبط إلى قاع الشاحنة المتوقّفة. وهكذا تاخذ الرّافعة قطعًا منشورة أخرى لتلقيها في الشاحنة: الكتف والأيادي والأقدام، ثمّ مزقًا من المعطف وقطعًا من الراية الحمراء.

ومع أنه كان صباحًا هادئًا، مثل الصباحات الأخرى، إلا أن الضجّة المحدثة من المناشير والمطارق وزعيق الرافعة أحالت الميدان إلى ورشة صاخبة يحركها أشباح العمال الذين يمسحون الغبار الأحمر من على خوذهم البلاستيكية وملابسهم، ثم يضربون بأحذيتهم بلاط الميدان ليرتفع الغبار العامر الذي بدا أحمرَ قانيًا تحت ضوء المصابيح الكليلة التي لم تنطفئ بعد. أمّا أولئك الذين راقبوا المشهد من الأعلى فلم يتبيّنوا ما إذا كان اللون الأحمر على البلاط غبارًا للرخام المنشور أم دَم تلك الأرانب والسناجب التي أحبّوها وراقبوها في خلوة الميدان طوال عقود، وقد داست عليها الشاحنات.

على الرغم من التحوّلات التي حدثت في البلاد شعر بعض سكان العمارة المطلة على الميدان بأنهم يفتقدون جزءًا من المكان، كما يفتقد العجوز أحداثه الماضية أو سحنته المثبتة في صورة الصبا. أما بالنّسبة لي فقد اختلطت عليّ الأشياء. لم أشعر بفداحة الخسران. فقد أقصيت دائمًا من الأماكن، ودائمًا كانت الوجوه والأشخاص تذهب عني قسرًا، وأنا لا أملك الآن سوى التذكُّر وتهويمة الرجوع والاسترجاع، وهي لديّ بمثابة الحصانة ضد الضياع. لكنني في مراقبة ما يحصل، إضافة إلى الأفكار والمشاعر التي داهمتني، أصبحت رجلاً أخلاقيًا أتساءل: أيّ ناس هؤلاء الذين يُصفّون إرثًا معينًا بهذه القسوة. وهل يقتضي أن يكونوا متلبّسين بالخوف من الإرث إلى هذه الدرجة وهم منتصرون.

حمل العمال قطع الجسد ورموها في الشاحنات. ثم فكّكوا الصقالات الحديدية، وكنسوا الغبار الأحمر من على البلاط، وسعوا جميعًا إلى سياراتهم يحملون أجزاء لينين إلى مكان ما لم يعلنوا عنه. أصبح الميدان خاليًا في تلك الصبيحة، إلا من شجيرات الشربين ومن عصافير مذعورة في خريف متاخّر يعرّي أعشاشها.

لم تعد ساحة الرجل الرخامي تدعى ميدان لينين. أُبدل الاسمُ، ووضعت خمس كتل من أحجار ضخمة في المكان الخالي. أحجار غير مشذّبة قالوا إنها ترمز إلى القارات الخمس. وهكذا أصبح اسم الميدان، «ميدان الأمم المتحدة». وكان بعض المحتجّين قد جلبوا تمثالاً من

الصفيح لبسمارك، وأوقفوه وسط الساحة، ثم كتبوا بالدهان «ساحة بسمارك»، لكن سرعان ما جاءت الشرطة ورفعت تمثال الصفيح ومسحت الدهان منذرةً من تكرار هذه المزحة التي تسيء للبلاد وقد توحّدت وتخلّصت من إرث النازية، وهيَ لا تفكرُ في التوسّع. أما الشارع الذي يمرّ من أمام الميدان المسمّى باسم لينين فقد تم تبديله أيضاً، وأُطلق عليه اسم «طريق البحيرة البيضاء». لكن الأسماء هي مجرّد دلالات تقود إلى الأمكنة، ولذلك فإن الشارع الذي اتخذ الاسم الجديد لم يكن يفضي إلى أية بحيرة، مثلما لم تكن هناك مياهٌ بيضاء، بل مكث الشارع مكتظًا بالسيارات وبصخب المترو الذي يزعق على سكّته الحديدية، ويطلق أحيانًا شحنة كهربائية تلمع كالبرق عندما يمس ذراعه السلك الذي يعلوه.

لم يكن التغيير الذي حصل في الساحة وفي المنطقة أحدث صدمةً في حياة الناس، بل إن التغيير الشامل في البلاد هو الذي أحدث انقلابًا في حياتهم. كان عصيًا على من يراقب الآخرين أن يكتشف ما الذي يدور في دواخلهم. وما عدا الغبطة الظاهرة والمعلنة فقد كان هناك إعصار يلفّ كل واحد منهم، وهو لا يعرف أين سيقذف به ذلك الإعصار. على أن العثور على كل هذه العواطف المتأجّجة وعلى كومة من الحرج والتأمّل في النّفس منح الناس شعورًا بالاقتراب من الذات، كما لو أُلقي حجرٌ في بحيرتهم الساكنة.

ومع مرور الزمن، تعود الحياة إلى مجراها، ويشتغل الناس بأمور حياتهم اليومية، ليعالجوا هذا الرتق هنا وذلك الصدع هناك. في لحظات التغيير الشاملة، عندما يمس التحوّلُ جميع الآخرين وينخرطون به، يكون من السهل أن ترصد وجهة العواطف وتتلمّس المشاعر وتتعرّف على الآمال. لكنّها سرعان ما تخبو وتغطيها طبقة من الرّماد، بحيث يكون من الصعب أن تعرف تفاصيله وتحدّد وجهة تلك العواطف. بل من الصعب، كما أظن، حتى على من تعتمل في دواخله تلك العواطف، أن يعرف الى أية جزيرة ألقت به الأعاصير.

وهكذا، بعد عقد من الزمن، كانت الحياة تجري في الظاهر كما كانت تجري في السابق. لم تكن تعنيني مظاهر الإعمار والبنايات الجديدة المشيّدة التي تحمل لافتات تُعلن عن تسهيلات في تأجير المكاتب. كما لم تكن تعنيني مناقشات الميزانية للبلد، أو الاستقطاعات من المكاسب الاجتماعية بسبب متاعب الاقتصاد وحجم البطالة. ولأنّ الحياة عادت رتيبة إلى مجراها وغلب الطبع على التطبّع، كما يقال، عدتُ أنا أيضًا إلى نمط حياتي الهادئة. ولأنني لم أكن واحداً منهم، فقد مكثت خارج السرب، وأنا أستمرئ طيراني وإطلالتي على ما يحدث. كما عدت إلى معيني في التذكّر وفي التخيّل وفي الوهم. عدت إلى التأويل – إلى الحصانة التي تمكّنْتُ بها أن أطوف على الأمواج دون أن

اغرق. وربّما لأكون شاهداً يختزن ما يرى ثم يتمثّله حاضراً متى ما يريد.

كثيراً ما تجولّت في المدينة مغمض العينين، لا يهمني هذا المَعْلم الجديد أو ذاك. تبدو الوجوه متشابهة، وأنا أرى في المساء، لدى انتهاء فترة العمل، طوابير من الناس – جيش متطوّع – تعود متعبةً إلى جحورها لتنام، بعد أن ذهبت إلى عملها في الصباح الباكر وقضت اليوم مملوكة هناك. وسوف تعيد ذلك في كل يوم، وتمنح رحيق عمرها طوعًا للنقود، إلى أن ترمى عاجزةً في شيخوختها لتجرّ الأيام المتبقيّة من العمر، وهيَ في أرذل العمر.

كان الليل لهم فراشًا. أمّا بالنسبة لي فإن الليل يخفي الأرواح ويَعقِدُ الصداقات، ويثير الجدل، ويطيل التأمُّل، ويوسّع مدى الرؤية.

وفي ما يُسَمّى بوحشة الليل كنت أعود إلى البيت من تجوالي الطويل. أمرُّ بساحة ليتين – الأمم المتحدة، وأرى الأحجار الخمسة للقارات. أرصد السناجبَ والأرانبَ التي لا تبدو أنها تعي رحيل الرجل الذي تآلف معها ولوّحَ لأعدائها بالفأس المخبّأة تحتَ معطفه.

في وحشة الليل أعود أحيانًا من المقهى الذي اعتدت أن أقرأ فيه وأتأمّل في الجالسين. وأنظر طويلاً من خلال زجاجه إلى النّهر الصغير العكر المياه. لم أكن أرتجي من الزمن أن يُغيّرَ مساره أو يتغيّر. لقد ودّعتُ حوائجي فيه وأنا أعرف أن هذا اليومَ سيكون أمسًا. وبانتظار أن يكون الغدُ مصفوفًا على منضدتي، أستعدّ لأن أضعه في كيس الأيام الآتية.

كنتُ أراقب في معظم الوقت، وأنا في المقهى، شجرتين من الصفصاف الباكي، تهز الريحُ الخفيفةُ أغصانها المتدلّية على النهر. وتأتي بطّات متارجحة، مثل أُمهاتٍ عجائز، صاعدة الجرف حينما تخلو ضفّة النّهر من المارّة. كان الصقيع يؤذي تلك البطّات ويجوّعها، إذ لا يكون بمقدورها الغطس في ماء النهر المتجمّد. ولكن دومًا كان ثمّة من يكسر الجليد ويفتح ثغرة فيه ليتيح للبطّات الاحتفال والاصطياد في الماء العكر.

ليست البطّاتُ والناسُ فقط ما تثير انتباهي وتدعوني للتأمُّل، بل كل تلك الأسماء والوجوه التي تحتفل في الرأس. أسماء الأشخاص والأماكن والكتاب والشعراء ومن دُهشت بهم، جميعها مُنضّدة في مكان ما منّي، تأتي وتضيء ما نسمّيه حياتنا، دون سابق إنذار أو محاولة صعبة في استعادتها. ومن الغرابة أن تلتمعَ وتضيء وأنا جالسٌ في هذا المقهى، وفي قارعة الطريق، ولدى تأمُّل الشجرتين، أو لدى مراقبة البطّات النهرية، كما لو أنّها مدعوة إلى الوليمة. أحيانًا تختلط الحياة بدفقٍ سريع فأمكثُ مع ما اندفعَ من المخيّلة، وأتحدث مع كل هؤلاء. لن أُسميها، بالتأكيد، رفقة مفروضة عليّ، بل أُسميها دعوة لديمومة الصّداقة بيننا واستمرار الألفة معي أنا، لكي لا أغترب عنّي وقد عشت وأحصيتُ

السنوات الطوال التي تركتها خلفي دون ان أعرف حسابًا دقيقًا للزمن، بالساعات وبالأيام.

غادرتُ المقهى في هذا اليوم الثلجي القارس، عائداً إلى البيت. خفّفَ البردُ استغراقي في رسم خارطة الأزقة وأسماء الشوارع وأسماء الأشخاص في العوائل التي عرفتها في مدينتي الشمالية قبل نصف قرن من الزمان. أكون جوّالاً عندما أريد. اصل الأماكن والتقي الأشخاصَ من دون خارطة ومن غير عناوين مدوّنة: ذاك من كان يجلس معي على مقاعد الدراسة، وهذا من مشيتُ متحاوراً معهُ في الدروب. الأمسيات جميلة منعشة، والسماء صافية تلتمعُ فيها النجوم. يَرِدُكَ هديلُ الحمام المتضرّع، ويخترق غناء العشّاق المخمورين المسافات محلقًا فوق السطوح. يُكتمُ الصوتُ هنا. ويصطدم الطير في المدينة بجدران الإسمنت. اي صقيع هذا عندما تقارنه بدفء منتصف الليل في مدينة مفتوحة السماء، تمضي فيها وشوشات الجماع وتأوّهاته على السطوح فيسمعها من في سطوح أخرى بعيدة.

وها انا في طريقي إلى البيت هنا استغرب من لهاثي الذي سرعان ما يستحيل إلى ضباب، فاعود إلى البساتين وإلى مجرى النّهر الذي يخترق البيوت باحواشها الواسعة العامرة باشجار التوت والرُّمان والبرتقال والنارنج. أعود إلى المغامرات الكثيرة البريئة التي كانت تملانا بالدهشة وبالانفعال، كما لو ان الحياة احلامٌ مكررة، لا يؤذي الجرحُ فيها او القسوة أو المصادفات المؤذية. ذلك أن الحلمَ حينما ينتهي يفضي إلى حلم جديد. يختلط الوهم والحلم ونار المخيّلة وما تمسكه بيديك فلا تعرف ايهما تعيش. لا تجادل، كلّها مملكتك الفسيحة.

ليست هذه مقارنة تريد تسفيه ما لا يتجانس مع التذكُّر او يناقضه، ولكنّها الذخيرة لرؤية الالوان في التعارض. تبرز هكذا فجاة عندما تنعدم الرؤية وتُكتمُ الأصوات، وعندما تضع يديك المشلولتين من البرد في جيب معطفك السميك، مرتديًا هذه الأقمشة الغليظة وأنت ترتجف. ولكنّهُ أيضًا مدعاةٌ للغبطة هنا عندما يمتد امام ناظريك حقل شاسعٌ من بياض الثلج تؤلّفُ فيه الذئابَ وتركبُ الزحافات التي تجرّها الكلاب لاهثة تفرّقُ الخنازير والغزلان من حولك. امّا حين أكون في نعمة الدفء وأُحسّ بهداة الحياة فتاتي إليّ البحيرات الواسعة المتجمّدة، ارى عليها اعراس التزلّج تقام. اذهب إلى بيوت مختفية في الغابة، يغطي الثلج النقي قرميدها، وتنحني أغصان أشجار الصنوبر تحت وطأة الثلج الذي هبط مساء أمس.

والواقع إنني لا اريد من هذه المقارنة إلاّ استثارة الماضي وحثّ الذاكرة، واستحضار التّضادّ لأوغل في هذا الصقيع الليلي. وكما قلتُ، لم يكن الطريق إلى البيت طويلاً، ولكنّه كان موحشًا. يهطل الثلج بكثافة ويغطي الطرقات. وقد استمر في الهطول طوال الأيام التي

خلت.

عدت أخترق الميدان صاعداً إلى بيتي في الطّابق الخامس والعشرين. ومع أن كثيرين كانوا معي وأنا أودّعهم وأدعو بعضهم للصعود معي والجلوس في المطبخ الصغير لنشرب الشاي ولنطلّ على الميدان الخالي عبر النافذة الصغيرة، لم يخطر بذهني أن لينين قد رحل عندما قلعوه وحملوه بعيداً. لم أتذكّره في الفترة الأخيرة إلاّ نادراً، وقلّما سمعتُ صوت أقدامه وهي تطرق بلاط الساحة. بل قلّما التقيته مع حيواناته المحبّبة مترجّلاً يتنزّه. لقد تزاحم عليّ الناس وأخذ كل قسطه مني. ولربما يُضعفُ الزمنُ الذاكرة ويغطي الغبار الألفة، خاصة غبار لينين الأحمر الذي غطّى الساحة عندما نشروه آنذاك. وحينما كنت أتذكّره في بعض المرات أعود فأراه بين مشاغل العمال الذين نشروه ورحلوا به بعيداً.

*

هذه الليلة لا تشبه مثيلاتها. يتساقط الثلج منذ أسبوع. قلّما تجد الناس في الشوارع وفي الطرقات. ربما أعلنت حالة الطوارئ. تقوم الطائرات السمتية بتزويد القرى المحاصرة بالثلج بالمواد الغذائية. وقفت حركة معظم القطارات. وعندما يتسنّى لك أن تخرج بعيداً عن المدينة، ترى الثلج يمتد إلى مساحات شاسعة، فيمكنك أن تربط بلداناً عديدة ببعضها، وتزيل الحدودَ حتى تصل إلى سيبريا. في الثلج تظهرُ الذئابُ وتتقدّم نحو المدينة. وعندما يُجرح أحدها وينزف دماً، تهاجمه الذئاب الأخرى فتلتهمه. أسمع عواء الذئاب من شقتي، كما أسمع زعيقَ شاحنات عملاقة تصارع الثلوج متّجهة إلى الأورال وإلى سيبيريا. كلا، لا يمكن مقارنة المشهد بساحة حربٍ. الثلج أبيض هنا وما من جثثٍ ممزّقة أو متيبّسة بالصقيع تظهر أجزاء منها بين الثلوج، كما ليس هناك آليات معطبة وقرى سوداء محروقة. هذا الثلج في هذه الليلة يُغلق الطرقات ويجعل الشاحنات العملاقة أن تزعق مع الذئاب وتتدحرج عجلاتها فوق الجليد عبثاً، دون أن يصل عنادها إلى كرونشتات، ومن المستحيل في هذا الطقس أن تصلَ إلى ماكنو على ظهر الخيول، حتى لو سألت لينين عن الطريق.

في هذه الليلة، والثلجُ يتساقطُ ويرتفع رويداً، فيما تأخذني غفوتي وتدفع بيَ إلى الحلم، يرنّ جرس الباب بإلحاح شديد. تستيقظ زوجتي وأبنائي مذعورين خائفين من الزائر المتأخّر، مرتعبين من أن يكون رسولَ موتٍ، أو أن يكون على الأقل طائر شؤم يبعدنا عن الرضا.

أنزل بپيجامتي في النفق المظلم الذي يأخذني إليه المصعد الضيّق، لأفتح الباب. فألتقي مندهشاً بلينين. لم أتبيّنه جيداً في بادئ الأمر لسوء الإضاءة، ولكنني سرعان ما تأكدتُ منه بخشخشة ثقله الحجري وهو مركّب الأجزاء. وعندما تقدّم إليّ وردت إلى سمعي

غمغمة تحيّة أشبه بصوت رحى الطواحين. هل كان غاضبًا. هل كان يختنق في الكلام، أو أن حزن الأعوام الماضيات حشرج صوته فلم يعد بمقدوره الخطابة. إلاّ أنه لم يحفل كثيرًا بما يدور في خلدي، ولم يكترث بارتباكي، بل ذكّرني مباشرة بالصداقة القديمة القائمة بيننا، وبالألفة لأكثر من عقدين من الزمان، في هذا الميدان الذي مشيناه، وراقب بعضنا بعضًا، بمودة أحيانًا وبنقدٍ قاسٍ في أحايين أخرى.

قال لي دون شعور بالألم، وأنا أحدق في كسوره وفي ثلمات الحجر الذي يتكوّن منه: إنه لا يرتجي التئام عظامه وجروحه سريعًا، بعد أن نشرهُ العمال بقسوة.

وقال: أنت تعرف أن العظام لا تلتئم في الشيخوخة بسهولة.

مضينا بين الأشجار، تَستّرنا خوفًا من الرقباء والمتطفّلين، وكنّا نفكّر معًا بأمور كثيرة متداخلة. ومن دون أن نُفصح عن أفكارنا كنّا قد توصّلنا إلى أن الأشياء قد تبدّلت، وهي شاخصة على الأقل، في هذه الساحة المتغيّرة وفي هذا المكان. وبدأ لينين يرتجف.

قال: إنه البرد.

قلت: أجل. لكن المرء سيعتاد عليه حتى لو كان مولودًا على فوهة بركان.

إنها قشعريرة في العظام يحس بها من يغادر بيته الدافئ.

لم أكن في الحقيقة أنوّهُ عن أية أفكار خاصة، ولا أردت أن يُفسّر كلامي على نحو يدخلنا في حوار جاد. ذلك أن زلزالاً قلب الأرض وهو يتطلب منّا البحث بين الأنقاض سنوات وسنوات لكي نعثر على الأشلاء. ثم إنني ذهبت بعيدًا بعض الشيء لأفكر بأن الإمبراطوريات الكبيرة لدى سقوطها لا تُستعاد بدراسة أخطائها، وستبقى تلك الدراسة مجرّد وثيقة لا تُبنى بها امبراطورية جديدة مثيلة. كل نهوض محكوم بشرطه وكل أفول بأسبابه.

لكن لينين المتعب من البرد والمثخن بالجراح، هذا الرجل الذي دقّ على بابي في الليل وأراد المسامرة والمجادلة وبثّ هواجسه، قال لي كما لو أنه قرأ بعضًا من أفكاري:

– حسنًا إنك تلمّحُ إلى أن الطبقة لم تعد طبقة. تشتُتت. تشوّهت ملامحها. وتقول إن الوقت قد تغيّر، وما رأيناه وما عايشناه أصبح في أحشاء الماضي. أجل، أجل، لقد كبر الأطفال وفقدوا براءتهم مع الزمن.

قلت: البراءة مثل حزمةٍ من الحشيش، هي أسوأ ما نبتلي به. إنها رذيلة حتى عند الشعراء.

هزّ رأسه قائلاً:

– كلا. نحن عندما نفقد البراءة تأتي الأنانية لتقول إنها الحكمة. والحكمة كما خبرتها

أنانية وقاسية. لكنّ المعرفة، المعرفة وحدها، تستطيع أن تقود البراءة وتفتح لها حقولاً فسيحة.

قلت: أيّة معرفة.

وكرّرت في داخلي وأنا أريد أن أُحيط بها: المعرفة حسابٌ للفوائد عندما توجّهها نحو تغيير الأشياء. المعرفة رهينةٌ لمنطق ولشروط الأشياء نفسها. وهل تحدد مظاهر الأشياء المتغيّرة دومًا جوهرها.

لم يكن الوقتُ مناسبًا لإعمال الذهن. وسوف لا أُجادل لينين، فهو لا يزال يملك منطقةً. حقًا إن الوقت غير مناسب. لقد أوشك الليل على الانتهاء، والجدل يطول بين المتجادلين. كلٌ يقرع طبله ويظن أن الآخر اطرش.

كنّا نخطو ببطء شديد. لم يعد بمستطاعه أن يسعى في المشي. ولاحظ بأنني أسرع بعض الشيء في الخطو بين الأشجار دون أن أتلافى الحصى والأحجار. فقال لي: ألا ترى إنني رجل مصفوف على بعضه، يجعله المشي السريع أن يتداعى ويتفتّت؟.

كان المشي غير المتأني، في الثلج المتراكم، خطرًا. والساحة التي كانت باسمه محتشدة بالثلج. وهنا معًا، حيث كنّا نقف تحت حزمة من الضوء الكليل، حزمة وردٍ متيبّسة حائلة اللون يغطيها الثلج، فعرفنا بالحدس أنها حزمةٌ من امرأةٍ عجوز، أو من زوجها، وُضعت بوحي العادة، مثلما يضع شخصٌ ما زهرةً على قبر قريبه ليستذكر الألفة التي كانت بينهما من زمان. كان لينين على وشك أن يتداعى ويسقط، حجرًا حجرًا. قلقت عليه من أن لا يقدر، هذه الليلة، العودة والوصول إلى ملجأه المبهم حيث يقيم.

قلت له: هل بإمكانك الوصول والليلة غاضبة بالثلوج وبالذئاب وبزعيق تلك الحافلات العملاقة التي ربما تريد الوصول إلى سيبيريا.

قال: إنه لا يعرف بالتأكيد، ولكنّه سيحاول الوصول إلى البلاد. وفكّرت بدهشة: أي بلادٍ يقصد هذا الرخام المتداعي. ربما يقصد الوصول إلى أُورال حيث حَجَرَهُ البني الذي جلبوه من هناك. ونبّهته إلى معطفه، الممزّق والمثلوم الذي كان على وشك السقوط من على منكبيه، أن يرتديه ويزرره بإحكام.

قال: تستطيع أن تنزعه منّي مؤقتًا. إنه معطف صخري ثقيل عليّ.

ولأُريحه قليلاً، نزعتُ عنه المعطف وأردتُ أن أحمله على كتفي، فأحسستُ بثقل هائل وبمزيد من القشعريرة في عظامي.

كان مشهدنا مشهداً حزينًا. أنا بملابسي الخفيفة، وقد تسلّلت البرودة إلى عظامي، وهو يرتجف مثل طيرٍ مبلول. لقد مرّ وقت طويل منذ أن غادرت البيت وتركت زوجتي وأطفالي

مذعورين. وهكذا، مشاركًا مشروعه في الرحيل إلى بلاده البعيدة، وبنوع من دماثة الخلق، قلت له: حسنًا، انت تريد الذهاب إلى بلادك، ساذهب، انا ايضًا، يومًا ما، إلى مدينتي كركوك.

وبعد تأمّلٍ في المصائر، اخذ يحدّق احدنا في الآخر، كأنّما نتقابل لأوّل مرة، لا للتوديع وإنّما لكي نتعرّف على بعضنا من جديد. كان لقاءً ووداعًا حزينًا. خطا كل منّا تاركًا طرقات قدميه تدقّ على البلاط، رغم الثلج الكثيف. ذهب هو، كما أظن، باتّجاه الشارع المظلم الذي غيّروا اسمه إلى شارع «البحيرة البيضاء». وصعدتُ انا إلى شقّتي في الطابق الخامس والعشرين. وعندما فتحت زوجتي الباب بعد ان تأكّدت من صوتي، سألتني وما زال الذُعر في وجهها وفي عينيها المزغللتين:

– يا إلهي، اين كنت. ولمَ تأخرت. هل كانت الشرطة؟

ولما لم أُوضّح لها وأُجيب على تساؤلاتها سألتْ من جديد:

– من كان هذا الزائر الليلي الغريب؟

قلت: لا احد. كان شبحًا يطرق بابنا بعد ان طرق قبل قرن من الزمان باب أُوروبا.

وعندما نام الجميع، انزويت في غرفتي، متسائلاً: على أي بابٍ سنطرقُ نحنُ؟

برلين / شباط ٢٠٠٢ / تشرين الثاني ٢٠٠٣

شاعر عراقي مقيم في برلين / المانيا

الولي الطاهر يرفع يديه بالدُّعاء

(رواية)

(الإهداء / إلى الشاعر الكبير سميح القاسم : من رأى منّا منكرًا فليغيّره، بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أقوى الإيمان)

تأشيرة عبور

في « الشّمعة والدهاليز »، ظهر الولي باسم سيدي بولزمان، وهو الذي حرّك أحداث الرواية، حيث يختلط الأمر بينه وبين البطل الأساسي، الشاعر، وكذا البطلة، الخيزران . وفي رواية « الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي »، جاء الولي يحمل اسمه مضافًا إليه صفة الطّهارة، وقد تجنبتُ الصّلاح، حتى لا أتطاول على المرتبة التي يتمثّلها الأنبياء، وحتى أتخلّص أيضًا من كثير من قوانين وطقوس التصوّف، التي لست في الحقيقة في حاجة إليها ولا أستهدفها.

والولي سواء أكان سيدي بولزمان أم الولي الطاهر، كما عبّرت عنه، حسبما يبدو لي، هو العقل الباطن للإنسان المسلم المعاصر، في تجلّياته العديدة، التي تتمثّل في الحركات الإسلامية بشكليها الفردي أو الجماعي، في الحركية أو السكونيّة . كما هو الشأن في ردود الأفعال التشنّجية، أو الرافضة سلبًا.

وكما هو واضح من العنوان، فإن الولي الطاهر في هذا العمل الجديد، اكتفى بأضعف الإيمان، وهو المواجهة بقلبه، إذ دعا ربّه أن يُسلّط على الأمة ما تخافه وتخشاه، حتى تخرج من عنق الزجاجة التي وضعه الآخر فيها.

إن دوام الحال من المحال، ولكن المخرج، هو الذي يغيب عن الجميع، أكانوا حركات سياسية ودينية، أم مفكرين باحثين.

بالنّسبة لي – كما أحِسُّ – وليس لي غير هذه الوسيلة، الحالة مرضيّة، أعيش أعراضها، وأحاول التعرّف عليها، تاركًا للباحثين، بمختلف أنواعهم، وضع وصفات العلاج،

وسائلُ، في جميع الأحوال، أُطاردهم بمعايشة الحالة.

لقد جاءت هذه الرواية، جزءًا ثانيًا لـ «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي»، ولو كنتُ ناقدًا لقلتُ إنها جزءٌ ثالثٌ، لـ «الشمعة والدهاليز».

الموضوع واحد، والشخوص هم، بأسمائهم وصفاتهم، وبخصوصيّاتهم.

لقد استعملت عبارة (جزء)، بدل عبارة (الكتاب الثاني)، ولِمَ لا، فقد أكون بصدد كتابة رواية واحدة، كلّما تعبتُ، وضعتُ لها عنوانًا جديدًا.

إذا كانت الظاهرة الإسلامية، هزّت العالم، فلم لا تُحيّر العبد الفقير الطاهر وطار؟!

لم أكن، إطلاقًا، أنوي كتابة رواية هذا العام، فلديّ مشاريع قصص قصيرة، يُلازمني بعضها منذ ما يزيد عن عشر سنوات، بالإضافة إلى إرهاق سنة كاملة من الجهد في (الجاحظية)، لكن ضغط الظروف العالميّة، والوضعيّة في العراق والعالم العربي والإسلامي، فرض عليّ رواية، لم أعايشها، سنوات عديدة، كما هو الشأن لباقي أعمالي.

لم أشأ أن أوقظ الولي الطاهر من غيبوبته، التي يرى فيها ما يرى، فلعلّني كمواطن عربي، أعيش أحلام يقظة معه.

شاطئ بن حسين، شنوة / ٤ أيلول ٢٠٠٤

التّحديق في الزمن

أعاد الولي الطاهر تأمّل الشمس التي كان اعتراها الخسوف، فبهره الوهج، وتساءل عمّ يبحث. نسي أنه كان هناك قبل لحظات، خسوف كليٌّ فجائيٌّ، لم يتنبأ به لا العرّافون ولا المنجّمون ولا العلماء.

- يا خافي الألطاف نجّنا ممّا نخاف.

تمتم والتفت كأنّما يبحثُ عن شيء ما. لربّما عن الأتان العضباء، التي طاف بها الكون عبر القرون بحثًا عنها، والتي عرف، بعد فوات الفوت، أنها كما قالت بالحرف الواحد:

- بلأرة.

بلأرة، ابنة الملك تميم بن المعزّ، زوجة الناصر بن علنّاس بن حمّاد، الذي سِرتُ إليه في عسكر من المهديّة حتى قلعة بني حمّاد، تصحبني من الحليّ والجهاز ما لا يحدّ، أمهرني النّاصر بأربعين ألف دينار. أخذ منها أبي دينارًا واحدًا وأعاد إليه البقيّة.

ابْتَنى لي قصرًا منيفًا سمّاه باسمي. لذا ما أن يقوم قصر في أي برّ أو فجّ، إلّا وكنتُ سيّدته الأولى والأخيرة.

أنزلُ من السماء فأتخذ موقعي.

كنتُ يا مولاي الولي الطاهر، كابنة مُجاعة[1]، قبلت عن طيب خاطر الزواج من النّاصر تربة العزّ، لا لكونه سلطانًا قويّ النفوذ أذلّ كل متمرّد، إنما لأقيَ قومي شرّ الحرب وويلاتها.

– يا خافي الألطاف نجّنا مما نخاف.

لربّما يبحث الولي الطاهر عن غيرها.

حاول أن يتذكّر لمن يكون هذا العطر الذي يغمره، ومن أين ينبعث، لكن بلا جدوى.

– أدخل يا مولاي.

جاءته الدّعوة من صوت نسائي هُيِّئَ له انه سمعه قبل الآن، في مكان ما من الكون، وبمناسبة رثائيّة ما.

– أدخل يا مولاي.

كانت أبواب ونوافذ المقام الزكي مشرعة، فانجذب للنداء الذي كان يرتفع وينخفض في تنغيم جميل.

القاعة الفسيحة مغمورة بالرّمل وبتماثيل حجرية لرجال في جناح، ولنساء في جناح ثانٍ تنتصبُ على مقاعد من خشب، عليه نقوش جميلة ومؤثّرة بقماشٍ مطرزٍ بالذّهب، تتوسّط الجناحين مقصورة، يتربّع فيها شخصٌ من طين، لحيته في حجره، أمامه منضدة صخرية، فوقها أدوات وسجلات تحجّرت، يعلوها غبارٌ أصفرُ كثيف.

– اصعد يا مولاي.

تنغّم الصّوت الأنثوي، كأنّما هو صادر عن آلة موسيقيةٍ وتريّة. انساق نحو السلالم، يتبع النغمات الساحرة، ليجدَ نفسه في قاعةٍ فسيحةٍ، تُعمّرها جثث تماثيل خشبيّة، لشباب في سنٍّ متقاربةٍ على ما يبدو، ممتدّة على أسرّة من صخر كأنّها لقبور أثرية.

عدّ الأسرّة. مائتان بالتّمام والكمال.

ومضت في ذهنه صور باهتة من ماضٍ لا يدري ما إذا كان بعيدًا أو قريبًا، وهو يدقّق النّظر في لحى التماثيل التي تبلغ الأرض، وكما لو أنها لم تتوقف عن النمو، ما جعله ينتبه إلى أن لحيته، هو بالذّات، تبلغ ركبتيه ولا يدري متى بلغت هذا الطول.

بلغته أنّات تستغيث، كأنّها لجرحى حرب ما تزال على أشدها:

– بلاّرة.. بلاّرة.

– اصعد يا مولاي.

دعاه الصّوت المنغّم فواصل الصعود ليجد نفسه في قاعةٍ شبيهةٍ بالتي كان فيها، إلاّ أن التماثيل الممتدة على الأسرّة كانت من شمع أو من مادةٍ شبيهةٍ على ما يبدو.

عدّ الأسرّة فكانت مائتين وواحدًا، أحدها فارغ.

كانت الأنّات هنا لأصوات نسائيّة، تُردّد في توجّع جارح ووهن بالغ، جملةً واحدةً:

– مالك بن نويرة[٢]... يا كبدي... خدعت أيها الشاعر الممتع بالجمال.

محتويات الطّابق السّادس تتشكّل من جرار مكلّسة، ومن جثث محنطة أيضًا، تفوح منها رائحة الرطوبة والتراب، ويبدو أنها لمشايخ أو لائمة، فقد كان على رؤوسها عمائم ذات ألوان مختلفة.

– مولاي الولي الطاهر، هذه خلوتك وطريقك إلى حبيبك.

أحدثت عبارة الولي الطاهر رجّة في راسه، وظلّ لحظات يرتجفُ ويشعرُ بما يشبه الدوار، حتى أنه مدّ يديه يبحث عن شيء يتوكّأ عليه.

– مقامك الزكي يا مولاي. أوَنسيت بلاّرة؟ أما كنتَ تبحث عنّي يا حبيبي؟

– بلاّرة.. بلاّرة.

اهتزّ وقار الوليّ الطاهر وهو يهتف، ثم سرح في ماض يومض له...

...

– هيّا يا مولاي. هيّا... هيت لك.

– أستغفرُ الله العلي العظيم. أستغفر الله. يا خافي الألطاف نجّنا ممّا نخاف.

– هيتِ لك.

– توقّفي يا سجاح[٣].

انتصب الوليّ الطاهر في وقفته، بينما هي تتقدّم منه شبه عارية، بضّة، رشيقة، لطيفة، ينبعثُ منها السّحر، موجات من نور.

– يا خافي الألطاف. نجّنا ممّا نخاف.

– وممّا تخاف يا مولاي؟

...

تجولُ في خاطر الوليّ الطاهر الأفكار والآراء سريعةً سريعةً، بينما المرأة تزداد بهاءً، ورونقًا، وإغراءً، واشتهاءً.

– مولاي. مقامك الزكي هذا، بطوابقه السّبعة، خالٍ إلاّ منّي ومنك. أنت في الخلوة تصلّي، وأنا في الفضاءات أحلمُ بك، وها أنني عثرتُ عليك، فكيف تريد أن نفلت من بعضنا؟!

... تريد بي شرًا يا مولاي، أقرأ ذلك في كل حركاتك وسكناتك، وفي لون وجهك

الذي ما فتئ يزرورق.

قلت لك:

– إنني لست النبيّة الكاذبة سجاح، كما أنك لست مسيلمة(٤).

– لو أنني متأكّد مما تقولين، أيتها الجنيّة، لتزوجتك على بركة الله وسُنّة رسوله.

– مولاي، قالت متأوّهةً.

...

ارتمت في أحضانه، تراءت له أم مُتمِم(٥)، تضع القِدْر على رأس زوجها ثالث الأثافي، تراءت له سجاحًا، تختلي بمسيلمة، فتمنحه نبوّتها، ثم تستلّ عليه السّيف. تذكُر المائتي بنت المسحورات اللائي تنفي بلأرة هذه، وجودهن ووجود غيرها، تذكُر زفاف الليلة الذي أمر به.

غصّة لذنة دافئةٌ دفّاقةٌ، كانت بلأرة بين يديه.

– يا خافي الألطاف نجّنا مما نخاف.

قال وأمسكها بقوّة من كتفيها، يدفعُها إلى الخلف، محدّقًا في وجهها الذي اعتلته الحُمرة، فازداد بهاءً وروعةً.

– الآن أعرف ما إذا كنت إنسيّةً أم لا.

– أحذّرك يا مولاي من سفك دمي. ستلحقك بلوى البحث عني، فلا تعثر عليّ، حتىّ وإن كنتُ تحت قدمك.

– الآن أعرف ما إذا كنت إنسيّةً أم لا.

– أحذّرك يا مولاي من سفك دمي. ينمحي مخزون رأسك ولا تستعيده إلاّ بعد قرون، فيعود إليك قطرة فقطرة ونقطة فنقطة. تجوب القيْف هذا، مئات السنين، فلا تعثر على طريقك، ويوم تعثر عنه، تبدأ من البداية.

أحذّرك يا مولاي من سفك دمي. ستلحقك بلوى خوض غمار الحروب، فتشارك في حروب جرت، وفي حروب تجري، وفي حروب ستجري، إلى جانب قوم تعرفهم، وقوم لا تعرفهم ولا تفقه لسانهم، ولا تدري لماذا يحاربون.

أحذّرك يا مولاي من سفك دمي. ستلحقك بلوى حزّ الرؤوس وخنق الأطفال والعجزة، وحرق الأحياء.

تموت ألف ميتة وميتة، ويسقي دمك، كل صقع رُفع فيه الآذان، وفي كل عودة لك تعاودك بلوى البحث عنّي من جديد دون أن تدري عمّ تبحث.

لن يبقى منّي يا مولاي، سوى عبق عطر، تذروه هبّات سماوية رقيقة، وصوت، تعرفه

مخلوقات نورانيّة، لا تراها ولا تراني.

رأت الشرّ في عينيه. تخلّصت منه وراحت تركض في الغرفة التي كانت تتّسع كلّما جرت، حتى صارت ساحةً فسيحةً لا يحدّها البصر، مفروشة بزربية خضراء، وينسدل على نوافذها الكبيرة أسترة باهتة الصُّفرة، وتنصبُّ من سقفها الأزرق أنوار أرجوانية تتشابك دوائر دوائر.

تمكّن منها أخيرًا، هتفت مرتعبة:

– اقتلني خنقًا يا مولاي وإيّاك وسفك دمي.

– وهل لك دم يا ابنة النار؟

بلغ الغضب ذراه، فتراجع كل تردّد. صعق.

امتدّت يداه معًا فسلّتا قرطين من أذنيها، وسال الدم على عنقها الطويل الرفيع.

تأوّهت متألمةً. ظلّت لحظات تتأوّه، ثم راحت كلّما أشهقت موجوعة، تختفي في ضباب رمادي، إلى أن غابت نهائيًا.

– تمكّنوا منك يا حبيبي.

كانت تلك آخر جملة لفظت بها، والضباب يبتلعها.

ذاكرة الوليّ الطاهر تستعيد صورًا أو أخيلةً، عن وقائع جرت، لكن لا يميّز، أو حتى يتصوّر زمن وقوعها، الأمس واليوم والسنة الماضية، والقرن الماضي، كلّها، آنٌ، قد يصغر وقد يكبر، قد يطول وقد يقصر، قد لا يكون سوى ومضةً من ومضات حلم أو كابوس.

وميضٌ. وميضٌ. مناظرُ تتشكّل، وتختفي.

ها هي بلاّرة بنت تميم بن المعز تعاوده، كما خاض المعركة الفاصلة معها، وليس كمجرّد رغبة، ظلّت تدفعه في القيْف سعيًا وراءَ لا شيء.

الماضي، يغرق في الضباب. بل إنه يومض.

نعم، الآن أتذكر جيّدًا. أتذكرها بلاّرة حبيبتي. جاءت لتُنشئ نسل كل الناس، فخفتها، شككتُ فيها، وظلمتُها. يا للظن الإثم.

أسلتُ دم حبيبتي فلحقتني ولحقتها البلوى. تحوّلت إلى أتان عضباء، لا يختفي أثر الجرح من أذنيها، ليمتص ذباب لعين، دمها، أركبها دون أن أدري أنني أركب روحي، ولما عرفت الحقيقة، ازداد عذابي وتضاعفت شقوتي.

رباه عفوك، فما ظلمت إلا حرصًا على دينك. وما فعلت إلا ما قدّرت.

اقتحم الطابق السابع، ليجد نفسه في مقامه. قاعة ليس لأبعادها حدود، كلّما امتدّ

البصر، امتدّت، إن طولاً وإن عرضاً، وإن علواً. كل ما فيها، هُلامي، شبيه بأخيلة النائم، يشعر المرء فيها بأنه يتواجد في كل ذرّة مما يقع أو وقع عليه بصره، كما يشعر بملله لكلّ الأزمنة، إلى درجة انه يحس بالانعدام، كائن وغير كائن، هو هو وليس إطلاقًا هو.

اعتلى سجّادًا من جلد الغزال، وانطلق يؤدي ركعتي تحيّة المقام والملائكة.

استغرقت الركعتان دهرًا لا يعلمه إلا أهل الذّكر، استيقظ منه الولي الطاهر فرحًا نشيطًا، يقظ الروح والجوارح.

بلاّرة، وكل ما تعلق ببلاّرة، سواء قبل ظهورها أو اثناءه أو بعده. بلاّرة. ما بلاّرة إلا ومضة تسكن تجويفًا من تجاويف هذا العقل الشامل للكبيرة والصغيرة في الزمان والمكان. شأنها شأن شخوص وأحداث التاريخ منذ آدم.

اشتاق الوليّ الطاهر إلى شيء ما لا يدريه، يحسُّ بالحنين يفيض في صدره، يشعرُ بنوعٍ من الظّما الروحي لشيء ما، يروي الغليل، وينتظر أن يهبّ عليه من حين لآخر.

يعلم انه آتٍ لا محالة، فالروح لا تتوق إلا لما لها صلة أو ارتباط به.

يرى الوليّ الطاهر الأزمنة التي مرّ بها، وهي قرون وقرون، ولكن لا يعلم في أي زمن هو الآن.

يعسر على المرء أن يُمسك بكل الأزمنة في الآن الواحد، خاصّة عندما تتكدّس كلّها في لحظة واحدة.

هذا القطار العابر للأزمنة، لابدّ له من محطّة في آخر الأمر.

فكّر الوليّ الطاهر ثم تقدّم من عرشه، واستوى يُحدّق فيها. الأزمنة. كما لو انه يطلُّ من نافذة القطار.

التأرجح المتقاذف

في ذات الآن، يذرع العالم العربي من المحيط إلى الخليج، غاديًا رائحًا، بسرعة البرق، ويضرب في عمق التاريخ، نازلاً صاعدًا كالكرة المتقاذفة بجاذبيةٍ قويّةٍ، وبنفس السُّرعة.

يطلُّ على شوارع دبي، يتأمّل الروسيات والبلقانيات، الشُّقر الممتلئات، المتراميات في الشوارع كالجواميس الضالّة، وحولهن من بعيد أو من قريب، علوج، حليقو الرؤوس، يملأ الوشم الملوّن زنودهم وأكتافهم وصدورهم، يوهم كل واحد منهم، انه الحارس غير الأمين لهذه أو لتلك، والحامي الراعي لكل قرش يدخل محفظتها. يصنعون أوروبا وهمية في أقصى الشرق.

يهبط في الزمان، ليجد نفسه في مجلس خليفة من الخلفاء، أو يستمع إلى أبي هريرة،

يقدح ذاكرته، لكي لا يكفَّ عن الرواية.

يقول إمام جامع الدار البيضاء المنكبُّ بجلاله، يلعق مياه بحر الظلمات، في خطبةٍ يعيدها كلّ جمعة، من ميّزات المسلم، طاعة الله والرسول وأولي الامر. فيرنّ صداه في جامع الزيتونة والأزهر وبيت المقدس والأمويين ومكّة والمدينة، ويأتي الرّجع، اللهم احفظ أمير المؤمنين.

يصعد، فتقابله شاشة عرضها المحيط والخليج، تعرض مناظر الصبايا العراقيات، يغازلن العلوج الامريكان، في حين يتساءل هؤلاء عن إمكانية الحصول على كمّية من الحشيش، أو من أيّ مخدر.

يُحاول أن ينام في أحد الفنادق بإحدى مدن الخليج، فيمنعه أزيز الطائرات الأمريكية التي تحوم تحت حاجز الصوت. يصمد في قلعة غرناطة، يومًا فيومين، فأيامًا، وعندما يلتفت إلى جنبه، لا يجد أحدًا. هربوا جميعًا وتركوه. البعض جبن. البعض باع. البعض لم يجد مبررًا للبقاء في أرض ليست أرضه، وفي وطن وهميٍّ، صُنع بالغواني وبالموسيقى وبالخمور والملذّات.

اعتراه الخوف، اعتلاه الغضب، غمرته الوحشة. فكّر أن يولي وجهه شطر المشرق، فيكون آخر اللاحقين، إلّا أن غليانًا وفورانًا في دمه فرضا عليه أن يظلّ مرابطًا.

أطلق آخر سهم بين يديه، وتلقّى أوّل سهم في صدره، فانمحت غرناطة وانمحت الأندلس، إثر غمضة عين، متسانيًا في الزّمان، متلاشيًا في المكان.

تروح الأرجوحة. تجيء الأرجوحة. تنزل الكرة. ترتفع الكرة.

شبه دوران للمكان داخل الزّمان، وللزّمان داخل المكان، في دوّامةٍ عرضها من نهر السينيغال إلى دكّة، وطولها من معركة بدر، إلى مثول صدّام حسين أمام المحكمة.

تغدو الأرجوحة، نواق الشُّوط. الرّباط. الجزائر. تونس، ليبيا. مصر. عمان. القدس. دمشق. بغداد. الخليج، فالجزيرة.

تتقاذف الكرة إلى فوق. الجيوش الفرنسية. الجيوش البريطانيّة. البرتغاليّة، الأسبانيّة، المنطقة تنغمر بالجيوش. الساحة تمتلئ بالمسيحيين. تاريخ العرب تُعادُ صياغته.

تعود الأرجوحة. عباد الرحمن في حالة تيهٍ وذهول.

تنزلُ الكُرة. مسلمون، مسلمون، ربّنا واحد، نبيّنا واحد، خليفتنا واحد، لكن من ليس من أمٍّ تُركيّةٍ، فهو مسلمٌ من نوعٍ ثانٍ...

تغدو الأرجوحة. الوطن هو الصّلاة والصّوم والزّكاة والحجّ لمن استطاع إليه سبيلاً.

ترتفع الكرة. أحمد بن حنبل ينتصر. من فكّرَ كَفَرَ. ولا شيء هنالك سوى الغدو

والرّواح في السبيل الذي عبّده السّلف الصّالح. ولا نور غير النّور الربّانيّ.

المنارة التي اتّقدت في غار حراء، هي التي ينبغي أن لا نحيد عن التّحديق فيها، والالتفاف حولها، فهل تستطيع الفراشة أن تتجاهل المصدر؟

تجيء الأرجوحة. المواطن هو شيخ القبيلة، وشيخ القبيلة وحده، هو كل الناس، وما عداه، فكائنات تفلح وترعى، تتناكح وتتوالد، تُساقُ للحروب، وتدخل السجن وتدفع الضرائب.

تنزل الكرة. نواق الشّوط. الرّباط. الجزائر. تونس. ليبيا. مصر. عمّان. القدس. دمشق. بغداد. الخليج، فالجزيرة.

ثعبان يتلوّى ويتلوّى، يُعاني عسر تغيير جلده، كُلّما سلخ شبرًا عاد الجلد إلى الوراء، وكلما تلوّى غلبه النّعاس. ربّما لأن أسنانه منزوعة، ولربّما لأنهم ما يفتأون يستلون سُمّه.

تعود الأرجوحة. الوطن هو القبيلة، وحيثما ارتحلت القبيلة، ارتحل الوطن، وكلّ القبائل الأخرى عدوّة للوطن إلى أن يأذن شيخ القبيلة.

تصعد الكرة. شيوخ القبائل يتحولون إلى حكّام. بعضهم ينزع الجبّة والعمامة، ويرتدي اللّباس الأوروبي، ويعرّي رأسه، ويحلق لحيته وشاربه، وبعضهم لا يفعل ذلك إلاّ في المناسبات.

تجيء الأرجوحة، نواق الشّوط. الرّباط. الجزائر. تونس. ليبيا. مصر. عمّان. القدس. دمشق. بغداد. الخليج، فالجزيرة.

بيضةٌ لاقسةٌ، وقعت فتشقّقت في كل مواضعها، فانتشرت رائحتها النتنة، تُثير الغثيان في النّفس.

تنزل الكرة. محمد بن عبد الوهاب، يستيقظ في الجزيرة، ويروح يُحاول مساعدة الثّعبان على الاستيقاظ، والاحتفاظ بجلده. غير أن عينيه ظلّتا نصف مغمضتين، مبهوراً بشمس الصحراء، فاختلطت الرؤى عليه. امتدّت يداه لكل شيء في الوقت الواحد، فاضاع كل شيء. وتحوّلت حركة أمة، إلى انتصار قبيلة.

تغدو الأرجوحة. جلد الثّعبان يتمزّق، فلا هو بالمنسلخ ولا هو بالباقي. لا هو بالعاري، ولا هو بالمكتسي.

تصعدُ تنزلُ. تنزلُ تصعدُ. تجيءُ تروحُ. تروحُ تجيءُ. السُّرعةُ تشتدُّ حتى تتحوّل إلى حركةٍ، يتوقف عندها البصر، فلا يرى وإن كان يبصر، يعلم أنها حركة. وأنها تشتمل على حقائق كثيرة.

– يا خافي الألطاف نجّنا ممّا نخاف.

رَدّدَ الوليّ الطاهر عندما أحسّ بأنّه صار الأرجوحة، كما صار الكرة، وأن غدوه ورواحه، فقدَ معناه، ولم يبق سوى الاستيعاب. استيعاب ما حدث طوال خمسة عشر قرنًا، واستيعاب حال العرب، وحال المسلمين عمومًا.

كلّ الكليّات. كل الجزئيّات، ها هنا، في صفحة واحدة، لا تحتوي إلاّ على نقطةٍ واحدةٍ.

يا خافي الألطاف نجّنا مما نخاف.

يختنقُ. يَدٌ قويّةٌ تُمسك بعنقه، أصابع غليظة تضغط على أنفه وفمه. لا مجال هناك للتنفّس.

يا خافي الألطاف نجّنا مما نخاف.

عرف لحظته. أدرك الوليّ الطّاهر الزمن الذي تواجد فيه.

ها هنا، في زمن الوباء الذي عمّ ليس فقط العالم العربي، إنّما كل العالم الإسلامي. زمن صار فيه العرب والمسلمون جندًا للمسيحيين، يحملون أسلحتهم، ويلبسون ألبستهم، ويروّجون لعقائدهم. زمن صار فيه الهروب إلى الفيافي، والبدء من البداية واجبًا.

تخلّص من اليدين اللتين تخنقانه، ونهض واقفًا، وامتلأت خياشيمه بعبق عطر، عرف لمن هو.

– أدركُ زماني. أمسكُ بلحظتي.

... عندما دبّ اليأس بعد محاولات متواصلة، بلغتْ حدّ المواجهات المسلّحة، والحروب الطّاحنة، ما تزال تتواصل، ارتأيتُ أنّ الهروب بدين الله، عنصر مهمٌ في المواجهة. نقيم في هذا الفَيْف، نتضرّع للمولى، عساه يُفرّجُ الكرب، فيضع حدًا لهذا الاكتساح للوباء لأمم الإسلام، وفي الوقت نفسه نُهرّب ما نقوى عليه من الشبّان إناثًا وذكورًا، نُلقنهم دينهم، ونزوّجهم، ونُعمّر بهم الفَيْف، منشئين أمة محصّنةً.

قام المقام الزكي، بأموال تجمّعت من كل حدبٍ وصوبٍ، حتى من أمم غير أمم الإسلام. وهبُ الفقراء والأغنياء من الأتقياء ومن غيرهم، ممن لم يُصابوا بالوباء وممن أُصيبوا.

جعلناه سبعًا طباقًا، تحتضنها مئذنة ترتفع عنها بنصف علوّها، فكان كإرَمِ ذاتِ العمادِ أو أكثر. وشقّ عنان السّماءِ في ليل الفَيْف السّاكن تبريح:

– يا خافيَ الألطاف نجّنا مما نخاف.

التحقَ بالمقام الزكي خلقٌ كثيرٌ، تجلبهم البركات، والكرامات، وحُسن العبادة والدّعاء، وانضمّ لحلقات الدراسة، مائتا شاب ومائتا شابّة وشابّة، واحدة منهن، لا أحد يعرف لها أصلاً أو فصلاً، لا ربْعًا ولا عشيرةً ولا أهلاً، تقول كلّما سُئلت إنّها وفدت من بعيد – ذاكرةُ

من حين لحين اسم المهدية وإفريقيّة وتونس - باحثةً عن ضالّتها في المقام الزكي.

لم ينتبه أحد ليسألها عن ضالّتها، واقتنعنا جميعًا بأنها هاربة من الوباء، راجعةً إلى ربّها راضيةً مرضية.

- مرحبًا بك في مقامك الزكي يا مولاي الوليّ الطاهر.

انبعثَ الصّوت من الجهات الأربع. عرفه الوليّ الطاهر، أدرك بدون أيّ تردّد أو شك، أنه لها، بلاّرة، فقد نزل على قلبه كقطرة من الكوثر، في القيف الظمآن.

اكتوت الجمرة، بالقطرة الزلالية، فراحت تتبخّر دون أن تنطفئ.

- انزلي المقام آمنةً مكرّمةً يا بلاّرة.

قال الوليّ الطاهر. تجرّأ فقال ذلك، دونما تردّد، أو اضطراب.

ها قد قطع الخطوة الأولى في الوثبة التي كانت بلاّرة قد دعته إليها، منذ زمن غير معلوم.

- مولاي. عندما يؤذن لشظايا الأرواح أن تلتئم، أكون لكَ وتكون لي.

- متى يكون ذلك يا بلاّرة؟

- عندما تفقد الخوف يا مولاي، فأنت ما تفتأ تدعو خافي الألطاف أن يُنجّيكَ مما تخاف.

- كيف ذلك يا بلاّرة؟

- أعداؤك يسعون لما يخيف، ويأتون كل ما يخيف.

- بلاّرة لماذا تنطقين بالحكمة وكما لو أنك من الغابرين

- إنّه العلم يا مولاي. فعندما رصدوني وأسكنوني أجهزتهم وأقمارهم، نسوا قتل خليّة في دماغي، فتسرّبت علومُ الأوّلين والآخرين، من الإنس والجن، إلى رأسي، وفي الحق، تذكّرت ما كان وما سيكون، مما علّمه الله لآدم، عليه السلام، وجرت حكمته، أن لا تتكشّف الأسماء إلا بميقات.

- متى تنزلين يا ابنة النور؟

- عندما يصير القار ماءً زلالاً، وتسود الجُبَبُ والقمصان والعمامات فتنتزع، وتخشوشن الأيدي، وتخضرّ الفيافي القاحلة، ويصير التّراب هو الوطن، والجار هو القبيلة والعشيرة. ويكون الدين لله، والحكم للناس.

- إن هذا مخيف يا بلاّرة.

- فادع الله أن يسلّطه على عباده.

العكس أصَحُّ . . !

لا يدري الولي الطاهر، ما إذا كان صوت بلأرة يأتيه من خارجه أم من داخله، ففي الحق، كانت هناك حمّى باردة تهزُّ أوصاله، حتى تبلغ العظام .

كان الولي الطاهر في مثل تلكم الحالات التي تسبق وضعيّات الصّرَع التي تنتابه، كلما اشتدَّ به الغضب، أو تراكمت عليه الحيرة وعسرت الإجابات عن ركام الأسئلة الجاثم على رأسه، أو عظم عليه الحزن، حتى حدّ التمزّق .

امتثل لما بدا له أنه أمر غيرُ مبال بمصدره، فليس من عادة الشياطين أن تتسرّب إلى صدره فتوسوس له . توضّأ . صلّى ركعتين . رفع كفّيه يدعو مغمض العينين :

– يا خافي الألطاف . سلّط علينا ما نخاف .

ظلَّ يُصلّي ويكرّر الدّعاء تسعةً وتسعين مرّةً، إثْرَ كل ركعتين، متهدّجًا .

الله وحده يعلم كم زمنًا انقضى على التوسُّل الحثيث أمام باب المعشوق، حتى خُيِّلَ إليه أنه ينفتح، وأن صوتًا ملائكيًا يأتيه :

– أبشر أيُّها الولي الطاهر، ربّك استجاب لدعاء ظلَّ ينتظره، منذ سقوط الدولة العباسيّة .

تجاهل الصوت، وما يقول، وواصل الصلاة والدّعاء، وفي كل مرّة ينتهي من الدّعاء ترتفع الحمى، فتزداد اشتدادًا عليه، ويزداد العرق انصبابًا من كامل جسده، حتى أن لحيته تقلت من البلل، فعند باب المعشوق، ينسى العاشق سبب التوسّل، وإلا كان عاشقًا، مقايضاً، يُعطي ويأخذ .

لم يكن يسمع ما يأتيه من أصوات، تحمل مفردات بشريّة . فقد داهمته الصُّرعة التي فارقته، منذ فتح عينيه، يتأمّل الشُّمس الخاسفة . ويتشمّم عبق عطر بلأرة . راحت عضلاته تتقلّص واحدة إثر الأخرى، عضلات رجليه، ثم عضلات فخذيه، ثم وسطه، ثم صدره، ثم ذقنه، فوجنتيه، وعندما اهتزّت عضلات قفاه، شعر بارتجاج في رأسه، فهوى .

ظلَّ زمنًا يتخبّط، ينتظرُ الغيبوبة الكبرى، إلا أنها على ما يبدو لن تأتي، فقد أحسَّ الولي الطاهر بأن صرعة اليوم، لا تشبه تمامًا تلك الصُّرعات التي كانت تغيّر شخصيته، كليًا، حيث يتخلّص من أحد ليكون أحدًا آخر . في لحظات قصار، يكون أكثر من واحد، في أكثر من مكان .

في أفغانستان، دستم، وشاه مسعود، ومجيب الرحمن معًا . ويكون في الجزائر مرّة جنرالاً، يقود الدبابات والطّائرات والفيالق، ويستورد ويُصدّر، ويسنُّ قوانين المنع والترخيص، وأميرًا يهرب ويهجم، يقتل ويُصلّي، ويفتي بالتّحريم والنهي، وبما يجوز وهو قليل، وما لا يجوز وهو كل ما فيه شبهة باختلافه، مع ما حدث في السّنوات الأولى للنبوّة .

يكون في مصر، مرّة، نجيب محفوظ مذبوحًا، ومرةً داعيةً يستلُّ الخنجر ليذبح نجيب محفوظ. تارةً عمر دياب، يردّد:

انـا حُـنـين ومـنـزلـي الـنـجـف
ومـا نـديمي إلاّ الـفـتـى الـقـصـف
اقـرع بـالـكـاس ثـغـر
بـاطـيـة مـتـرعـة نـاريّـة واغـتـرف
مـن قـهـوة بـاكـر الـتـجـار بـهـا
بـيـتُ يـهـود قـرارهـا الـخـزف
والـعـيـش غـضٌ ومـنـزلـي خـصـب
لـم تـغـذنـي شـقـوة ولا عـنـف

وتارةً مجاهدٌ، يتسلّل بشحنة من المتفجّرات لينسفَ الركح الذي يقف عليه عمر دياب. الجسد بكل مكوّناته. والفؤاد بكل محتوياته. العرقُ النّابض والعرق الميّت. يقتل ذاته، تخلصًا من ذاته، في محاولة إحياء ذاته.

جراثيم الوباء الذي جاء مع المستعمرين، المتفشّية في الجسد الواهن، هي التي تتصارع، في كياننا، وكُلّما تقدّم الزمن توغلت فينا، وازداد رفضنا لها.

الثّعبان المصروع يكابد عسر تغيير جلده.

بين يقظةٍ ونومٍ، بين الوعي بمجريات الأمور، وبين توَهّم حدوثها، بين تحليق انسيابي في عوالم لازوردية، وغطس في بحرٍ من حرير تنفشه أنامل بلاّرة، متعدّدة في آلاف البلاّرات. لهنّ بسمة واحدة، ولهنّ صدر واحد.

رسالة من تحت السّواد الدامس

أحسّ الولي الطاهر بيدين لطيفتين، تحملانه، وتُجلسانه على عرشه في مقامه الزكي، فينفتح تلفاز شاشته، لا يَحدُّها نظر، ما عدا بعض نقاط ملوّنة، حمراء وخضراء، مضاءة، والصّوت الذي ينبعث بجميع اللغات، لكنّها، موجزة في لغة واحدة، يفهمها المرء، دون أن يُدرك أيّة لغة هي، أهي إنكليزية، أم صينية، أم لغة قبيلة بالويا. فلا شيء آخر.

انتظر أن تُضاء الشّاشة، فتبرز منها صورة ما، وقد تكون بلاّرة بالذّات والصّفات، لحمًا ودمًا. بسمة خجلى، وعطرًا فواحًا، الوجه البشارة الذي يستهلّ به البثّ.

– سيّداتي سادتي، ظاهرة غريبة تعترض العالم العربي حاليًا، فضوء الشمس أسودُ منذ

لحظات، ولم تنفع معه أيّةُ إثارة، والخبراء، من جميع أنحاء العالم، ينكبّون على دراسة الظاهرة.

سيّداتي سادتي، نعتذر عن عدم ظهور الصورة، فذلك خارج عن نطاق إرادتنا. وقد علمنا أن الظاهرة عمّت كل الفضائيّات المرسلة من العالم العربي، أو الموجّهة إليه.

أيّها السّادة والسيّدات. الظاهرة أخطر مما كنّا نظن، فبالإضافة إلى أن الصورة التي اسودّ عليها النور، هي لرئيس جمهوريّة الولايات المتّحدة الامريكيّة، وهو يُلقي خطابه من على متن حاملة الطائرات، أبراهام لنكولن، بالإضافة إلى ذلك، فإنّنا، على الأقل هنا، حيث نحن، لم نعد نرى بعضنا البعض. لكن، انتظروا، فمراسلونا، من جميع البلدان العربية، على اتّصال بنا حاليًا. ونلفتُ انتباهكم، سيّداتي سادتي، إلى أنّنا جميعًا تسمّينا بعبد الرحيم فقراء حتى لا نضطر للتفكير في أسماء بعضنا كلّ مرّةٍ فيضيع وقت ما أحوجنا إليه، فمراسلونا ينبثون في كل أنحاء العالم، ثم إنّ لهذا الاسم بالذّات إيحاءً معينًا يرتبط بالمثقف وبرجل الإعلام، مع اعتذارنا لصاحب الاسم الحقيقي، مراسل زميلتنا من واشنطن.

نواق الشّوط. الرّباط. الجزائر. تونس، ليبيا، مصر. عمّان. القدس. دمشق. بغداد. الخليج، فالجزيرة.

الظّاهرة عامّةٌ، ما عدا في القدس، فهناك مناطق يسود فيها النّور الأبيض.

– وماذا في رام الله، يا فقراء؟

– في رام الله كل شيء يجري في الظّلمة التي ما بعدها ظلمة.

كبير مراسلينا الآن في الجزيرة والخليج على اتّصال غير مرئي بنا، فانتظروا.

– أحدّثكم وكما لو أن عصابة سوداء على عيني، حتّى أنّي لا أدري ما إذا كانت يدي أمامي أو خلفي. أين اليمنى، وأين اليسرى. إنّني فعلاً لا أكاد أفرّقُ بين هذه وتلك.

– نحن في نفس الوضعيّة. حدّثنا كيف بدأت الظاهرة؟

– المسألة في منتهى البساطة. النّور الأسود بدأ يصعد من مناطق آبار النفط، حتى بلغ عنان السماء، ثم راح، على مرأى من أعيننا جميعًا، يمتدُّ مداهمًا زاحفًا، مترًا فمترًا، ثم كلمترًا فكلمترًا، ثم منطقةً فمنطقةً، حتى غمنا.

– هذا صحيح، فالأقمار الفضائيّة تتحدّثُ مرةً عن كرةٍ مستديرةٍ، في شكل بطن منتفخةٍ، ومرةً عن شيءٍ مستطيلٍ، أشبه ما يكون بقربة معز مشعرة.

– هل هناك ضحايا؟

– لا والحمد لله، فما عدا الانتحارات التي تتواصل دون هوادة، ظنًا من الناس بأنّ السّاعة قد قامت، فلا شيء يُذكَر.

– وهل صدر شيء عن السُّلطات الرسمية؟

– حتى الآن لا. فنحن في منتصف النهار، والمكاتب الحكومية خاوية الآن. وإنكم لعلى علم، بأن مسابقات الهجن استمرّت حتى فجر اليوم تحت الأنوار الكاشفة، كما أن السّواحل الأوروبية، وخاصةً الاسبانية، تستوعبُ عدداً غير قليل من أولي الأمر، بعد سنة كاملة من السهر الدؤوب على سير الأمور، خاصّةً تعبيد الطرقات، ثم حفرها وإعادة تعبيدها.

– ثمّ ماذا؟

– أكثر من إمام أعلن في الخلوي أن الأمر لا يتعلّق بقيام الساعة، مطلقًا، فهذه يسبقها شرط – ظهور المسيح الدّجال، والمهدي المنتظر، وكذا ظهور صاحب الدابّة، والريح الصفراء التي تقضي على كل كافر، وشروق الشمس من مغربها، وما إلى ذلك من العلامات الصُّغرى والكُبرى. ومهما كان، فإن الساعة لا تقوم إلاّ على شرار الخلق، وأمتنا والحمد لله تتوفّر على أفاضل الخلق شرقًا وغربًا، يتقدّمهم أولو الأمر منّا.

إنا لننصح المسلمين بالإكثار من الصلاة ومن الاستغفار، والبقاء داخل المنازل ما أمكن ذلك.

وقد سألت الإمام الأكبر، وهو كفيف يتنقل حيثما شاء، فالنور بالنسبة إليه، أصلاً أسود، سألناه بعد ما حضر إلينا، وتفضّل فاقترح أن يكون مرشدًا لنا، حتى يُفرّج الله الكرب، الذي سلّطه على عباده، جزاء ما فعلت أيديهم.

– ما معنى داخل المنازل؟

فقال منفعلاً: البقاء حيث هم، فلا أمام ولا خلف، ولا يسار ولا يمين، لمن لا يبصر، وكل ما هنالك، فضاءٌ يحسن التّحرّك فيه.

– نتركك الآن، ونعود إلى كبير مراسلينا في الضّفّة والقطاع.

– عبد الرحيم فقراء، ما الجديد عندكم؟

– السّواد يشمل المناطق العربية فقط، وكاميراتنا لا تعمل حتى في المناطق الأخرى. إنّما الغريب في الأمر، هو أن المناطق المشمولة، تقع في حدود التقسيم الأوّل الذي لم يقتنع به العرب، الأمر الذي جعل الكنيست ورئيس الوزراء وأعضاء حكومته، ينتقلون على لمح البرق، على ما يبدو لكي لا تفلت منهم المبادرة، إلى تل أبيب، وقد تشكّلت خلايا متابعة، شملت كلّ بيت وكلّ حي، كما شملت كل فصائل المجتمع الإسرائيلي، بما في ذلك السّحرة الذين صرّح كبيرُهم، بأنّ عفاريت سيّدنا سليمان هم الذين انطلقوا من

أعماق الأرض، ليُعلنوا عن غضب الرّب من التأخير في إعادة بناء الهيكل. ومع ذلك، فلا تعدم أصابع سَيّسْت الظاهرة، مُتّجهةً نحو إيران، وبوجنبورة، إذ لا علم بدون سحر، ولا سحر بدون بخور – كما قيل.

وقد حاولنا الاتّصال بالمحلّل السّياسي المتخصّص في الشّؤون الإسرائيليّة، الدكتور حنزليقة، فلم نفلح، حيث أننا في كل مرة نتلقى صوت امرأة، يعلن بفظاظة، أن الرقم غالط.

– سيّداتي سادتي. نتوجّه الآن إلى كبير مراسلينا في المغرب العربيّ الذي هو على الخطّ منذ لحظات. نعم كلّنا – كما هو الشأن بالنسبة لغيرنا– نسمع ولا نرى. ما الجديد عندكم؟

– هنا رام الله، انتظر، فهناك جديدٌ مهمٌ جداً.

– ماذا هنالك؟

– الأمر يتعلّق بأبي عمار، رئيس السّلطة التنفيذية..

– ما الأمر؟

– أغلقَ الباب دونه، واستخرج مسدّسه، وصدرت طلقة.

– ماذا تقول. خير إن شاء الله.

– لا. اطمئنوا، فالانتحار مستبعد، وأبو عمّار من فصيلة المسلمين أقوياء الإيمان بالله، وعزيمته لا تهن ولا تضعف، وتشبّثه بالحياة، جزء من نضاله.

– هذا معروف. فما الأمر من فضلك؟

– مُجرّد حادث عارض، تسبّب فيه ارتجاف أصابع يد الرئيس.

– الحمد لله أن كانت الطلقة في الهواء.

– ليست في الهواء تماماً، فهناك حديث عن أن دحلان، مستشار السيّد الرئيس، يكون قد أصيب.

– وهل من أخبار أخرى؟

– حسب ما علمنا من مصادر جدّ مقرّبة وعليمة، فإن الغضب اشتدّ بالسيّد الرئيس عندما اقترح عليه اغتنام الفرصة للهرب.

سألهم، هل تعرفون الشرق من الغرب؟ واليمين من الشّمال، فلمّا أجابوه بالنفي تساءل: وعلى فرض أنّ أحدكم يعرف الطريق، فهل نترك السّلطة ثم نأخذها؟

شعر باقتراب أحدهم منه، فكانت الطّلقة، فكان دحلان كما قلت. ويُقال إن السيّد

الرئيس، أُصيب بنوبة هستيريا، جعلته يصرخ فترة غير قصيرة :

– رئيسًا . رئيسًا . رئيسًا .

– كان الله في عونه . ما اخبار باقي الوزراء، والسيّد رئيس الحكومة بالذات؟

– لقد بلغهم خبر الإمام الكفيف، فراقهم الحل، ووجه كل واحد منهم، عن طريق الخلوي، نداء، يُعلن عن توظيف وزارته لأقصى عدد ممكن من العمي .

– نعود إليك فيما بعد، لنُفسح المجال لمراسل آخر .

– هنا في تونس الخضراء الزغاريد تُجلْجِلُ مُغرِّدةً، تملأ الفضاءات التونسيّة المتماسكة الصامدة النقيّة الطاهرة بفضل السياسة الرّشيدة للسيّد الرئيس . لقد شاع بين الناس، أن العملية، وما تحمل من معنىً ومغزىً، لا تعدو أن تكون دعايةً، تسبق احتفالاً سياحيًا، المقصود منها، إقامة ليلة الغلطة، فقد أرست اليوم بواخر تحمل سواحًا ألمانًا يُقالُ إنّهم كلهم من يهود فرانكفورت، سيتوجهون إلى شبه جزيرة جربة، بعد أُسبوع، هذا إلى جانب حلول طائرات بسائحات روسيات، قيل إنهن سيقضين شهرين في الخضراء ولربّما أكثر .

على كل، الزغاريد ما تزال تصدح، والناس يخبطون خبط عشواء مبتهجين مهلّلين، مثنين .

– وهل درى التوانسة، أن القاهرة قوميّة؟

– تعلم أن العالم العربي يبدأ وينتهي في تونس، وأن الخطاب السياسي والإعلامي، يطلق نعت الأمة على الشّعب التونسي . إن عواقب تدخّل عبد الناصر في الشأن التونسي في الخمسينات، لم تُمْحَ بعد، بل إنّها تتكرّس يومًا بعد آخر، رغم أن لطيفة العرفاوي، لا تكاد تفارق القاهرة، مع أنّها، تعلن عن تونستها وولائها، كلّما تواجدت هنا، بارتداء العلم التونسي . وأن المطربة التونسيّة الكبيرة ذكرى، استشهدت منتحرة في القاهرة، حيث بكاها كل الوسط الفني . وأنه لا يوجد تونسي واحد، لا يستمع يوميًا لأم كلثوم، عليها الرّحمة والغفران على الأقلّ مرتين، ثمّ إن ظاهرة تدخين الشباب للشيشة اكتسحت البيوت والنوادي والمقاهي والفنادق .

أهمّ من هذا كلّه، أن السيّد الرئيس، حفظه الله ورعاه، أثنى على دور مصر في انعقاد دورة الجامعة بتونس، في الحفظ والأمان .

هذا في تونس الخضراء، امّا في الجزائر والمغرب، فالمسألة تختلف تمام الاختلاف . ففي غمرة السواد الحالك، يرتفع الآذان في كل صومعة من صومعات المساجد، إذ كما هو معلوم،

معظم المساجد، لها أكثر من صومعة وصومعتين.

إلى جانب الأذان، هناك أصواتٌ متقطعة من الرّصاص، تُسمع هنا وهناك، مع أصوات انفجارات ضخمة، يعقبها تكبير جماعي.

– عمّ يعبّر ذلك في رأيك؟

– كما هو معلوم، فإن الحركة البربرية، هنا وفي كامل المنطقة، حتى جزر الكناري وباستثناء سبتة ومليلة، تُحاول باستمرار التأكيد على وجودها.

– لكن ما علاقة ذلك، بموضوعنا؟

– تعلم أن الناس، هنا، يجدون صعوبة في اختيار مفردة من إحدى اللّغات الثلاث: العربية، والأمازيغية والفرنسية. ولهذا فأفضل لغة لديهم هي التعبيرية، ولا أدري ما إذا كان يصح استعارة كلمة السيميائية من أساتذة الأدب؟!

– فهمت. وفي موريتانيا؟

– هنا في نواق الشُّوط التي أتواجدُ بها، النّاس حذرون من بعضهم، وقد التزم كل واحد الصمت المطبق، حتى لا يبلغ صوته أذن الواقف جنبه، فقد أشيع من طرف عناصر معروف ارتباطها بـ «الموساد»، منذ اللحظة الأولى، أن المسألة وما فيها، صراع عرقيّ بين البيض والسود. حالة سودانية أخرى أعني، وأن ليوجنبورة وإيران ضلعًا في الأمر.

ومهما يكن، فالأمور جدّ عادية هنا في المغرب الكبير. فمهما غلى المرجل، فإنه لن يفيض. إليكم الخط.

– هنا في دول مجلس التّعاون، يا عبد الرحيم فقراء، النّاس لا يرون بعضهم إلا سماعًا. ولحسن حظ هذه الأمة أن جاد الله عليها بالهاتف الخلوي، فلولاه لكانت القطيعة المُطلقة. فالثّقافة البدوية، لم تختف هنا، وليس معقولاً أن تختفي لمجرّد ظهور العمارات الزجاجيّة الشّاهقة، والطرق العريضة المستقيمة، والسيّارات الآسيوية البرّاقة، وحلول الويسكي محل لبن «الحلال»، والنوق.

لقد حافظ العربي هنا على أصالته، بأمرين هامّين، هما القبيلة، واللّباس. فالقبيلة أخذت اسم المشيخة وإن أضاف الشيخ لقب الأمير، والدولة تتمظهر بيمانيين ارتدوا الزيّ العسكري وحملوا عصيًا، وصقارات، ولربّما بعض مسدّسات، خالية من الخرطوش.

تعلّم أولادهم كلّ وسائل وأدوات اللّعب واللّهو، من ركوب سيارات السّباق، إلى التّحليق بالطائرات، إلى ممارسة الدعارة في البرّ والبحر، إلى القمار والمضاربة في البورصات. حتّى أنّ أحد المفكّرين العرب شبّههم بالأرانب، نهارهم أكل وشرب، وليلهم لهو ولعب.

ولقد تجرّأ بعضهم، فوضع اسمه على مؤلّفات يجهل محتواها، ألّفها لهم بعض الإخوة العرب الفقراء، وظهر منهم علماء ومفكّرون ومحلّلون يحملون ألقاب الدكتور والعلاّمة والباحث، وما إلى ذلك.

– لقد أسهبتَ في الحديث عن صفات الخليجي، التي لا يجهلها أحد، فماذا غير ذلك؟

– هناك إشكاليّة، في استعمال الخلوي، قال البعض في شأنها، رُبَّ ضارّةٍ نافعةٍ. ورُبَّ نافعةٍ ضارّةٍ. تتمثّل الإشكالية في أن الإنسان لا يتبيّن الرّقم الذي ينبغي أن يطلبه، فيطلب عشوائيًا، أو يتلقّى طلبًا عشوائيًا أيضًا، وكثيرًا ما تحدث محاسن الصُّدف، فيقع المرء في أنثى تُشبعه كلامًا لذيذًا، أو في غلام تجري ملاطفته، وكثيرًا ما تنتهي المكالمة، بخطوبة، يتمّ الوصال بعدها إذا ما فرّج الله بإعادة النور. ويتحدّث النّاس عن حادثة طريفة، حدثت قبل قليل، فقد ظلّ أحدهم يُغازل امرأة، ويصعد معها في القول، إلى مراتب الفاحشة، وعندما حلا الأمر بالنّسبة لصاحبنا، قالت له المرأة: أين كنت تخفي كل هذا الكلام الحلو، يا كلب ابن كلبة، أم كُنت تقوله من ورائي للكلبة الفيليبينية؟ فما كان من صاحبنا إلا أن طلّقها بالثلاث.

فيما يتعلّق بالقوات الأمريكية، فلا شيء، كالعادة، يتسرّب من أخبارها، إلاّ أن بعض الأصوات الخافتة، توجّه لها إصبع الاتهام، مستندةً إلى معلومات تقول إن الأمريكان مُنزعجون من بياض القمصان التي يرتديها أبناء البلد، حيث أنه يحتمل أن تُخطئ فيه رادارات الطائرات، فتظنّه صواريخ أحضرها أتباع صدّام حسين، أو جماعة «القاعدة». وعلى كلّ فالأمر الشاغل للنّاس أكثر، هو هل تظلّ قمصانهم البيضاء بيضاء إذا ما عاد النور للشمس.

– ألا يوجد هناك ضحايا؟

– بلى. ففي غمرة الهجوم على شارع الروسيات وعلوجهن، وقعت بعض صدامات واصطدامات أيضًا، خلّفت قتلى وجرحى، لا أحد عرف عددهم، أو كيف يواجه حالتهم. إن شاء الله يعود النُّور قبل أن تتعقّد الحالة. إليكم الخط.

– وبالنّسبة للطيران، حدثنا قليلاً، هل كان كلّه في الأرض قبل أن تسود الشمس؟

– لا. لم يكن كلّه على وجه الأرض، فهذا، كما تعرفون، نادر الحدوث. لقد سمعنا وسمع شهود كثيرون، انفجارات قويّة، حدثت في السماء، وفهم الجميع أن ذلك مجرّد اصطدام طائرات أمريكية، لم تتعوّد بعد على مثل هذا الجو.

المعلومات، من هذا الجانب، شحيحة جدًا، وكل ما هنالك، تكهّنات، تلعب فيها السياسة، الدّور الكبير.

- عن الحلوي، ألم يستعمل الناس العمي، مثلما هو الشأن بالنّسبة لإخوانهم العرب؟

- تعلمون أن الأيدي العاملة، كلّها هنا مستوردة، والعمي الأصليون، يستوردون مبصرات، يقمن بشؤونهم، فلا حروف «براي» ولا غيرها، يُضاف إلى ذلك استيراد العيون من كل مناطق آسيا، خاصة من بانغلادش، والبلدان الإسلامية.

- سنعود إليك لاحقًا، أمّا الآن، فقد تمكّنَ مراسلنا من القاهرة من إصلاح الخط.

- نعم. ومن أمام جامع «الأزهر»، أتحدّثُ إليكم سيّداتي سادتي، فقد قاد فريقنا كفيف، شغلناه للتوّ، وفي أرض الكنانة، هنا، أنشئت للتوّ، منظمةٌ قوميّةٌ، للعمي، انقسمت إلى قسمين، قسم يدّعي العلمانية، أسمى نفسه «الطاهويون»، نسبة إلى العالم الجليل المرحوم الدكتور طه حسين، صاحب «حديث الأربعاء»، و«الفتنة الكبرى»، و«رهين المحبسين»، وما إلى ذلك. وقسم، أطلق على نفسه نعت «الكشكيون»، ولو أن تسمية هذا القسم، غير نهائية، حيث يدور نقاش حاد، في أروقة «الأزهر» هنا، حول التسمية، فهناك جماعة لا يُستهان بها، تقترح «الجلاليون»، نسبة طبعًا إلى الشّطر الأول من اسم المرحوم جلال الدين كشك.

- وعن الجانب الحكومي، هل هناك ردّ فعل؟

- نعم، فقد بادرت السّلطة إلى إعلان رصدها مبالغ ماليّة مُعتبرةً، إلى منظمة العمي بشقّيها، وقال البيان الذي وصلنا عن طريق الحلوي، إنّ مصر لن تحيد عن نهج السلام، وعن مبادئ «كامب ديفيد»، واتفاقيات أوسلو، وخارطة الطريق، والخط الأخضر، واتفاقيات شرم الشيخ، وخطب بيل كلينتون، وبوش الأول وبوش الثاني، وباول، والسيّدة المستشارة للأمن القومي.

- وماذا عن الجامعة العربية؟

- لقد تلفنّا بواسطة مرشدنا الكفيف، أكثر من مرّة، وفي كل مرّة، يقال لنا، إن الأمين العام لم يخرج بعد من الحمام. ومعلوم أن السيّد الأمين العام كان من يومين في السودان، أمّا مساعدوه، فهواتفهم مشغولة، ويبدو أن الاتصالات جارية مع العواصم العربية، لتحديد الموقف من بوجنبورة، وطهران.

- بوجنبورة، وطهران، تقول؟

- نعم، ويبدو أن الجامعة العربية، وطبعًا، ومن ورائها بعض الدول، والسّلطة المصرية بالذّات، تميل إلى الرأي الصادر عن السّاحر الإسرائيلي الكبير، الدكتور «ضرططوخ».

- وكيف عرفتم ذلك؟

- كما لا يخفى عن حضرات السادة والسيّدات المشاهدين.

- المستمعين، على الأقل مؤقتًا.

- المعذرة، عن هذه الهفوة. فكما لا يخفى عن حضراتكم. فإن الأمور هنا باتت بين أيدي «الطاهويين»، و«الجلاليين»، وخلويو هؤلاء لم تتوقف عن التشغيل، فكل شيء يتمّ بواسطة خط «براي»، كما هو معلوم، ولأحدهم بنت تشتغل هنالك.

- سنعود إليك فيما بعد، فبين أيدينا، بيانٌ صادرٌ عن جميع الحكومات العربيّة. أوردته الوكالة الأمريكية للاخبار، يتعلّق بالحالة، والغريب هو هذا التشابه الكبير في الموقف، وفي الصيغة، بل وحتّى في المفردات التي احتواها هذا البيان.

ميْداني سادني. تتّفقُ جميع الحكومات العربيّة، باستثناء الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية، التي لها موقف آخر نأتي عليه فيما بعد، على أن الظاهرة، إرهابيّة، تقف وراءها جماعة «القاعدة»، ومن والاها من الأصوليين المستعملين للدّين الإسلامي الحنيف الذي هو براء منهم.

يُضيف البيان، أنّ الظاهرة فيزيائية، وليست فيزيولوجية، وأن عدم إبصار مكوّنات النُّور في المادة لا يعني أن المواطنين أُصيبوا بالعمى، ولربّما الأمر كلّه يتعلّق بحالة وهم، تسبّب فيها سحر ساحر، كما جاء في تصريح العالم «ضرططوخ». وإنه لا شيء يُثني القيادة السياسية عن عزمها في بناء مجتمع متقدّم مزدهر. وإنه مثل الظلام او قصُر، لا بدّ من الضرب على يد المفسدين والمخربين بقوّة وبدون رحمة أو هوادة.

وتُضيف وكالة الأنباء الأمريكية، أن الحكومات العربيّة، تناشدُ العالم الحر، وفي مقدّمته الولايات المتحدة الأمريكية، بأن يُسارع، فيقدّم لها يد العون لإخراجها من محنتها، وهي الحكومات العربية، كل على حدة، تُعلن أن بلدها منكوب، كما تُعلن الحالة القصوى من فرض منع التحرّك، وإطلاق الإشاعات، خاصة المتعلّقة بالمسؤولين والقادة السياسيين.

وقد خالفت ليبيا ما جاء في بيانات الحكومات العربية الذي أوجزته الوكالة الأمريكية، إذ اعتبرت أن عودة السواد إلى الأرض بهذه الصفة، مؤشّر على أن مشروع الوحدة الإفريقية، الذي أعلنه القائد، سيرى النور وسيتحقق. وعلى فكرة، تقول وكالة الأنباء الأمريكية، أن ليبيا عكس تونس، تعتبر الحالة كونيةً تشمل العالم كله، ولا تقتصر على العالم العربي وحده. وهي، ليبيا، تُضيف وكالة الأنباء الأمريكية، إذ تدين بشدّة الاستعمار والإمبريالية، تضع ثقتها التامّة في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي بوجنبورة التي استبعد القائد شخصيًا ضلوعها في أيّ عمل عدواني دون استشارته هو. وتنصح إيران بالاستماع إلى نصائح العالم الجليل، «ضرططوخ»، فتحذو حذو ليبيا، وتتخلّص من

توجُّهها النووي. وقد صرّح القائد قائلاً:

– طُزّ في الاسلحة النووية، وفي من يسعى إليها، وحاشا من يمتلكها.

وركّزت الوكالة على هذه الجملة الاخيرة. حتى انّها وضعتها عنوانًا لبرقيّتها.

– سيّداتي سادتي، حضرات المشاهدين الكرام. العفو. إنّها زلّةُ لسان، ليسَ إلاّ. حضرات المستمعين والمستمعات. سنتّصل الآن بمراسلينا في أوروبا وامريكا، وبعدها نعود لنعرف أحوال بعض البلدان العربية التي لم نتمكّن من الاتّصال بها، مثل السودان واليمن والعراق، لسبب او لآخر، ففي هذا الظلام الدامس، نعم الدامس، وأشدّدُ على هذه العبارة، فهي الأبلغ بالنّسبة للحالة.

– مراسلنا من واشنطن، عبد الرحيم فقراء، مساء الخير.

– صباح الخير بالاصح. فالوقت هنا غير الوقت عندكم.

– ماذا عندكم؟

– لقد أعلنت حالة الطوارئ القُصوى. جميع المسؤولين في مواقعهم، والفضاء الأمريكي مُغطّى بمختلف الطائرات، والصواريخ الجوية والارضيّة والبحريّة، على أهبّة الانطلاق، والأقمار الفضائيّة جميعها، منصبّة على المنطقة العربيّة والإسلامية. فامريكا، وعلى لسان رئيسها المؤمن جورج بوش الابن، وإن كانت تؤمن بعفاريت سيّدنا سليمان، وتثق الثقة المطلقة في العلاّمة الإسرائيلي «ضرططوخ»، لا يقابلها في هذه اللحظات، إلاّ الإرهاب الإسلامي، وشخص «بلادن» بالذّات، ولقد جاء على لسان مستشارة الامن القومي، أن امريكا لم تكن مخطئةً، عندما غزت العراق، فهي تثق في المعلومات التي بين يديها عن أسلحة الدمار الشّامل التي أعدّها صدام حسين. من بين المعلومات الأخيرة، التي تواجدت في ليبيا والجزائر، أن صدام حسين استورد، من شمال إفريقيا، كمّيات معتبرة من البلُّوط، خصّ بها عدّة فيالق، من ميليشيات حزب «البعث» العربي. وأوضحت التحليلات التي أجراها الخبراء، في أمريكا وفي إسرائيل، أن البلّوط، إذا ما استُهلك بكمّيات ووصفات معيّنة، ينتج عنه نوع من الغاز الملوّن، يدمّر الحياة، بشكل واسع، وشامل، ويظهر ان مفعول البلُّوط، استعمله انصار صدّام، وجماعة «القاعدة»، بعد يأسهم من الانتصار على الحلفاء، وعلى الديموقراطية في العراق، وفي افغانستان، وباكستان، ومصر.

وطمانت مستشارة الأمن القومي المواطنين الامريكيين على مصير أبنائهم في العراق والكويت وقطر والسعودية، قائلةً إن الاوامر صدرت إليهم بالانبطاح على بطونهم، والتزام الصّمت، في جميع الاحوال، ومهما كان الامر، وأن لا يتناولوا طعامًا أو شرابًا، حتى يتبيّن

الأمر. كما طمأنت القادة العرب، ومن ورائهم الشعوب العربيّة، بأن الولايات المتحدة الأمريكية، ما تزال متعلّقة بخارطة الطريق، وبمسار العملية السلمية، في الشرق الأوسط، وانها ستُطلعهم على نتائج التحليلات الجارية.

– عبد الرحيم فقراء، هل ظهرت صور الحالة في التلفزات الامريكية، وكيف ظهرت؟

– نعم. شاهدنا كتلة ضخمة من السواد الجامد، وهذا الوصف جاء على لسان مُعلّق «السبنان» المختص، وبدت الكُتلة في أبعادها الثلاثة، مرّة، في شكل جلد بعير، ومرّة في شكل شكوة أو قربة، ومرّة في شكل حبّة بلّوط كبيرة. وما حيّر العلماء والسياسيين، والاستراتيجيين العسكريين، هو هذه الدقّة في تحديد خارطة العالم العربي، وهذه الثّقوب التي تظهر في إسرائيل وفي السودان وشمال العراق.

ولقد أعاد الصحفي صوراً قديمة، عن حدود ٤٨ بين العرب واليهود، فوجدها مطابقةً تماماً لمسار الكتلة الغازية السوداء. عبارة «الغازية»، وردت على لسان الصحفي، الذي علّق بعد المقارنة بين الخريطتين، بأن هذه الدقّة، لا يمكن أن يتوصّل إليها إلا عُلماء «القاعدة»، المنتشرون في امريكا وأوروبا، وأستراليا ايضاً. لقد اخذوا عنّا التكنولوجيا، ليستعملوها ضدّنا، ولو اننا استمعنا إلى نصائح الاستراتيجيين الإسرائيليين، في الوقت المناسب، لتفادينا، كل هذه الأخطار.

– عبد الرحيم. هذا كلام، فهل هناك من إجراءات غير إجراء إعلان حالة الطوارئ؟

– نعم. ولو انّها، هذه الإجراءات، تدخل كلّها في إطار حالة الطوارئ.

– مثل ماذا؟

– تشمل حالة الطوارئ إغلاق الحدود الأمريكية، ضدّ كل عربي، أو قادم من المنطقة العربيّة، واعتبار المنطقة العربيّة والإسلاميّة منطقة موبوءة يتوجب عزلها نهائيّاً، إلى أن تتأكّد الوضعيّة الصّحيّة في المنطقة، وما جاورها. وأيضاً فرض إقامة جبريّة مشدّدة على كل من هو من أصل عربيّ أو إسلاميّ، يعيش في امريكا. وهناك إشارة، غير واضحة، إلى إمكانية إقامة مراكز تجميع وحشد لهم، لإجراء التّحقيقات والفحوصات الدّقيقة والنّهائية.

– نتركك الآن، فمراسلنا في أوروبا، في الانتظار.

– انتظر قليلاً، فقد جاء في الأخبار الآن، أن سعر البترول، بلغ الألف دولار للبرميل الواحد، وأن الحكومة الامريكية، اعلنت انها ستحمي الدولار من الانهيار الذي يتهدّده.

– السيد فقراء، ماذا عن الاتّهامات التي يوجّهها الشّارع العربيّ لامريكا، بانها تجرّب سلاحًا استراتيجيًا جديداً، ترسله بواسطة أقمارها الفضائيّة، وأن جنودها يضعون على أعينهم نظارات تُمكّنهم من الرؤية، وأن الهدف الأساسيّ لامريكا وإسرائيل، هو إعادة ما

حدث للهنود الحمر بامريكا، لكن بشكل جذريٍّ، ومتحضِّرٍ؟

– نعم. لقد أشارت المستشارة إلى ما جاء في تقرير الدكتور حنزليقة، الوارد في النشرة الاستثنائية، لجريدة «معريف»، وقالت بالحرف الواحد، بأنه تخريف عربي. وأشير هنا، إلى أن السيّدة المستشارة، لم تعد تُخفي استخفافها بالعرب، وعدوانيّتها ضدّهم، كلما ذكرتهم أو تعرّضتُ لشؤونهم.

– مراسلنا عبد الرحيم، ماذا عن الرئيس ونوابه؟

– لا ننسَ أن الولايات المتحدة الامريكية في حالة قصوى من الطوارئ، وفي مثل هذه الحالات، يكون رمز السيادة في مكان ووضع آمنين جداً جداً. الجميع يذكر أن الرئيس في أثناء حادث ١١ سبتمبر، كان متخفيًا.

– ننتقل الآن، سيّداتي سادتي، إلى مراسلينا في بلجيكا وألمانيا وباريس وروما، وهذا مراسلنا ببروكسل، إليك الخط. تفضّل.

– ما أن عُلمت النكبة الإنسانية العظمى في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، حتى تنادى أعضاء جميع هيئات الوحدة الأوروبية، وكذلك قيادة الحلف الأطلسي، التي استغرقت مباشرة في اجتماع سرّيٍّ، ننتظر أن تصدر عنه مقرّرات هامّة. سيكون أوّلها، وأهمّها دون شكٍّ أو ريْب، استنفار كل وحدات الحلف، البرّية والجوّيّة، والبحريّة، والسماويّة، يليها تشكيل خلايا بحث ورصد للظاهرة، تعمل قدر الإمكان بالتعاون مع الجيوش الصديقة للحلف، مثل الجزائر وإسرائيل ومصر.

– وماذا عن البرلمان الأوروبي، ومؤسسات الوحدة الأوروبية؟

– علمنا، أن أوروبا كلها، سواء على مستوى الحكومات منفردة، أو على مستوى هيئات الوحدة – وإن لم تُعلن ذلك في حالة من الاستنفار والحيطة، فقد أغلقت جميع المطارات، في وجه الطيران القادم من آسيا وإفريقيا، بما في ذلك الطائرات الأوروبية العائدة، وضرب حصار شبه مقنّع، على كل المساجد ومؤسّسات العبادة الإسلاميّة، وقد أصدرت معظم الصُّحف الكُبرى نشرات، خاصّةً، تضمّنت آراء وتفسيرات العلماء والباحثين، ورجال الدّين، والسّحرة. وقد سخرت معظم الآراء بمقولات السّاحر اليهودي «ضرطوطوخ»، ووجدت فيها صهينة للظاهرة، التي لم تتردّد معظم الصحف بنعتها بالكارثة الإنسانيّة، في حين رَكّزَت على وُجهة نظر الدّكتور حنزليقة، رغم بعض ما فيها من أحكام مُسْبَقة ضدّ الغرب والمسيحيّة ومعاداة السّاميّة، كما قالت، مؤكدةً أنّ الجيش الأمريكيّ في الشّرق الأوسط لا يمكنه أن يحافظ أكثر على انضباطه وهدوء أعصابه، وما حدث في سجن «أبو غريب»، لخير دليل، على إمكانيّة فلتان انضباطي، قد يؤدي إلى كارثة إنسانية، وقد يصل

حدّ انفصال قيادات هذا الجيش، عن الوطن الأم، وإنشاء وطن آخر، يتّخذ شكلاً لا أحد يمكنه أن يتنبّأ به، بعد أن ينقرض سكّانه الأصليّون.

إن الأمريكيّ مثل العربيّ، وطنه، حيث تطأ قدمه، وإذا كان العربيّ تجرّه نعجته، أو ناقته، وأنغام المزمار السّاحرة، فإنّ الأمريكي تقوده بندقيّته وهامات قتلاه.

وأشارت صحيفة محترمة ومكروهة لدى اللوبي اليهودي، إلى أن هروب شارون والقيادة الإسرائيلية من «بيت المقدس»، وعدم صدور أيّ تصريح من شارون، حتّى الآن، وهو الذي يحلو له التبجّح، بالإضافة إلى ترّهات «ضرططوح» هذا، لَمثير للشّكوك، وملفت للنّظر، بل ومُدعّمٌ لرأي الباحث العربي الدكتور حنزليقة.

– سيّداتي سادتي، نتوقّف الآن عن متابعة مراسلنا ببروكسل، لنقدم لكم رأيًا مُهمًّا أبداه أحد أبطال العبور المصري، حيث قال لفضائيّة شقيقة بواسطة الحلوي طبعًا، إن الظاهرة تسبّب فيها ضبّاط روس من أنصار العهد السوفييتي البائد، انتقامًا من العرب الذين –كما قال– هم المُتسبّبُ الرئيس في سقوط الاتحاد السوفييتي العتيد. امتصّوه ما يزيد عن نصف قرن، ثم تحالفوا مع عدوّهم –الامريكان– لإسقاطه. وإن حجم الكارثة، بأي حال من الأحوال، يتعدّى العالم العربي، ولربما يُحطّم الحضارة الحالية برمّتها.

لقد كان ممكنًا، قال بطل العبور هذا، أن يكون غبار السّواد أحمر، لكن تجنّبًا للشّبهات، جعلوه أسود فاحمًا. ولتجاوز الحالة ينبغي الإكثار من الصّلاة والدّعاء، والتّقليل من الحركة، وتجنُّب الانفعال السياسيّ، والبصل، فمن الممكن أن تكون كمّيات الأكسجين تتناقص شيئًا فشيئًا.

– أعود إلى مراسلينا بأوروبا، وهذه مراسلة من روما.

– نعم. لقد انساق الفاتيكان وراء الرأي القائل بأن قيام الساعة، قد حلّ، وأنه، ليس شرطًا أن تأتي الساعة، كما جاءت في «الكتاب المقدّس»، فالله وحده صاحب القرار، وهو يتّخذه متى بدا له، وكما يبدو له. إن الكون كالجسد البشري، يبدؤه الموت من الأسفل، وها قد بدأ قيام الساعة من العالم العربي. كما بدأت أيضًا الرسالات السّماوية من هنالك.

إن روما، سيّداتي سادتي، غارقة في صلاة جنائزيّة حزينة ومُؤثّرة، إلى حدّ أن المرء يكاد يتصوّر نفسه، يعبر الصراط المستقيم، أو يطل على المعذّبين في جهنم.

الأصوات الرجاليّة الغليظة تختلط مع الأصوات النسائيّة الرّقيقة، مع الأصوات الصبيانيّة اللطيفة، وتتمدّد كما لو أنها تُحاول أن تطال بُعدًا ما، فيحدث عنها ما يُشبه وجعًا وحزًا في القلب والروح.

– لقد أسهبت في وصف الصلاة، فهل هناك غير ذلك؟

– نعم. أعلنت الحكومة الإيطالية، أنها ستسحب جنودها من العراق حال انقشاع الغمامة السوداء، وأنها تلقّت اتصالاً لاسلكيًا، يعلمها، بأن الوحدة بخير، وأن أعضاءها يطلبون من البابا أن يُصلّي من أجلهم، ومن أجل عودتهم سالمين. وفي بيان بثّته التلفزة الإيطالية، قال الحزب الشيوعي الإيطالي إنه لا يستبعد فرضيّات الدكتور حنزليقة، كما لا يستبعد، أن تخلق في الشّرق الأوسط والأقصى، أمريكا شرقية. فما دامت الأوطان تكتسب بدون تاريخ، وبدون ماضٍ إنسانيٌ سادت فيه العبقريّة، وساد فيها حبُّ الخير والجمال، ما يمنع، أن يتظاهر الجيش الأمريكي في الشّرق الأوسط بالتمرُّد، فترة، ثم يعلن عن عدّة ولايات تُضافُ نجمات إلى العلم الحالي؟

لقد نسي الناس غضبهم الذي أحدثته فاجعة هيروشيما، ولم يطالب أحد، باعتبارِ مَن أمر بها مجرمًا في حقّ الإنسانية.

إنّ الحزب الشيوعي الإيطالي، ومن ورائه كل الطبقة العاملة الإيطالية، يهيب بالضمير العالمي أن يتصدّى للوحش الأمريكي المسعور.

ولكن صدر فيما بعد بيانان، واحد يكذّب بيان الحزب الشيوعي الإيطالي، والثاني يُعلن أن البيان لتنظيم سرّي إيطالي عالمي، له ارتباطات بأصحاب الأموال والسلطان في الشّرق الأوسط وفي الخليج بالذات، يُحذّر الولايات المتحدة الأمريكية، من مغبّة المساس بمصالح الإنسانية في المنطقة، ويذكّر بأن كنيدي، تجاوز الخط الأحمر في اللّعب بالحرب.

– هذا تهديد واضح للرئيس الأمريكي! هل لديك معلومات أكثر عن هذا التنظيم؟

– ليس المافيا بالذات، وليس أيضًا، الماسونية، ولو أنه يتداخل معهما في بعض الشبكات، وله تواجد في كل تنظيم سري أو علني، سياسي أو اجتماعي، مدني أو عسكري، ليس صهيونية، إطلاقًا، وإن كان يوجّه من بعيد أو من قريب نشاط اليهود، غير السياسي، طبعًا عبر العالم، وعبر المؤسسات المالية الكبرى. وهذا ما يُفرّق بينه وبين الصهيونية.

– هل لديك ما تريده؟

– كلاّ في الوقت الحالي.

– هذا مراسلنا من بروكسل يُلحُّ في الاتّصال بنا. ما هو الجديد؟

– الجديد، مثيرٌ حقًا. غريبٌ ومثيرٌ.

– ما هو، فقد شوّقتنا.

– قرّر قادة الحلف الأطلسي، بإجماع أعضائه، باستثناء ممثّل الولايات المتّحدة الأمريكية، قرّروا تجميد عضوية أمريكا، وفرض الرقابة على أنشطة كل وحداتها المتواجدة خارج القارة الأمريكيّة. والتعرّف عن كثب على طبيعة الأسلحة المخزّنة في القواعد الأمريكية بأوروبا، أو القريبة منها. حتى تتبيّن نتائج التحاليل الجارية على الغيمة السوداء المسلّطة على المناطق الحيوية، بالنّسبة للحضارة وللتقدّم الإنساني.

لقد قال ممثّل ألمانيا، مساندًا الموقف الفرنسي، إمّا أن يكون الحلف الأطلسي أو لا يكون. ورغم بعض المحاولات الأمريكية لاستدراج الدول حديثة الانضمام، من منظومة حلف وارسو سابقًا، للوقوف معها، إلا أنه، وكما قلت، القرار، اتُّخِذَ بالإجماع.

تفوّه صحفيٌّ غربيٌّ، كان إلى جانبي، ظنًّا منه أنني لا أفهم اللغة الفلامية، بكلمات، لم أستوعب المقصود منها بالضبط في الأوّل. قال، تحرّكت الآلة الإيطالية. كنتُ اعتقدتُ، أنه يقصد المافيا، إلا أنني فيما بعد استبعدت ذلك، فطريقة حديثه تدل على أنه خائف وحذر جدًا، والصحفيون الغربيون عادة والمثقفون بصفة عامّة، لا يظهرون مثل هذا القدر من الرُّعب إلا من تهمة معاداة السّامية.

– وهل صدر بلاغ بالشأن؟

– كلاّ. كل ما هنالك، جملتان تفوّه بهما الأمين العام للحلف، الأولى هي ما ذكرته من تجميد العضويّة لعنصر أساسي في الحلف، بترساناته، وبأساطيله، وأدوات اتصالاته الخطيرة، أمّا الثّانية، أعني الجملة، فهي:

– من يقوى على شراء برميل البترول بألف دولار، إلاّ إذا كان الدولار يساوي ليرة إيطالية؟

حاول أحد الزّملاء، من محطة أمريكية، أن يستفسر عمّا إذا كان هذا القرار، بدايةً لحرب باردة أو حتّى ساخنة بين أعضاء الحلف الأطلسي، فاكتفى الأمين العام بالابتسام والقول: ماذا لو تسأل الطرف الآخر عمّا يفعل في آسيا؟

– أيّها السادة والسيّدات، مراسلنا بباريس، في الخط.

– شوارع باريس وساحاتها الكبرى تغصُّ بجماهير غفيرة، تحمل العلم الفرنسي، إلى جانب أعلام الدول الأوروبية الأخرى، وبعض أعلام حمراء بها مطرقة ومنجل، وبعض أعلام جزائرية، طاشت هنا وهنالك. إلى جانب لافتات تحمل عباراتٍ معادية لأمريكا، ومندّدة بالحرب في الشرق الأوسط، وبالأسلحة الفتّاكة التي ما تفتأ الدول الكبرى تتنوّع فيها وتمنع غيرها من امتلاكها أو حتّى التفكير فيها، وتُطيح بدول قائمة، عضو في جميع هيئات الأمم



المتّحدة، بسببها. كما أن هناك رسومًا كاريكاتورية، تُظهر الرئيس الامريكي، فأرًا يقرض ورقة من فئة الألف دولار. أو تُظهره وهو يقاد إلى سجن أبو غريب بالعراق منزوع السروال، وفي غمرة كل هذه اللافتات والملصقات، تظهر صور الجنرال شارل ديجول، في مختلف هيئاته العسكرية، وأعماره، تملأ الساحات والواجهات، والشرفات أيضًا.

سيّداتي سادتي. إن المرء ليتساءل، أين كانت الروح الوطنيّة الفرنسيّة مخبّأة، في ظل كل مظاهر هذه العولمة، والقول بزوال عهد الدولة الوطنيّة؟

هذه الجماهير كأنّما كانت على موعد، مع بعضها، فما أن أعلن عن قبول المقترح الفرنسي، لإخراج أمريكا من الحلف، حتى هبّت تُعلن عن فرحتها، وعن تشفّيها، وعن تنديدها بالإمبريالية والاستعمار الجديد والقديم، وتُدين الأساليب النازيّة المتّبعة في التعامل مع العرب في الشرق الأوسط.

غريبٌ أمر هؤلاء الأوروبيين، فمهما كانت أمميتهم، ومهما بدا من أوروبيّتهم، ومهما غيّروا من تسميات وأشكال عملاتهم ونقودهم، فإنهم يظلّون يحملون في جعابهم وطنيتهم الحادّة، يمتّون بها لحمتهم، ويؤكّدون هويتهم. هذه الهويّة التي نسخر نحن منها، محاولين، قدر الإمكان، التخلّي عنها والتمظهر بهويات سادتنا المستعمرين.

– نعود إليك فيما بعد، يا عبد الرحيم، ونتركك في خضم الحماس وسط المتظاهرين، وننتقل إلى مراسلنا في برلين.

– أهلاً بكم. فهنا، لا جديد، عمّا برز في العواصم الأوروبية الأخرى. ولو أن الحكومة الفيدرالية، أعلنت وقف التعامل بغير الأورو.

– نفهم من ذلك أن الدولار...

– نعم. الدولار لم يعد عملة قابلة للتداول في ألمانيا، على الأقل، كما فهمنا. أما الصُّحف الألمانية، وباقي وسائل الإعلام الأخرى، فقد اكتفت بإعلان الظاهرة مع صورها، ومختلف الآراء حولها، ومختلف المواقف الناجمة عنها. وأشارت الصحيفة الحكومية، في آخر المقال الافتتاحي لها، إلى أن الولايات المتّحدة الامريكية، تُخطئ إذ تفكّر في مستقبل البشرية، دون وضع حساب للعملاق الأصفر، كعامل أساسي في كل معادلة. فنحن كلّنا جئنا من هنالك. إن الحضارة، أضافت الصحيفة، لا يصنعها البترول وحده، ولا البندقيّة وحدها.

تعلمون أن الشعب الألماني يُخفي أشياء كثيرة في صدره، وهو إذا كشف عن نواياه العميقة، فإنّما بالأفعال، وليس بالأقوال، ويكفي أنه شعب جوته، وكارل ماركس،

وموزارت، وهيجل.

قد يسمعك الألماني يومًا كاملاً، تشتم هتلر، ولكن في إشارة قصيرة، ولمّاحة، يُفهمك ان الأخطاء من خصائص البشر، وان الأفلام الأمريكية، خاصّة عن الألمان، مُضحكة.

قيل لي إن احد الكتاب العرب، تساءل وهو يرى جدار برلين يُقسم بين أفراد الشعب الواحد: هل هناك، كما هو الأمر عندنا، حزب «بعث» عربي ألماني، فأجابه ألماني كان معه، يعرف الكثير عن أحوال العرب، وتاريخهم، بأنّه لا يوجد سوى ألمان وراء الجدار، وسيلتقون، دون حزب. فأضاف الكاتب العربي ساخرًا: وهل ستتوحّدون بدون شعر وبكاء، وعفلق ومطاع صفدي؟

والغريب في الأمر انه لم تمرّ على الواقعة سنة كاملة، حتى كانت برلين موحّدة، وحتى كان الجدار يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى سلّة الذكريات السيّئة في تاريخ، ليس الشعب الألماني وحده، ولكن في تاريخ الإنسانيّة.

– ذكّرتني بجدار العار الذي يبنيه شارون، والذي لا يفصل فقط بين مدينة واحدة، وإنّما يفصل بين وطن برمّته، بمختلف مدنه وقراه، بين شجرتي الضيعة الواحدة، وبدل أن يموت دونه، أعضاء السلطة، راحوا يجلبون له الإسمنت من مصر.

لله في خلقه شؤون.

اتركك، واترك معك الألمان وبرلين، فقد كدت تُنسيني الهمّ الذي نحن فيه.

هذه تنسي في تلك. سيّداتي سادتي. اعودُ بكم إلى عالمنا العربي الذي يحيا من محيطه إلى خليجه، في قربة من ظلام دامس، حسب وصف الأقمار الصناعية، ومعي من صنعاء مراسلنا. ماذا عندكم؟

– عندنا الظُّلمة الحالكة.

– صف لنا الحالة يا فقراء.

– والله، ليس هناك حالة استثنائية، فكل واحد، انبطح قرب كومة أو شجرة القات، وأغمض عينيه، وراح يعلف.

– أليس هناك ضحايا، ألم يصطدم الناس ببعضهم؟ ألم يتشاجروا على الحساب وهم يتبادلون النقود والقات؟

– بلى. حدث كل ذلك، ولكن الناس لم يولوه أهميّة كُبرى، فقد كانوا على عجلة من امرهم لاستباق الظُّلمة.

– فهل قيل شيء بخصوص هذه الظُّلمة كما تسمّيها؟!

– نعم، قيل بعض الشيء. الحكومة، قالت إنّه الإرهاب، والمعارضة قالت إنّهم الامريكان، والشعب قال ما قاله الأئمّة. يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل. سبحانه جلَّ وَعلاَ.

ربّما. ربّما. سيتساءَل الناس هنا عندما يستيقظون، عما إذا كانت الحالة ستطول، لأن الوصول معها إلى شجر القات، لقطفه طريًا منتعشًا، سيكون عسيرًا، إن لم يكن مستحيلاً.

– وهل بلغكم ما يجري في العالم؟

– علمنا ان سعر البترول في الاسواق الامريكية بلغ ألف دولار، «وأمّا بنعمة ربّك فحدّث».

– كان الله في عون الشعب اليمني.

أيها السّادة والسيّدات، نعود إلى العراق، فعلى ما يبدو فإن بعثتنا تمكّنت من تشغيل المولّد الكهربائي الذي هاجمته عصابة مجهولة الهويّة، وكادت تختطفه وتستولي عليه.

– نعم، ولولا يقظة حراسنا، لأضيف إلى ظلمتنا الضوئية، ظلمة صوتية.

تجري، هنا في بغداد، وفي باقي المدن العراقيّة، أمور عجيبة وغريبة. أوّلها ان ثمن القط الواحد، خاصة إذا كان أسودًا، بلغ الخمسمئة دولار. ذلك ان أعين القطط تخترق جزئيّات السواد المتكتّل، فتُحدث فيها فجوة مستنيرة، عرضها، حسب سن القط، ولونه، من عشرين إلى ثلاثين سنتمترًا، وطوله قد يصل المتر.

لقد شاع بين الناس، ان مكتشف هذه الخاصيّة للقطط، هو الرئيس المخلوع، السيّد صدام حسين، فقد كان في سجنه يربّي قطة فارسيّة، وفي الحق، القطّة كانت من محتويات قصره ايام عزّه، ظلّت تبحث عنه وتتبعه، إلى ان عثرت عليه، فظلّت تموء بينما هو يبكي، ويقول فيها ما قال أبو فراس الحمداني في الحمامة جارته.

لاحظ السيد الرئيس ذلك، وكان ساعتها في الباحة وغير مغلول بالأصفاد، فبادر بالتقدّم خطوة فخطوة نحو المخارج العديدة. وكما هو معلوم، فإن أبا عدي، يُحسن الهروب والتخفّي والتمويه، إلى ان بلغ الباب. التفت إلى العلوج الأمريكان، وكانوا في حيص بيص من أمرهم، كما يقال.

ظنّ في الأوّل، ان الامر خدعة، ولكن عندما لاحظ ان أمرًا صارمًا صدر بالانبطاح وعدم الاستجابة لأيّة حركة خارجيّة، حتى تتجدّد الأوامر، قصد ضابطًا منبطحًا، عرّاه، وارتدى

ثيابه، ويقال، إنه فعل فيه الإرادة، أو على الأقلّ حاول ذلك. انطلق السيد الرئيس كالبرق، يستنير طريقه بقطّته الوفيّة، التي كانت تسبقه، وكأنّما تدرّبت على العمليّة قبل اليوم.

اختفى من جديد، أبو عديّ. لكن أخباره عمّت العراق في سرعة عجيبة، ليتفرّغ الناس إلى البحث عن القطط، ومعلوم أن العرب عمومًا في المشرق العربي، يستنكفون من معاشرة الحيوانات الأليفة، مثل الكلب والقط. وهذا نتيجة ثقافة، نمت على مرّ العصور. فالكلب عندنا إذا ولغ في إناء، غُسل ذلكم الإناء سبع مرات. بينما ينام الكلب أو القط في فراش واحد مع صاحبه أو صاحبته عند الأوروبيين، ويأكل كثير من الآسيويين الكلاب والقطط.

قلت إن العراقي الذي كان يتقزّز إذا لمس قطًا أو كلبًا، صار يشتريه بمئات الدولارات، ويحتضنه، مستعملاً إيّاه، مصباحًا كشّافًا.

والمعجزة في نور القطط، أنه لا يبصره إلاّ حامله.

– ألم يتفطّن الامريكان والحلفاء إلى الامر؟

– بلى، وقد صار الشُّغل الشاغل لكل علج، شراء قط. ولقد بلغ سعر القطّ الواحد مقايضة عشرين رشاشًا، أو مدفعًا، أو حتى صاروخ أرض–جوّ، إذا كان القطّ أسود وغير عدواني، إذ يمكن القول إن قطط العراق متوحّشة بشكل أو بآخر. وكثير منها يستعصي غسله وتنقيته من الطّفيليات، خاصة البراغيث.

إن العراق يعيش حاليًا لحظات تآخٍ وتآلف عجيب، بين جنود الاحتلال، وبين العراقيين، وبين هؤلاء جميعًا وبين القطط.

– فيم يستعمل الامريكان هذه القطط؟

– على ما يبدو، والله أعلم، يستعملونها في تفتيش جراب بعضهم، بحثًا عمّا قد يليق للتخدّر. وسرقة لما قد يكون هناك من أشياء ثمينة، مثل الحلي، والتُّحف المسروقة من الشعب العراقي في أثناء المداهمات. والبعض الآخر، استعمل هذه القطط للهروب من الوحدات. وقد تشكّلت فرق من العراقيين، والعلوج الأمريكان، للتهريب نحو دول الجوار.

– كيف ذلك؟

– هناك سلسلة من خلايا التهريب تقوم على كامل الطريق نحو تركيا مثلاً، وهي الاتجاه الأمثل بالنّسبة للفارّين.

– هكذا، بمثل هذه السرعة، وفي عمق هذا الظلام الدامس، ترتّبت الأمور؟

– نعم. ولقد اتخذت المقاومة شكلاً جديدًا، يهدف إلى ضرب الجيش الأمريكي، من داخله، وتحطيم ما يبدو من انضباط خارجي. فتهريب جندي، يقولون، خير من قتله، لأن

ذلك سيساعد على خلق رأي عام داخل معسكر العدو، يرفض البقاء في العراق، ويُندِّد بالحرب، حال خروجه منها، وأكثر من ذلك، العملية تخلق إحراجًا كبيرًا للقيادات الأمريكية.

– إنها فلسفة، على كل حال. ما هي أخبار مجلس الحكم؟

– عاديّة. لم يعودوا يخافون، وقد شوهد أحدهم في الشارع يحمل قطّة، يقال إنه اشتراها بـ« مرسيدس » مدرعة هي مُلك للمجلس.

– وأخبار صدام حسين؟

– لم يعد أحد يذكرها أو يذكره، إلاّ في حالة الحديث عن القطط، ولو أن أحد الذين يبدو عليهم أنه من بقايا البعثيين، حاول إيهام الناس بأن هذه الظُّلمة هي نتيجة لسلاح فتّاك، أُنتج من كمّيات البلُّوط المستوردة من غابات الأطلس الشامخ. ولما رُدَّ عليه بأنّ الظاهرة تعمُّ كل العالم العربي، ادّعى أن ذلك مخطط له أيضًا. فالقادة الكلاب عملاء الأمريكان والصهاينة، صدُّوا الثورة العربية بقمع الجماهير الشعبية. وهم لا يستحقُّون سوى العماء.

– وكيف يتصوَّر الناس مستقبل العراق، في ظل هذه الحالة؟

– إن شئتَ الحقّ، فإن هذه الظلمة، فتحت أفقًا جديدًا أمام العراقيين، فبدل أن يُقتلوا ويموتوا، يخرجون الأمريكان هكذا فردًا فردًا، وحتى جماعات. فقد بلغني، قبل قليل، أن ضابطًا برتبة نقيب، خرج، هو وفرقته، في اتّجاه الحدود التُّركية مستعينًا بالقطط وبحلقات التهريب. وإذا تواصلت الحال على ما هي عليه، فإن بغداد تفرغ في ظرف يومين أو ثلاثة من الجنود الأمريكيين.

أمّا الرئيس السابق، إذا ما ظهر من جديد، فسيبادر الناس لقتل قطّته، ومطالبته بالانتحار، تكفيرًا عن جميع آثام العراقيين، سُنّة وشيعة، مسلمين ومسيحيين وصابئة، عربًا وأكرادًا. وتكفيرًا عن جرمه، بعدم الانتحار في الإبان، في أثناء الخروج من الكويت، وتوقيعه على اتفاقيات الهزيمة والذلّ والعار.

– نترك العراق الشقيق في شأنه، والذي، لا شكّ، أن الإخوة العرب أينما كانوا سيستفيدون من تجربة القطط الرائعة هذه، والتي لم تقلب فقط موازين الحرب وإنّما انتصرت على هذه المصيبة التي الـمّت بنا جميعًا.

– عبد الرحيم فقراء في دمشق إليك الخط الآن. ماذا يجري في عاصمة الأمويين؟

– الأمور مستقرّة، وقد صدر قبل قليل عن قيادة حزب «البعث» العربي السوري، بيان يؤكّد صدق شعار الحزب: «أمّة واحدة ذات رسالة خالدة».

إن الأمّة في السرّاء والضرّاء، لها نفس المميّزات والخصوصيات. وقد حباها الله تعالى، بما فيه خير البشرية. وسوريا تتشبّث بخيار السلام وباراضيها المحتلّة.

– ثمّ ماذا في مسألة القطط والظلمة؟

– أوامر القيادة صارمة. لا أحد يتحرّك من مكانه، فلا شكّ أن العدو يتربّص بالأمّة.

– وكيف يتحرّك القادة على الاقل؟

– تعلمون أن سوريا، بفضل قيادتها الرشيدة، ذات النظرة المستقبلية، لا يوجد فيها أعمى واحد، ولا قطّ واحد في الشارع. إن صحّة المواطن هي من أولويات حزب «البعث العربي الاشتراكي السوري».

– ما كان مصير العمي والقطط؟

– بالنّسبة للقطط، أقيمت لها مقاطط خاصة تُربّى فيها، ويستعملون هنا عبارة: تقطيطها، فالسّوريون، كما هو معروف، بارعون في اشتقاق المفردات ونحتها، ويعتبرون ذلك مهمّة قوميّة. هذه القطط، تسمّن وتُصدّر إلى الصين الشعبية، والفيتنام، وكل تلكم المنطقة. وقد علمنا أن القطط العربية السوريّة، لها حظوة كبرى في المطبخ الصيني.

– ما شاء الله! وبالنسبة للعميان؟

– نعتذر، سيّداتي سادتي، عن انقطاع الخط من دمشق، ويبدو أن المسألة تتعلّق بالتيار الكهربائي. فكما هو معلوم فإن أزمة التموين بالكهرباء لم تُحلّ بعد، وهي من أشدّ انشغالات السيّد الرئيس.

اغتنم الفرصة، لأقدّم لكم خلاصة ما وافانا به مراسلونا من بقيّة أنحاء الوطن الكبير.

فكرة القطط هذه، لم تفلح إلاّ في قُطرين، هما العراق والسّودان، وقد برّر بعض العلماء الظاهرة، بأن القطط هذه، ربما تكون تغذّت من لحم الإنسان، ولربّما تعرّضت لإشعاعات كيميائية، غير معروفة.

تبقى، إذن، الآمال معلّقة على العمي، الذين نشطوا، والذين أضحوا خطرًا لا يُستهان به في بعض البلدان، مثل مصر والجزائر. مصر، كما قال مراسلنا، اعترتها الحالة، والحديث عن ضرورة التغيّر يرد بإلحاح. أما في الجزائر، فيقال إن زيارة وزيرة الدفاع الفرنسية الأخيرة، ترتّبت عنها زعزعة في قيادات جيشها، التي تمكّنت، أو تكاد، من تصفية المعارضة الإسلامية، والتيار العروبي، عمومًا.

والعمي، أيُّها السادة والسيِّدات، عوّضهم المولى عزّ وجل، عن أبصارهم، بالبصيرة الحادة، وصدق الله العظيم، إذ يقول: «لا تعمى الابصار، ولكن تعمى القلوب»، وهم شديدو الذكاء بالغو الحيلة والمكر، وقد تناولهم العلاّمة العربي الجاحظ برسالة خاصة. ويكفي أن نذكر من جهابذتهم أبو العلاء المعري، وبشار بن برد، والشاعر اليماني الكبير المرحوم عبد الله البردوني، وطه حسين، وكشك، وصاحب المخصص، ابن سيدة الأندلسي، والشيخ إمام، المغني الملتزم الذي زعزع حكم السادات، والشيخ السعودي بن باز، وأخيراً وليس آخراً الشيخ عمر عبد الرحمن، رهين المحبس الامريكي، وغيرهم كثيرون.

يقول مراسلانا من مصر والجزائر، إنّ هذين البلدين، خاصة الجزائر، لهما تجربة كبيرة في حركات المكفوفين، فتنظيماتهم قوية، تنبثّ على كامل المناطق، وما من كفيف جزائري، إلاّ ويحمل بطاقة المنظمة...

يُجمع مراسلونا، من مختلف الاقطار، على ان نوعًا من النُّعاس الشبيه بالتبلُّد يُسيطر على الناس، فيجعلهم في حالة استسلام غريب للامر الواقع.

أُضيف سيِّداتي سادتي، اننا نحن ايضًا هنا في الأستوديو، نشعر بذلك، حتى انني شخصيًا، أروح احيانًا كثيرةً، ناسيًا الظُلمة ابحثُ عن متكئ أو مستند. أُضيف ايضًا، ان مراسلنا بالعراق لم يشر إلى ظاهرة التبلُّد هذه لا عند العراقيين، ولا عند قوات الاحتلال. وحسب ما لاحظت شخصيًا، فإن التبلُّد، واستسمحكم باستعمال عبارة التبلُّد، «فـ كلُّنا في الهوى سواء» كما يُقال. قلت إن التبلُّد هذا، يسري بالتدرُّج، وكما لو انه نتيجة تعاطي مخدر ما. وهو – حسب حالتي الشخصية، وحالة الفريق المجند معي منذ عشر ساعات الآن – ينزلُ من فوق إلى اسفل، من الرّأس إلى الأخمص.

وأخشى ما يمكن ان نخشاه جميعًا، هو ان نُصاب في أيّة لحظة بالانهيار، ربّما نستيقظ بعده، وربّما ندخل في حالة غيبوبة لا يعلم مداها إلا الله. وقد ذكر مراسلنا في الأرض المحتلة، ان الدكتور الباحث حنزليقة، نشر في «معريف» ايضًا، ما يُبرِّر هذه التخوُّفات، بل لقد ذهب الدكتور حنزليقة، إلى ما هو ابعد، إذ ركَّز على التبخُّر. فالأمريكان، ومعهم الصهاينة، يسعون بالتبخُّر إلى محو كل اثر للجريمة، وهم لا يريدون اتّباع أسلوب هتلر، أو صدام حسين، بإنشاء مقابر جماعيّة، فيظلُّون محلّ لعن، على مرّ الاجيال والأزمان.

إنّ تجربة هيروشيما، والمحارق النازية في حالة وجودها فعلاً، جعلت الامريكان وحلفاءهم الاقربين، يحتاطون للأمر، ثم إن المسالة بالدّرجة الأُولى اقتصادية، فدفن مائتي مليون عربي ليس بالأمر الهيِّن، يضيف الدكتور حنزليقة.

ولو أن العالم الإسرائيلي، الدكتور «ضرطوخ»، تصدّى لآراء الدكتور حنزليقة، بالحُجج التالية، لو أن أمريكا وحلفاءها أرادوا محاربة الإرهاب بهذه الصفة، لاستعملوا القنابل النووية ذات المجال المحدود، ولا أحد كان يمكن أن يتفطّن إليهم أو يعترض سبيلهم. ثم إنه، إذا كان الهدف إفناء العرب، فيجب أن تكون العملية، مثمرة، وبالتالي بطريقة التذويب، وليس التّبخير. فعندما يذوب مائتا مليون عربي دفعةً واحدةً تتضاعف الثّروة الباطنية، ويطول عمر استعمال النفط كطاقة أساسيّة، عشرة قرون أُخرى على الأقل.

على كلّ وعلى رأيّ المثل العربي الكسول: «يا خبر بفلوس بكره يبقى ببلاش».

سيّداتي سادتي. يقول عبد الحليم حافظ، على لسان الشاعر الكبير، المرحوم نزار قباني: «إنّي أغرق، إنّي أغرق»، فأنا، وكل مراسلينا، ولعلّكم أنتم أيضاً بدوركم، أقول لكم من تحت السواد الدامس: إنّنا نغرق إنّنا نغرق.

السّيات يدهمنا. السّنة تنطفئ، والنّوم يأخذنا.

ما نخاف . . .

تواصلت صرعة الولي الطاهر، وتواصل معها التّحديق في الشاشة المسوّدة، والتي كان، في الحقيقة، يرى ويُبصر من خلالها، صور ومناظر كل ما كان يتفوّه به، سواء المذيع الرئيس، أو المراسلون من مختلف أنحاء العالم، وقد رأى بأم عينيه قطّة صدّام حسين، وهي تتمسّح بأقدامه الحافية، ثم تموء، وتنير له البهمة المدلهمة، وقد تبعه إلى أن دخل منزلاً، يقع على ضفّة الفُرات، ليس به سوى امرأتين تقدّم بهما العمر، لم ترياه في البهمة، لكن سمعتا حركة، ومواء قطّة، وصوتًا مكدودًا، يطمئنهما قائلاً:

– ضيف رب العالمين.

– هذا الصوت، ليس غريبًا.

قالت إحداهما للأُخرى، فردّت عليها:

– ما عساه يفعل، كلّ شيء أخذوه، ما تبقّى على الأمريكان، استولى عليه اللصوص.

– حُش يا غريب. عليك أمان الله.

– وعليكما أمان الله.

– لكن كيف عرفت في هذه البهمة عددنا؟

– «فإنّها لا تعمى الأبصار، ولكنّها تعمى القلوب التي في الصدور».

– صدق الله العظيم.

قالت المرأتان، في حين قصد صدام حصيرةً عليها زربية مهلهلة، ومخدّة، وما أن استلقى

حتى انبعث شخيره. بينما امتدّت القطّة عند رأسه، وراحت تُسوّي وضعها، كي تنام بدورها.

– المخلوق تعبان. تراه من يكون؟

قالت إحداهما، فعلّقت الأخرى:

– قولي ما يكون أمره بالأصح، فالزمن الذي نحن فيه، لم يُبْقِ أحد على ما كان عليه، العزيز، ذلّ، والذليل، عزّ. والغريب، صار صاحب الدّار.

– والله.

أضافت الأخرى.

وساد الصّمت إلى جانب السواد.

لم يُعلّق الوليّ الطاهر، وأعاد بصره إلى الشّاشة التي انبعث فيها النّور، وتراءت منها صورة، جمدت عليها الكاميرا، تمثّل خارطة العالم العربي بالألوان.

مرّت لحظات طويلة، والصورة لا تتحرّك، قبل أن ينطلق صوت عرفه، يتساءل:

– فقراء. عبد الرحيم فقراء. أوتسمعني؟ أنا عبد الرحيم فقراء، كبير المراسلين بالجزيرة والخليج، وجميع دول مجلس التعاون.

النّور يتجلّى، يا عبد الرحيم. والفرحة تعمّ النّاس، والوجوه مستبشرة. لم يستيقظ الجميع، بعد. لكن العملية تتواصل، والشّمس استعادت كل وهجها، ولمعانها، وحرارتها، أيضًا.

– عبد الرحيم فقراء، أنا عبد الرحيم فقراء. هل تسمعني؟ يبدو أنّكم ما زلتم نيامًا.

توقّف الصوت، فجأة، وساد الصّمت لحظات، لينبعث صوتٌ آخر:

– عبد الرحيم فقراء. هنا القاهرة. مراسلكم عبد الرحيم فقراء. هل تسمعني وتراني؟

– نحن نرى الخريطة، ونسمع صوتنا، ولعلّ من هم مستيقظون من السّادة والسيدات المتتبّعين لقناتنا، يسمعوننا أيضًا.

– الوضع هنا بالقاهرة المعزّية، عاصمة مصر العروبة، مصر التي قال تعالى: «أدخلوها آمنين»، والتي ورد ذكرها في «القرآن الكريم». قلت: الوضع هنا، وضعان. وضع الحالة التي عادت إلى طبيعتها الأولى، فالشّمس ساطعة، والنور عام. والناس يستغفرون ويُكبّرون، ويُسبّحون لله الواحد القهّار الذي يولج الليل في النّهار والنّهار في الليل، وهو على كل شيء قدير.

ووضع آخر يمكن نعته بالسياسي، فالعمي الذين استولوا على بعض المؤسّسات، مثل وزارة الدفاع، والإذاعة والتلفزة، والقصر الجمهوري، وتمكّنوا من احتجاز عدد لا يستهان

به من المسؤولين رهائن، ربّما من ضمنهم سيادة الرئيس، أو على الأقل، السيدة الموقرة حرمه. يقول هؤلاء العمي :

– العصفور في يد من زوّى، وهو في أيدينا، ودونه جميع المنايا.

وقد التفّ حولهم، كثير من المشاغبين، والصعاليك، ومجوّدي « القرآن الكريم »، وبعض الشيوعيين، الذين لا يرتبطون بأيّ تنظيم سياسي، وكثير من مديري ورؤساء تحرير المجلاّت الحكومية، هؤلاء الذين لا يجدون حرجًا في أن يُنعتوا أو ينعتوا أنفسهم بالانتهازيين، ويمكن القول جميع أئمة المساجد الفرعيّة، ومساجد القرى والمدن الإقليمية، وكذلك طلبة الأزهر الشريف.

والهمس جارٍ، بأنّ مسألة الخلافة مطروحة بقوّة، وبأنّ اسم « بلادن » يتردّد إلى جانب اسم صدام حسين.

لقد انطلقت فرقنا، بعد أن فشلنا في الاتّصالات بواسطة الهاتف، تُحاول الاتصال، بقادة الجيش، ولو أن حصارًا شديدًا مضروبًا على كلّ رجال الإعلام. فوراء كل كاميرا أو صحفي يقف رقيب فضولي.

بلغنا، أن كل قادة الجيش، أعلنوا أنهم جيش نظامي غير مُسيّس، وبالتّالي لا يعنيهم الشأن الذي يجري بين العمي وغيرهم من السياسيين. ومهما كان الأمر فإنهم ينتظرون الأوامر من المصادر العليا، أما الثكنات، فإنها محكمة الإغلاق، على كل مدني، حتى يتجلّى أولاً أمر هذه الزّوبعة السوداء التي تضاربت في شأنها الآراء والتحاليل، وحين ينجو الوطن من الخطر الخارجي، تُولي العناية التّامة للمسائل الداخلية.

أمّا مُؤسّسات الأمن المدنيّة، فبدءًا من وزارة الداخلية، إلى آخر نقطة شرطة في تُراب الجمهورية، هي تحت الإشراف التام، للعميّ ومن والاهم.

سيّداتي سادتي، حضر الآن أحدهم وطلب من جميع وسائل الإعلام الوطنيّة والأجنبيّة تجنُّب استعمال عبارة « العمي » في جميع ما يكتبون أو يقولون، وذكّرنا بقوله تعالى : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى »، إلى آخر الآية التي نزلت في حق عبد الله بن أم مكتوم.

أيُّها السادة، أيّتها السيّدات، نأسف كثيرًا لهذا الانقطاع الذي حدث، ففي غمرة النّوم الذي داهم الأمة من محيطها إلى خليجها، عمل عامل التّعب فينا، فعله، نحن الذين ظللنا ساعات وساعات، وسط البهمة، نتحدث دون أيّ دعم من الكاميرا. وكل ما نأمله، هو أن لا يكون غيابنا عنكم قد تعدّى حدود اللياقة. ولحُسن الحظ، ولحسن الحظ، أكرّر، أن ظلت قناتنا مفتوحة، ورُبّ ضارّة نافعة، وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمي. ففي الحق، غُلبنا على أمرنا، فتثاءبنا وتمطّطنا، وصابرنا، ولكن فعل الشيء الأسود الذي يبدو أنه

انقشع، هزمنا، إي هزمنا وأيم الله. فلكلّ جواد كبوة.

على كل، ها نحن والنّور، وصور عالمنا العزيز، نعود إليكم، والعوْد أحمد إن شاء الله. وهذا مراسلنا من القاهرة الأخ عبد الرحيم فقراء، يشرع في مراسلته.

– بل، قل يوشك ان يُنهي مراسلته، فمنذ نصف ساعة، وأنا أتحدّث، ولقد بلغ صوتنا كل من كان مرتبطًا بالمحطّة، إذ كنا نسمع أنفسنا. فكما قلتم، المحطة كانت مفتوحة، وهذا لحسن حظّنا وحظُ مستمعينا.

– نعم. فما الجديد؟

– مبدأ الخلافة، أُقرّ، في اجتماع مجلس الحكم الجديد، والذي يتشكّل كما أبان الناطق الرسمي باسمه، من عشرة أعضاء، واحد منهم فقط مُبصر.

– ماذا تقول يا عبد الرحيم؟

– أُلخّص ما فاتك، يا عبد الرحيم، فهُنا في أرض الكنانة، استيقظ الناس ليجدوا أن الحُكم في يد من كانوا مرشدين للنّاس.

– العمي؟

– هذه التّسمية، مُنعنا من استعمالها، فالرّجاء حذفها من قاموس المحطّة. قلت، قال كبير المرشدين:

« القرخ في يد من زوى ». بيدي لا بيد عمرو.

– عمرو موسى يعني.

– كلاّ، فهذا مَثَلٌ لا غير. أرجوك يا عبد الرحيم فقراء أن لا تعطّلني، فالأحداث تتسابق، ها هنا.

سيّداتي سادتي، قلت. مبدأ الخلافة أُقر بالإجماع، ولكن عندما طُرح أمر من يكون الخليفة. ثارت الزوبعة، حتى أن اللّغط سُمعَ من خارج « قصر عابدين ».

هناك ثلاثة أسماء تتردّد، هي اسم الشيخ أسامة بن لادن، اليمني السعودي، واسم الشيخ بن باز، السّعودي، واسم الشيخ عمر عبد الرحمن المصري.

– أيها السادة والسيّدات، طلبات الاتّصال تتزاحم علينا من كل عواصم الدّنيا، وقد تولّينا تلخيصها إليكم، عدا مراسلة الجزائر، التي تركناها على حالها.

عبد الرحيم فقراء من الجزائر إليك الخط.

– شكرًا عبد الرحيم.

– تفضّل.

– الوضع هنا استقرَّ بسرعة، إذ ما أن عاد النور إلى الدنيا، حتى أُلقي القبض على ثلثي العمي الجزائريين، فقد كانت السُلطات لهم بالمرصاد. حيث كان لها نصيبها من العمي يعملون في أجهزتها العسكرية والمدنية، وكل ما جرى من حديث سري، وخاصة المُشَفَّر بلغة «براي»، وصل، في إبانه، إلى خلية الأزمة التي نُصِبَتْ في أعلى هرم القيادات العسكرية، والتي تمتد فروعها إلى جميع المؤسسات الاستراتيجية، وغير الاستراتيجية. وقد ورثت الجزائر هذا النظام، من سنوات السبعينات، أيّام الرئيس الراحل الهواري بومدين. كما ورثت الاستعانة بالعمي في الشؤون الأمنيّة من أيام العهد العثماني، إذ كانت أبواب مدينة الجزائر توكَل في اللّيل للعُمي كي يحرسوها، ويتّضح من هنا أن الجزائريين يعرفون، من هذا العهد، أن حاسّتي السّمع والشمّ، هما مما عوّض به المولى عزَّ وجلَّ فُقدان البصر.

لم يعرف المؤرّخون سبب استعمال العُمي في الحراسة، ولكن واضح هنا أن المسألة تعني تحديد دور الحارس بدقّة بالغة، عليه أن يفتح الباب، إذا توجّب، وغلقه بعد ذلك. وأن لا يهتم بمن أو بما دخل.

احتياطٌ بالغ في الحفاظ على أسرار الدولة.

محاولة الانقلاب هذه تمّت، والغريب في الأمر، أنه إلى حدّ الآن لم يصدر ما يُشير إليها، لا من قريب ولا من بعيد.

كل ما هنالك، هو إشاعات مرتّبة ومنظّمة، وحيناً أيضاً، ينقلها صحافيون جزائريون، يقولون إنها من مصادر مُقرّبة أو عليمة، وعادة ما تعني هذه المصادر مؤسّسة عسكرية واحدة، تبدو أكثر المؤسسات من نوعها تواضعًا في العالم أجمع.

يخال المرء من بعيد، أنها بلهاء، أو نائمة، أو تُعاني السيهللة. لكنّها أشبه ما تكون بالذي يُحرّك عرائس الكاراكوز، جميع خيوط العرائس، وجميع خيوط كل عروس، في أصابعه، يُحرّكها حيثما شاء، وكيفما شاء، فتبدو الأمور والحركات كلّها، طبيعية، عادية.

– وهل هناك تواتر في المعلومات التي أسميتها إشاعات؟

– التواتر في هذه المنطقة، لا يعني شيئًا، وكأنّما رأي ابن خلدون يظلّ يسري مع الزمن.

– ما هو رأي ابن خلدون هذا الذي لم يغب عنك حتى في مثل هذا الظرف الغريب؟

– يقول ابن خلدون، وهو المؤرّخ والعالم الاجتماعي الذي أوْلى أكثر من غيره الاهتمام بالبربر، مرّة يُعلي من شأنهم، ومرّة يذمّهم.

قال يذمّ على ما هو واضح من عبارته، كل تواتر يُفيد القطع إلا تواتر أهل المغرب.

على كل، بالنّسبة لنا، نحن الصحفيين الأجانب في هذا البلد، فهمنا الرسالة التي بُلّغنا بواسطة الإشاعة.

لقد جرت محاولة انقلاب من طرف منظّمة العمي، لكن تمّت السيطرة عليها في الوقت المناسب، وتمّ إيقاف جميع عناصرها، بما فيهم المشبوه في أمرهم. وهم كلهم عمي.

وقد تمّ إنقاذ الجمهورية.

– وماذا يقول الشعب هنالك؟

– الشعب الجزائري عادةً ما يقتصر في مثل هذه الحالات عن جملةٍ واحدةٍ، لها ثلاث صيغ، فهو إما أن يقول لك: «هم في هم». ويمدّد هنا فيقول: «هوما في هوما».

وإما أن يقول لك: «موسى الحاج، هو الحاج موسى».

وإما يقول هازئًا: «اللعاب حميدة، والرشام حميدة». والرشام هنا، تعني من يقوم بتسجيل حساب اللاعبين.

وكل هذه التعابير قريبة من القول العربي، عن الخصم والحكم، ولو أنه أبلغ منه إذ يحدّد من هو الخصم، ومن هو الحكم.

لا ننس أن عقبة بن نافع، رحمه الله، ظلّ، دون أن يدري، تحت تهديد الذّبح، طوال المسافة بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى ذهابًا وإيابًا، إلى أن تمّت العمليّة الشّنيعة في التكتُّم التّام.

وهم يُعيبون علينا، نحن المشارقة، التبجّح وحبّ الظُّهور في التلفزيون، والثرثرة، وصبغ الشعر، خاصة، الشوارب.

– أتركك في الجزائر، مع الإشاعات، وابن خلدون، وعقبة بن نافع، لأقدّم لحضرات المشاهدين والمشاهدات، كما وعدتهم، ملخصًا عن أهمّ ما وردنا من فقراء عبد الرحيم، من جميع أنحاء العالم.

نواق الشُّوط، ليس فيها جديد، فلا أحد تحرّك من موقعه أو فاه بكلمة، والناس عندما استيقظوا راحوا يُسلّمون على بعضهم البعض، مهنّئين أنفسهم بالسلامة.

أمّا في الرباط، فما أن استيقظ الناس، حتى راحوا إما يُخفون الأسلحة التي كانوا يستعملونها، وإما يتخفّون عن بعضهم البعض. ويقول مراسلنا، إنه نظرًا لقُرب المغرب من أوروبا، ونظرًا للقواعد العسكرية المتواجدة، فهناك حسابات متوازية كثيرة، ومعظم الناس هنا من العنصر البربري، ولو أن الكثيرين منهم عاش في الأندلس واكتسب هنالك عادات، ليست من خصائصه.

وفي تونس، يؤكّد عبد الرحيم فقراء، أن الناس لا يزالون يحاولون في استرخاء فكّ الارتباط بينهم، وملامح البشر بادية على الجميع. وقد صرّح لنا أحدهم، ويبدو أنه مسؤول كبير، بأن الليلة كانت، للأسف الشديد، قصيرة جدًا.

أمّا في عاصمة الجماهيرية العربية الكُبرى، فقد استيقظ الناس على غدٍ نقودهم، قائلين إن الغرب ما سلّط علينا هذا الشيء إلا ليستولي على ما تبقّى من نقودنا، وقد اضطرت أمانة مؤتمر الشعب العام، إلى إصدار بيان، أكّدت فيه، أن الجماهيرية العربية الكُبرى طبَّقت، حرفيًا، المثل الشعبي الذي يقول: اخسر وفارق. وأن كلمة «طز» في أمريكا، كان المقصود منها، «طز» في من عادى أمريكا، وبكل صفة لا «طز» بعد اليوم.

وقد سمعنا أحدهم يقول قبل أن يُختطف من طرف كوكبة من حاسري الرؤوس:

– «يا ليتنا فارقنا. الحب ما انحبك والصبر ما نصبر عليك».

في مصر، الانقلاب الأبيض، كان أبيض بالفعل، رغم السواد الداكن، إذ لم تسل، لحد الآن، قطرة دم واحدة.

جاء في آخر مراسلة لعبد الرحيم فقراء، أن النّظارات السوداء تكاد تختفي من السُّوق، وقد بلغ ثمن الواحدة منها، آلاف الجنيهات، وصار يُشترط في ثمنها أن يكون بالأورو، ومعلوم، أن مصر، ككل الدول العربية، تتعامل بالدولار أكثر من غيره من العملات. فأمريكا، مهما كان الأمر، إنما تتبرّع حين تتبرّع بالدّولار، وليس بالليرة الإيطالية مثلاً، وهذا رغم ما تقوله المعارضة من أن أمريكا تأخذ ولا تُعطي، وهي حين تتبرّع، تتبرّع بالديون المترتّبة عن الديون وليس بشيء آخر.

كما بلغ سعر العصي البيضاء أسعارًا خيالية، هي الأخرى، وعندما حاولت المعارضة أن تصنعها من قصب السكر، المتواجد كثيرًا في شوارع القاهرة، ارتفع سعر الرّطل الواحد من الطلاء الأبيض، إلى مئات الدولارات. وقد شهدت بعض المناطق المعزولة، عمليات سلب ونهب، استهدفت متاجر العقاقير، والطلاء الأبيض وحده.

إن الشعار المرفوع، في المعزية، هو: «كلنا عمر عبر الرحمن».

ويظهر أن المصريين، يخشون أن يضيع منهم مقرّ الخلافة.

في عاصمة الرّشيد، سيْداتي سادتي، وباقي المدن العراقية، استيقظ الناس ليجدوا أن القطط قرّت منهم، ويجد الكثيرون منهم أنفسهم، يحتضنون العلوج الأمريكان، وقد نُصبت أسواق، في معظم المدن العراقية، يبيع الناس فيها أسلحةً وعتادًا والبسةً أمريكيةً، خاصةً السراويل.

وما لوحظ، هو أن الجنود الأمريكيين، وكذا ضباطهم، لم يعودوا يتخفّون، أو يتخوّفون من الاستهداف كما في السّابق.

كانوا يبتسمون في رضا تام.

ولقد راح الناس يتكهّنون. فمن قائل، بأن أخباراً من أمريكا وردتهم، تقول إن الرئيس بوش، ووزير دفاعه، قد أُلقي عليهما القبض في حاملة الطائرات ابراهام لنكولن، ومن قائل، أن سبب ابتهاج العلوج، يعود إلى فرار صدام حسين من السجن، فقد كانوا بصدد التنازل والتفاوض معه على ترشيح من يتولّى الحكم في العراق من غير المعروفين من رجال الحكم السابق.

بفرار صدام يكونون قد تجنّبوا عار لعق قيئهم، كما عبّرَ أحد الجنرالات، وللعلم فإن خبر اختفاء صدام شاع بسرعة بين الناس، وكالـما بثّه مختصّون جزائريون. وتقول الأوساط المُقرّبة من الحكومة المؤقتة، التي أعلنت، ما أن عاد الضوء إلى الدنيا، عن استقالتها. وها هم أعضاؤها يتوجّهون في قافلة تصحبها نغمات آلات موسيقية مختلفة، ودقّات قوية للطبول والدُّفوف، إلى الكويت، عاصمة دولة الكويت.

إن أموراً عجيبة، تجري في العراق، برُمّته، لا يجد الإنسان لها تفسيراً. حتى أن أحدهم كتب مقالاً، في جريدة صدرت بصفحة واحدة، تجرّأ فطالب فيه باسترقاق العلوج الامريكان المتواجدين بالعراق، باعتبارهم أسرى، واستغلالهم، واستعمالهم، في حرب مع دول الجوار هي آتية لا محالة. كما طالب أن يفكر العراق، بجدّية، في استعادة الدولة العباسية، ومجدها، وإن اقتضى الأمر أن يستعين بإسرائيل.

في شأن صدام حسين، لا جديد، فالرجل، كما تعلمون، يُحسن التخفّي.

من دمشق، مراسلنا عبد الرحيم فقراء، قال بإيجاز كبير، إن الإضراب الذي شنّهُ العمي المتواجدون في سجن «المزة» قد انتهى، بعد أن اعترفت الدولة بوجودهم وبتنظيمهم، وطلبت منهم الدُّخول في الجبهة القومية، كقوّة لها وزنها في المجتمع.

وقد جاء في بيان لقيادة «حزب البعث العربي السوري»، إن الأمّة تستعين بكل قواها الفاعلة من أجل الوحدة والحرية والاشتراكية، ومن أجل فلسطين، وكل الأراضي العربية المحتلة، بما فيها لواء الإسكندرون، وسبتة ومليلة، والجولان.

سوريا العروبة، في طليعة الأمة، وهي رأس حربة في صدر العدو.

وأضاف بيان «حزب البعث العربي السوري»، أن الغمّة التي شهدتها الأمة العربية، أمس واليوم، تعود إلى تمزّق الوطن العربي وإلى خلافات العرب فيما بينهم، وأن الوحدة، وحدها، السبيل لتفادي مثل هذه الوضعيّات، كما أكّد ذلك الرئيس القائد، في أكثر من مناسبة.

ننتقل إلى الخرطوم، سيّداتي سادتي، حيث وافانا من هنالك مراسلنا عبد الرحيم فقراء،

بما مفاده، أن النيل لم يعرف أي فيضان، وأن القيادة السياسية، انضمّت إلى المعارضة، واعلنت الحرب على الولايات المتحدة الامريكية، وعلى ليبيا التي تساندها. وبخصوص الحالة قالوا: نحن في السودان، نحمل السواد اسمًا، وجلودًا، ولكن قلوبنا بيضاء كحليب الماعز.

ومن باقي منطقة شبه الجزيرة والخليج، لم يتّصل بنا عبد الرحيم فقراء، ويبدو أن التيّار الكهربائي منقطع عنهم، أو أنهم ما يزالون نيامًا، ولربما، لا قدّرَ الله، هناك انعكاسات، لا احد يعرف كُنهها.

وقد حاول احد المواطنين أن يتّصل بنا بالخلوي، إلا أن صوته سرعان ما اختنق، ولم نسمع منه سوى كلمة واحدة، هي القبض، فلا ندري هل يقصد عمليات إلقاء القبض؟ وهل هي جارية، أو جرت وانتهى الامر؟ والاحتمال الكبير، انه يقصد إلقاء القبض على عبد الرحيم فقراء، وعلى زملائه من المراسلين والصحفيين الآخرين. وما يُعزّز هذا الاحتمال، أن خلوي عبد الرحيم، لا يستجيب، كما أن الفضائيات المحلية مكتفية ببث «القرآن الكريم» واستفدنا من محطة امريكية، أن الاقمار الصناعية لم تسجل غيابًا كليًا للغيمة السوداء التي كانت تعمّ، إنما شبه ضباب، يلفّ مناطق آبار البترول.

وفي الحقّ ليس في شبه الجزيرة والخليج فحسب، وإنما، أيضًا، فوق كل آبار النفط.

وقد قالت المحطة، إن هذا الضباب أشبه ما يكون ببخار صاعد من قدْر يغلي فيه الماء.

سيّداتي سادتي، كُنّا نودّ لو أن عبد الرحيم حدّثنا عن الروسيات وعن مصيرهن ومصير علوجهن، وعمّا قد يكون من ضحايا، وعن ألوان قمصان إخواننا هنالك، وهل حافظت على نصاعة بياضها أم اعتراها التغيير، فيجب أن نتأكّد مما إذا كانت هذه الموجة السوداوية، مجرّد ضباب أسود، أم هي كما يقول الدكتور حنزليقة، سلاح فتّاك، تكون له عواقب وخيمة، على المدين، القريب والبعيد.

وهذا عبد الرحيم فقراء من فلسطين في بثٍّ مباشر، بالصوت والصورة، اليوم.

– سيّداتي سادتي، قرّر شارون ومعه الكنيست، تمديد إقامتهم بتل ابيب، ولم يُفصحوا عن سبب ذلك، وقد توقّع الدكتور حنزليقة، في مقاله اليوم، حدوث تغييرات كبرى في الجيو–سياسية، وقال بخصوص إسرائيل: إمّا وإمّا.

إما مورّطة، وسينجرُّ عن ذلك، أكبر جريمة في تاريخ البشرية، وإما غير مورّطة، وستكون هي الضحية الأولى، أو على الأقل إحدى الضحايا الهامّة في المنطقة. فامريكا، عندما تُعدُّ لقمة جيّدة في ملعقتها، تفضل أن تنفرد بها، وهي، كما يقال، من الحيوانات التي لا تُشرك غيرها في السقيطة.

بالنّسبة للضفّة والقطاع، ها هي صور مكتب أبي عمار، كما شاهدناه حال عودة النور، إذا صحّ التّعبير. محمد دحلان بصدد أن يُنقل إلى المستشفى، وعلى ما يبدو فإنه فقد كمية كبيرة من الدم، وهو في غيبوبة.

أبو عمّار، ما يفتأ يروح ويجيء كالأسد في القفص: رئيسًا. رئيسًا. رئيسًا.

أمّا أعضاء الحكومة الآخرون، فلم يظهر منهم سوى رئيسهم، مُحاطًا بأربعة شبان، يضعون نظارات سوداء على أعينهم ورغم انعدام العصي البيضاء من أيديهم، فإنهم بالتأكيد من المرشدين العمي. الأمور هنا تزداد غموضًا، لحظة بعد أُخرى.

قال أحدهم، وهو يشير إلى دحلان: «زلّة إصبع، ليس إلاّ».

وبالمناسبة، فقد أعلنت جميع بلديات الضفة والقطاع، أن المواليد المسجلين اليوم، أصر أولياؤهم على اطلاق تسميات غريبة عليهم. فالإناث كلهن سُجّلنَ بأسماء مُرَكّبة، من اسم أول واسم ثان، هو السُّلطة التنفيذية.

ألفت، تصير ألفت السُّلطة التنفيذية، ونزهة تضحي نزهة السُّلطة التنفيذية، وَقِسْ على ذلك باقي الأسماء، ولو أن اسم ألفت شكّل ما يقرب السبعين في المائة.

بالنسبة للذكور، يضاف إلى الاسم الأول نعتًا، أو تمييزًا، أو حالاً، والمسألة تترك للنحاة أفضل، يشكل اسمًا هو رئيسًا. فتقول مازن رئيسًا رئيسًا رئيسًا، مروان رئيسًا رئيسًا رئيسًا، ومحمد رئيسًا رئيسًا رئيسًا، وياسين رئيسًا رئيسًا رئيسًا، إلخ.

وقد تواتر اسم مروان إلى جانب اسم محمد وياسين بنسبة عالية.

وهذا أحد المواطنين يخرج من مكتب تسجيل، أسأله:

– يا أخ يا أخ.. ماذا كنت تفعل داخل مبنى البلدية؟

– سجّلتُ مولودًا ازداد في بيتي هذا الصباح.

– مبروك.

– الله يبارك فيك.

– ماذا أسميته على بركة الله؟

– مروان رئيسًا رئيسًا رئيسًا.

– ولماذا هذه التّسمية المُركّبة، ثم مروان بالذات، ورئيسًا وليس اسمًا آخر؟!

– يا أخ، الشعب الفلسطيني يسعى دائما للتأكيد لأبي عمار، بأنه يناصره، ولم نجد ما نُعبّر به غير ترديد شعاراته.

– هذا جميل، ولماذا مروان بالذّات؟!

– كيف؟ يعني ننساه والسلام؟ كأسنان العجوز، كل ما سقطت واحدة استراحت؟

– مبروك مجدداً. ها هو مواطن آخر أمامي سيّداتي سادتي، يا أخ يا أخ. . .

– نعم.

– ماذا كنت تفعل بالمكتب البلدي؟

– سجّلت وفاة قريبة لي. أبعد الله عنكم الشر.

– عظم الله أجركم. إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

– وأنت يا أخ؟

– سجّلت توأمين.

– ولد وبنت. لا شك.

– لا. بنتان.

– ما شاء الله. مبروك. ماذا أسميتهما؟

– سُكينة السُّلطة التنفيذية. وزينب السُّلطة التنفيذية.

– أنت أيضاً موالٍ لأبي عمار ما في ذلك شك؟

– والشعب الفلسطيني عن بكرة أبيه يساند أبا عمار. وتحيا المقاومة. ويحيا الشيخ ياسين. ويحيا صدام حسين.

– نتركك يا عبد الرحيم، في الأرض المحتلة، كي نفسح المجال لمراسلينا، في بقية أنحاء العالم، على أمل أن يعود الاتصال بشبه الجزيرة والخليج، فنعرف ما يجري هنالك.

– حدثنا يا عبد الرحيم فقراء، ماذا يجري في عاصمة الجن والملائكة؟

– نعم يا عبد الرحيم. عاصمة النُّور والجن والملائكة، ويمكن أن تضيف، عاصمة الثورة ضدّ الظلم والجور والطاغوت بصفة عامة.

إن باريس لم تهدأ لحظة واحدة، منذ أن بلغتها أنباء استعمال الأسلحة الكيماوية ضد الشعب العربي من المحيط إلى الخليج، شيبًا وشبابًا وأطفالاً ونساءً ورجالاً.

– هل هناك معلومات مستجدّة عن الغيمة السوداء التي سادت؟! إنك تقول الأسلحة الكيماوية.

– نعم فالصُّحف الفرنسية أجمعت، صباح اليوم، على تبنّي رأي الدكتور حنزليقة. وقد قالت إحداها إن الوقاحة لا يمكن وضعها في ميزان، ومن أبداها مرّة، لن يتورّع عن مواصلتها، ما لم يجد رادعًا يردعه. والأمريكان، تحدّوا الأعراف الدولية والأخلاق الإنسانيّة، عندما راحوا يبيدون الشعب الأمريكي الأصيل، وداسوا على كل الاعتبارات، عندما أطلقوا قنبلة الشر على اليابانيين. وها هم يُخرجون ألسنتهم للعالم كله، وهم يحطّمون دولاً وشعوبًا في المشرقين الأدنى والأقصى.

– من بعد العرب . الدور على من؟

– أمريكا الشرقية، تتطلّب أمريكا الغربية .

– سيّداتي سادتي، كما ترون، انطلاقًا من هنا من ساحة لاپاستي، إلى كل ساحات پاريس العديدة، يرابط الملايين منذ أمس، وهم يتوافدون من كل أنحاء أوروپا، زرافات ووحدانًا . من حُماة البيئة، إلى أطبّاء بدون حدود، إلى جماعات السلام بكل فصائلهم، إلى منظمات الإجهاض، الدعاة والمناهضون، إلى أنصار الزواج المثلي، هؤلاء الذين يواجهون الكاميرا الآن . نواب ووزراء، ورؤساء حكومات سابقون ضمنهم .

تأمّلوا الشعارات التي تحملها اللافتات :

( ) انحروا الوحش المسعور .

( ) الشعوب بدل العصابات .

( ) بوش هتلر وقح .

( ) عاشت فلسطين .

( ) تسقط الصهيونية .

( ) هيئات أُممية جديدة خارج الولايات المتحدة الأمريكية .

( ) اطردوهم من أوروپا قبل أن يطردونا .

( ) عاش صدام حسين .

( ) أين أسلحة الدمار الشامل يا مجرمون

شعارات وُصور ورسومات لا عدّ ولا حصر لها، تتوالى أمام الكاميرا، إلى جانب الهتافات التي تصدح بها الحناجر بجميع لغات العالم، بما في ذلك العربيّة . فالعرب، بمختلف أجناسهم، يتواجدون عادةً في مثل هذه المناسبات، وهم عادةً من المُعارضين لأنظمتهم، ومن مثقفي لقمة العيش، ومن طلبة أنهوا دراساتهم العليا، فاستهوتهم الحياة في أوروپا، ومن خونة سابقين لثورات بلدانهم، مثلما هو الشأن للحركى الجزائريين، ومن خونة جدد، لم يهضموا أوطانًا بدون مستعمريها السّابقين .

– يا عبد الرحيم . يا عبد الرحيم .

– نعم يا عبد الرحيم .

– هل هناك جديد، على المستوى الرسمي، بعد قرار تجميد عضوية أمريكا في الحلف الأطلسي، وبعد انقشاع الضباب الأسود؟!

– لا جديد، أوروپا ماضية في قرارها على ما يبدو سواء بقناعة مسؤوليها، أو بضغط هاته الملايين المتظاهرة . وعلى ما يبدو، ونظرًا للسّرعة التي اتُّخذ بها القرار، والجرأة القرار

الأمريكي، فإن أوروبا ضجّت، منذ فترة بعيدة، من التهوّر الأمريكي الذي يُفسد مشروع الاستعمار الجديد، والعولمة، بالعودة إلى أساليب القرون الوسطى.

الصحافة، وحدها، هي التي تُفصح عمّا يدور في رؤوس الحكّام، والنخب المثقّفة، والأحزاب.

وهي، الصحافة، ما تفتأ تُشير إلى العملاق الأصفر، قائلة، إن التصرّفات الأمريكية، تستحثّه، ليجعل معركته معنا معركة بقاء.

ما دُمنا بصدد الحديث عن الصحافة وعن صراع البقاء، بين يدي مقال كتبه مفكّر فرنسي من أصل ألماني، يقول: لا شيء اسمه صراع الحضارات، إنّما، كل ما هناك هو صراع المساحات، فالمساحات الممتلئة تبتلع المساحات الفارغة، إلى غير ذلك، وأمريكا، تخوض حروبًا غير تاريخية، وغير ضرورية، وغير بشرية بالتالي، شأنها شأن إسرائيل. تتحرّك من مساحة فارغة إلى مساحة ملأى، وهذا ما يُضفي طابع العبثيّة، على كل ما يفعلانه.

وأشار المفكّر الفرنسي ذو الأصل الألماني، إلى جدار شارون، فقال ساخرًا: لو كنت عربيًا هناك، لابتهجت به، ولعملت على تمتينه علوًا وعرضًا، لأن إسرائيل، بهذا الجدار، تضع حدًّا لحرب المساحات، وتُعدّ لانفجارها.

– سنعود إليك يا عبد الرحيم فقراء في برنامج «مرآة الصُّحافة»، أمّا الآن، فانتقل إلى بروكسل، لأسأل عبد الرحيم فقراء هنالك، عمّا يحدث.

– وهو كذلك يا عبد الرحيم فقراء، على المستوى الشعبي والجماهيري، تكاد مدن دول البنيليكس تفرغ من سكانها، فهم، أجمعهم، وبمختلف الوسائل، يتوجّهون إلى پاريس ليجعلوها عاصمة أوروبا الموحّدة، في مقاومة النازية الجديدة – كما يقولون هنا، أمّا على المستوى الرسمي، فقد بدأت بعض المعلومات تتسرّب إلى وسائل الإعلام.

– مثل ماذا يا عبد الرحيم فقراء؟

– مثل إيقاف كل اتصال جوي أو بحري بالعالم العربي، من خليجه إلى محيطه، ومنع كل اتصال أو احتكاك، بين الأوروبيين وبين سكان المناطق العربية، حتى وإن كانوا أوروبيين. إنشاء مراكز بحوث متطوّرة للتدقيق، فيما حدث، وما يمكن أن يترتّب عنه. تقنين توزيع النفط، بإنشاء بطاقات تموين، مع إجراء دراسة معمّقة حول إمكانية إيقاف السيارات التي لا تُستعمل للضرورات الاجتماعية، وعن الحركة، وإمكانية تحديد الكمية المستحقّة للسيارات السياحية، الاستعانة بالمخزون من النّفط، وتوسيع التبادل الاقتصادي مع روسيا وأمريكا اللاتينية وبعض البلدان الإفريقية النفطية التي لم يمسسها السواد، عدم الاكتراث بارتفاع أسعار النفط.

– وبخصوص العلاقات مع أمريكا؟

– المبادرة الألمانية، بتجميد تداول الدولار، تنال اهتمام باقي الدول الأوروبية، وقد تجلّى ذلك أول ما تجلّى في قرار استعمال الأورو في شراء البترول، وهذا القرار، ينزع الغبن عن كثير من دول العالم النامي، التي تبيع بترولها بالدولار، وتدفع ثمن مشترياتها بالأورو.

إن الأمور يا عبد الرحيم تتطوّر بجدّيّة في اتجاه الانفصال التّام عن أمريكا.

– ننتقل الآن سيّداتي سادتي، إلى عبد الرحيم فقراء في واشنطن، لنطرح عليه السؤال الاعتيادي: ماذا يجري عندكم يا عبد الرحيم فقراء؟

– سيّداتي سادتي، لقد تأكّدت هنا مسألتان لا ثالث لهما، إذ أن كل الدلائل تنحصر عندهما.

المسألة الأولى هي أن أمريكا بريئة كل البراءة مما جرى ويجري في الشرق الأوسط من السواد والضباب، وغير ذلك، وهذا نظرًا للتخوّفات التي أبداها كل المسؤولين في مختلف المؤسّسات المدنية والعسكرية، والاضطراب في توجيه التُّهمة، فحينًا، تتّجه الأصابع إلى «بلادن»، وأحيانًا إلى صدّام حسين، وكذلك نظرًا للعواقب الوخيمة الاقتصادية والسياسية التي ترتّبت لحدّ الآن عن هذه العمليّة، إن كانت بالفعل عمليّة. فالدولار صار يُقارن بالدينار العراقي، وقد جُمّد منذ البارحة إلى اليوم ما يزيد عن أربع مرات، دون جدوى، والعلاقات مع أوروبا في أتعس أيامها، ما يمكن أن يُنذر بحروب من نوع خاص، لم تعرفها البشريّة، ثم هذا الذُّعر الذي سيطر على كل المسؤولين، ما جعل الرئيس بوش ورامسفيلد وباول يغيبون عن الأنظار منذ اندلاع السواد، إذا صحّ التعبير.

المسألة الثانية، هي أن الإدارة الأمريكية، ضالعة، والغة، في الضباب والسواد، لكن هناك فلتانًا ما، على حدّ تسمية إخواننا الفلسطينيين للفوضى، نتج عن سوء تدقيق، في الحسابات، وسوء تقدير لنتائج العمليّة العسكريّة، جعلها، هذه الإدارة، إما تتنكّر وتتملّص منها، وإما تترقّب ما سينتج في نهاية الأمر.

قالت مستشارة الرئيس الامريكي للامن القومي، وقد ظهرت للمرة الأولى كما تشاهدونها في هذا التسجيل، دون زينة، وفي لباس رياضي بُنيٍّ داكن، فتبدو في سنٍّ غير تلك التي كانت تبدو بها، كما أن فمها تخلّص من مراقبتها له، فبدا عريضًا جدًا، يُظهر كامل أسنانها الناصعة البياض، كلّما فتحته، ويجعل ذقنها، تظهر وتختفي، كلّما تحرّكت، وأنفها الغريب يعجز عن الاستقرار في وجهها، بينما ازدادت عيناها ضيقًا وصغرًا وحدّة، فتكشفان عمّا يكمن في رأسها من عدوانية واحتقار.

قالت المستشارة، إن مزاعم الدكتور حنزليقة لا تستقيم، لأن لامريكا، ما يزيد عن المليون

من أبنائها وأصدقائها في المنطقة، وهم مثل غيرهم عُرضةٌ لأيّ أذى.

يبدو، والله أعلم، أن ما ساد المنطقة العربيّة، بالأمس، خارج عن المخطّطات الأمريكية، وهذا ليس تنزيهًا لها، ولكن زيادةً في تبيان مدى تعقّد الأمور.

فمن يحارب بهذه الطريقة في المنطقة؟ وما هو هذا السلاح؟ وما هي الآفاق بعد أن بلغ سعر برميل البترول الواحد، ألف دولار؟ من يحارب من؟

– يا عبد الرحيم. ماذا قالت المستشارة عن المواقف الأوروبية؟

– لم تقل شيئًا ذا أهمية، واكتفت بالابتسام قائلةً: ينسى الأوروبيون أن أمريكا خرجت من ضلع أوروبا كما خرجت حوّاء من ضلع آدم.

– «نادرًا ما يتّفق الأجداد مع الأحفاد»، أضافت.

ولقد استاء مراسل وكالة الأنباء الفرنسية، فهاجمها مذكّرًا إيّاها بأنّها ليست من أصول أوروبيّة، فردّت عليه بجفاء وباحتقار أيضًا، بأنها إحدى الشهادات الحيّة على السلوكات الخاطئة للأجداد، إننا لم ننزل من السماء أو نأتي من الهملايا، ولا نستعمل لسان التوتسي أو بالوبا.

إن الانفعال الذي اصطبغ به هذا الحوار القصير، ينمّ عن توتّر بالغ بين أمريكا وأوروبا، وفي هذه الجُمل الذكيّة التي استعملتها المستشارة، خلاصة ما ستنبني عليه في المستقبل العلاقات الأورو-أمريكية. فالأمريكان يريدون أن يقف معهم الأوروبيون، إيمانًا منهم بأنهم يشكّلون امتدادًا وتواصلًا واحدًا، وبالتالي شعبًا واحدًا تختلف مصالحه في هذه القارّة أو تلك، ولكن يواجه خطر الآخر، أينما كان خارج القارّتين. وللمسلمين الحق، وهم أصحاب المبادرة، إذ يقولون: لا يصلح آخر هذه الأمّة إلا بما صلح به أوّلها.

من قتل الهندي في أمريكا، هو الذي قلّص عدد الجزائريين من ستّة ملايين إلى ما يقلّ عن مليون، وهو الذي قتل في كامل إفريقيا والهند، والهند الصينية، وما زال يقتل، واليوم يريد أن يظهر بمظهر الإنساني المتباكي، وكل همّه أن يمارس الامتصاص بشكل آخر.

– كفى نفاقًا، قالت المستشارة الأمريكية للأمن القومي.

– عبد الرحيم فقراء. لماذا هذا التغاضي عن أخبار بوش ورامسفيلد وباول؟

– تعلم أن الأمريكان يغرقونك في الأخبار التي يريدون، وينسونك في الأخبار التي تريد أنت.

الغريب في الأمر، وأكرّر الجملة، أن ظلال القيادة الأمريكية تختفي شيئًا فشيئًا، وما عدا بعض الإشاعات من هنا وهنالك، فإن القيادة الأمريكية، هُمّشت تمام التهميش.

– حدّثنا عن الإشاعات.

– لقد حدثتكم عنها أمس، وملخّصها كلها، أن بوش الابن توقّف عن إلقاء خطابه على ظهر باخرة جورج واشنطن.

– أبراهام لنكولن، قلتُ أمس.

– نعم أبراهام لنكولن. المعذرة عن الهفوة.

قلت. ولم يظهر منذ لحظتها، وقد كانت الجملة التي توقّف عندها هي التي أعلن فيها أن أمريكا، لن تخرج من العراق قبل أن تستعيد ما أنفقته ماديًا ومعنويًا، وهذا يستغرق سنوات طويلة.

البعض يقول إنه في تلكم الأثناء وجّهت له عدّة طلقات نارية، والبعض يقول، إنه ما أن بلغ هذه الجملة، حتى تقدّم منه قائد عسكري كبير، قاده من ذراعه، وكأنّما العمليّة، إلقاء قبض مستتر، في فيلم بوليسي. البعض يقول، إنه بينما كان يتابع على الشاشة، وهو يخطب، صور قمر فضائي، عن الوضع في العراق، وفي النجف بالذات، فُوجئ بالسواد الحالك يغمر الشاشة، فأُغمي عليه، وهو الآن في المستشفى يتعرّض لعلاج نفسيّ.

لكن الإشكالية كلها تكمن في أن الأمر لو كان يتعلّق ببوش وحده لهان، إنما يتعلّق بكل القيادة الحالية، وما يُسمّى بالصُّقور منها بالذات. فهل العملية، انقلاب قام به العسكر على غرار بلدان العالم الثالث، غير الديموقراطية؟

ما من شك، في أن هناك غضبًا قويًا وسط الجيش الأمريكي، الذي وُعد بجولة سياحية في العراق، ولربّما في الدول المجاورة، مثل إيران، وسوريا، ولبنان، أو ما يسمى بالهلال الرافض لنجمة داود، وإذا بهم يُصلون نارين، نار الطبيعة الحارقة، ونار حرب عصابات ضروس، لا يبدو لها آخر، ولا يظهر لها مفصل.

إنّ المعلومات الواردة من تنقّل الكنيست ومجلس وزراء إسرائيل من القدس إلى تل أبيب، ليس بمنأى عن مصير الصقور الامريكان. فالبيت الأبيض، كما هو معلوم، ليس سوى المرآة العاكسة لرؤى إسرائيل الإستراتيجية، واللسان الذي تموّه به الدولة العبرية.

– عبد الرحيم، يا عبد الرحيم.. انتزع منك الخط، لأقدّم لحضرات المشاهدين والمشاهدات، خلاصة ما جاءنا من الجزيرة والخليج وبعض دول المنطقة، بعد أن أُفرج على خلويات مراسلينا، دون الإفراج عن كاميراتنا.

قال عبد الرحيم فقراء من الرياض ما قاله عبد الرحيم فقراء من كل عواصم مجلس التعاون الخليجي.

– مُنعنا من التصوير، كما مُنعنا من استعمال الهاتف، بل وقد مُنع بعض زملائنا، حتى من النّظر، إذ عصبت أعينهم.

كان السبب في ذلك، أن جبب وقمصان، وكوفيات الجميع، اكتسبت لونًا أزرقَ، مائلاً إلى السَّواد. وقد قال المسؤولون هنا، إن إظهار سكان المملكة، وسكان المشيخات، بهذا اللون غير النبيل، يجعلنا نبدو فعلة نفط، أو أجانب وفدنا نسترزق. دعونا نغيّر قمصاننا، ونغيّر ما على رؤوسنا، ثم صوِّروا ما طاب لكم أن تُصوِّروا.

لكن ما أن يدخل الواحد منهم منزله، أو غرفة ثيابه، حتى يعدل عن الخروج، حتى خلت الشوارع والأنهر، أو كادت، من الحركة، ومن مظاهر الحياة.

لقد اصطبغت كل ثياب الرجال بهذا اللون الذي يثير التقزُّز في نفوس سكان الجزيرة والخليج، إذ يعتبرونه، حطًا من قيمتهم، ومن شرفهم بصفة خاصة.

وقد علمنا، فيما بعد، أن ألوان الكوفيّات مقنّنة، فكل لون وله مرتبة، ولا يجوز للبيدون، مثلاً، أو لليمني أو الپاكستاني، أو أي وافد آخر – ولمفردة الوافد هنا، دلالة عرقية، وهي في بعض المناسبات تُستعمل كشتيمة – أن يتطاول، على طبقة الأسياد.

وبسبب ما اعترى الجبب والقمصان والكوفيّات والشنّاعات، شُلّت الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم نجد من يعلّق لنا على الظاهرة السوداوية، وما ترتّب عنها من مواقف تجاه العرب وتجاه البلدان العربية عمومًا، فالكل هارب يتغنّى بليلاه.

وسيترتّب عن هذه الوضعية، ولا شك، كما تكهّن كل مراسلينا تقريبًا، اجتماع عاجل لمجلس التعاون الخليجي، وسيكون لوزراء الدفاع، والداخلية، والإعلام، الدور الرئيس في هذا الاجتماع.

ولقد ظهرت السيّارات السوداء، ذات الزُّجاج الواقي من الرؤية من خارج السيارة، بدأت تخرج من مخابئها، وكأنما هي حيّات تخرج من جحورها فتسعى. السواق الفليبيون، يتولّون، بحماس وحميّة، تنظيفها وإعدادها.

لا شكَّ أن اجتماعات لهيئات ومؤسّسات وعشائر وقبائل بصدد الانعقاد، فحركة الحيّات السوداء هذه، بدأت دفعة واحدة، كأنها على موعد، ومما لا شكَّ فيه أنها على موعد.

لعلَّ وعسى تتمكّن وسائل الإعلام، بعد هذه الاجتماعات، من ممارسة مهامها بصفة طبيعيّة.

– سيّداتي سادتي. حضرات المشاهدين الكرام. لم نتمكّن من الاتصال بعبد الرحيم فقراء في صنعاء، ولكن استطعنا أن نلتقط لكم بعض مناظر من التلفزة اليمنيّة التي اختل إرسالها بواسطة الأقمار الصناعية، بعد ظهور الغيمة السوداء مباشرة.

مناحة كبرى يشترك فيها الشيْب والشباب، الذُّكور والإناث، الناس يلطمون خدودهم،

ويمزّقون جيوبهم، ويذرفون الدمع الحار، وهم حيناً يحتضنون بعضهم، مواساةً وعزاءً، وأحيانًا يتمرّغون على الأرض، ضاربين رؤوسهم على كل ما صادفهم، وقد تساقطت من رؤوس الكثيرين منهم، العمائم، كما تساقطت قطع القماش التي يلفّون بها نصفهم السفلي، فيبدون، حفاةً عراةً، في مُنتهى الهزال عُجفًا ضامرين، يذكّروننا بغاندي رحمه الله.

أيّها الإخوة والاخوات. نواصل من تلفزة اليمن، عرض هذه الصور الحيّة، عن المناحة الوطنية التي يشترك فيها كل أبناء اليمن بشقّيه، الشمالي والجنوبي، يتقدمهم قائد الثورة السيّد الرئيس.

ها هي اليمن كلها، عن بكرة أبيها، تخرج لتُعلن حزنها لهذا المصاب الجلل، المتمثّل في جفاف كل أوراق القات. فما أن عاد النور، واستبشر الخلق الذين هرعوا إلى الحقول، وكأنّها أسراب نحل، مبكّرة، حتى ارتفع التهليل والتكبير، ثم النواح والبكاء.

أشجار القات، كما ترون بأم أعينكم سادتي سيّداتي، أشجار القات، مصدر رزق الملايين من الناس، ومصدر سعادتهم الوحيد، كلّها، كلّها، جفّت أوراقها، ولم تبق هنالك ورقةٌ واحدةٌ خضراء، تبعث الأمل في نفوس الناس بعودة الحياة، لشجرة الحياة اليمنية هذه، بكل فخر واعتزاز.

انظُروا أيّها الإخوة والأخوات، إلى هذا الاصفرار الذي عمّ حقول اليمن، فحوّل الاخضرار الدائم، إلى يباب. ولا شكّ أن كل هذا تمّ بفعل ما سلطته الإمبريالية والاستعمار، وفي مقدّمتها أمريكا التي لم تنس ولن تنسى لنا مواقفنا القومية الشجاعة، الواضحة والتي لا مراء فيها، خاصةً موقفنا المشرّف في كل حروب العراق الشقيق. كما لا تنسى أن الشيخ أسامة بلادن، قد نشأ وترعرع في ربوع اليمن السعيد.

وفي هذا الجو الحزين، ووسط هاته الجموع الغفيرة، سيلقي الأخ القائد الزعيم الموحد، خطابًا، يحدّد فيه، المبادئ العامة والدقيقة، لسياسة اليمن الداخلية والخارجية. ولا شكّ، أيها الإخوة والأخوات، أنه سيعلن عن إجراءات ثورية، لمكافحة هذه الآفة التي نزلت علينا، ولاستعادة سعادة اليمن السعيد، حتى وإن توجّب ذلك إعادة غرس عشرين مليون شجرة قات.

أيّها السادة والسيّدات، سنعود فيما بعد إلى اليمن، إذا ما جدّ جديد في خطاب رئيسه، في غمرة الحزن والأسى الذي يملأ أجواء اليمن الشقيق.

أما الآن، فمع هذا الفاصل القصير، وبعده عودة، والعَوْدُ أحمدُ.

سيِّداتي سادتي، اوردت منذ لحظة وكالة الانباء الامريكية، نقلاً عن مصادر في البنتاغون، ان بترول الشرق الأوسط، قد تحوَّل إلى سائل غير معروف حتى الآن، وقد شمل هذا المسخ العجيب كل الآبار، حتى تلكم التي دخلت مرحلة الاستعمال حديثًا.

وما ان أذيع الخبر، حتى اغلقت جميع بورصات العالم ابوابها، وتوقفت عمليات بيع وشراء النفط. وجُمِّدتْ اسعار العملات في كامل العواصم، الأوروبية والآسيوية والامريكية.

وللتأكُّد من هذا الخبر المشؤوم، ها هم مراسلونا في انحاء العالم العربي، نسالهم واحدًا، واحدًا.

– عبد الرحيم فقراء في الرياض، ما وراءك يا أخ العرب؟

– علمتُ هذا الصباح، أن كل إناث الخيل والإبل والاغنام والماعز والدواب، وضعت، توائم، وقد استبشر الناس بهذا، وقالوا إنه فال خير، ولو أن بعض النساء تشاءمن، وقلن، إن الرجال عندما يرون تكاثر الحلال، تشتدُّ بهم الرغبة في الزواج.

من كانت له واحدة يتوق إلى الثانية، ومن كانت له اثنتان تاق إلى الثالثة، ومن كانت له ثلاثة، تاق إلى الرابعة، ومن كانت له اربعة، طلَّق الأولى ودخل على الخامسة.

– جيِّد. لكن يا عبد الرحيم، قضية النفط، هل يهمّكم؟ العالم الآخر في هلع شديد.

– اسمح لي ان أقول لك، إنني لم أجد مسؤولاً واحدًا أمامه. فالسيارات السوداء ذات الزجاج الساتر، غادرت مواقعها، ولم تعد بعد، وأنت كما تشاهد، ويشاهد معك السادة والسيدات، ليس الآن أمام الكاميرا، سوى الهجن، يركبها اطفال عُجفٌ، وهي تركض مرغية مزبدة.

ربما الوقت غير مناسب للحديث عن الاقتصاد والنفط والعملات، ما إلى ذلك.

– عبد الرحيم في الإمارات. وأنتم؟

– نحن نسمع ولا نرى. تعلم أنه منذ دخل الناس إلى بيوتهم، ولم يجدوا ما يغيِّرون به البستهم التي تغيَّر لونها إثر العاصفة السوداء، اعتصموا هنالك، بعد أن أرسلوا خدمهم وحشمهم، يطوفون بالأسواق، عساهم يعثرون على قمصان بيضاء، لكن هيهات، على ما يبدو.

مع ذلك، فلله جند في الحلوي، الذي له فضل عظيم على النَّاس، وعلى الصحفيين بالذات.

نعم.

الشباب هنا شياطين، فأعينهم لا تنقطع عن شاشات البورصات العالمية، والبيع والشراء، عندهم، لا يتوقّف إلا حين ينامون.

يشترون أسهمًا، يشترون طائرات، يشترون روايات وقصصًا وأشعارًا، يضعون عليها أسماءهم.

يكفي الضغط على زر يتواجد حيثما يتواجدون. في السيّارة، في بيت الحمام، في هاتف خاص بجيوبهم، وكل ما هو هنا، معلن في البورصة. تصعد قيمته، وتنزل.

منذ أيام، تفوّه أمامي أحدهم، وكان قد بلغ من السكر وطرًا. تفوّه في هاتف خاص، يبيع فليبينيّته، كما قال، وعندما سألته، ردّ، هذه بورصة داخلية، لا يباع ويشترى فيها سوى اللّحم المستورد.

– بورصة، تقول، تُعرض فيها الفليبينيات الخادمات؟!

– نعم. أكثر من ذلك، هناك بورصة أخرى سرّية، خاصة بالسيّدات، يباع فيها الرجال، من هنود، وغيرهم من الآسيويين، العاملين في السياقة، وفي الحدائق، وما شابه.

هاتان البورصتان، غير موجودتين على الإنترنت، وإن كانتا مصورتين، إنما تبثّان على خطوط هاتفية بواسطة الياف وموجات خاصة، ولهما، على كل حال، صلة متينة بالأقمار الصناعية.

– عبد الرحيم فقراء. أنت جديد في الإمارات، واكتشافاتك هذه تبهرك حينًا بعد حين، ولا شكٌ. لكن ماذا عن مسألة مسخ النفط؟!

– العفو يا عبد الرحيم. فالحديث عن شأن هؤلاء الناس، يجرُّ بعضه إلى بعض، فهو حلقة في سلسلة كاملة.

– على كلٍّ. مؤشّران اثنان يدلاّن على صحّة ما تواتر من أنباء النفط.

المؤشّر الأول، هو أن جميع من اتصلنا به من المسؤولين، قال إن العلم سيجد مخرجًا، وإن الإرهاب لا يمكن أن يطال أعماق الأرض.

المؤشّر الثاني، هو أن جميع الوافدين، من غير العرب، يغادرون مواقعهم ويركضون نحو مكاتب شركات الطيران، ونحو الموانئ. هذه بعض صور التقطتها كاميراتنا، تظهر بعض هنود يستولون على باخرة سياحية عليها علم روسيا، وينطلقون بها غرض بحر العرب، كما يسمّى في الهند، والمحيط الهندي كما يسمّيه العرب.

ها هي صور أخرى عن طوابير طويلة من الوافدين الآسيويين وبعض الروسيات والروس.

أقترب من هذه الروسية وأسألها:

– ماذا تفعلين هنا؟

– أرحل عن هذا البلد المشؤوم.

– مشؤوم تقولين؟

– نيات[٦] دولار. نيات . . .

قالت وأتت بيدها حركة، يعزُّ علينا أن نعرضها على مشاهدينا، ثم سألتها:

– ما علاقة الدولار بحديثنا؟

– نيات نفط، نيات دولار، نيات عرب، نيات حبيبي.

يشهد الله أنها كانت رائعة كلمة حبيبي هذه وحاؤها تتحوّل إلى خاء، خاصة وقد قالتها، كما شاهدتم، بغنج ودلال ورقة.

– اسألها ماذا جرى معهن البارحة؟

– لن أسألها فلدي تفاصيل مدّني بها صديق لنا، في محافظة الشرطة، لا يعرفها إلا من كان من المقرّبين، أوافيكم بها فيما بعد.

أما الآن، فكما تشاهدون، ها هي سيّدة إماراتية، تلتفّ في لباس من الحرير أسود، على وجهها نقاب، وردي، لا يُبيْن إلاّ عينيها الكبيرتين، الدعجاوين هاتين.

إنها تمسك بخناق شاب هندي وسيم.

– أتهرب هكذا؟!

– لا نفط.

– أضاعف ماهيتك، عُدْ معي.

– لا نفط.

– أدبّر لك الجنسيّة.

– لا نفط.

– اللعنة على النفط. ما دخله فيما نحن فيه؟

– العرب نفط. أنت نفط. أنا نفط. وافد يعني نفط.

التفتت المرأة إلى الشرطي الذي كان يتابع معنا المشهد، ويبدو من هزاله، أنه يمني، ورجته أن يعيده إليها.

– إنك تسمعينه يشتم العرب، ويشتم العالم أجمع. ابحثي عن مغربي، أو تونسي يا سيدتي، فهم أولى. فقط احذري الجزائريين، فهم فضوليون، أدعياء، يضيفون دائمًا إلى معلومتك، شيئًا، أو يصحّحونها بوقاحة، يبادرك قبل أن تتحدثي إليه في أمر بقوله: أعلم ذلك. يشتغل عندك ويلبس أفضل من أولادك.

– يا عبد الرحيم، انتزع منك الخط، لأعطيه إلى عبد الرحيم في الكويت. عبد الرحيم.

ماذا يفعل الناس الآن؟ هل تأكدتم من خبر المسخ الذي لحق النفط؟

- عبد الرحيم. الكويتيون، هم أكثر العُرْب اطمئنانًا على مستقبلهم، فبعد الغزو الصدامي اللئيم الغادر، فقدوا الثقة، في أمنهم، حتى وإن وظّفوا كل علوج العالم، وليس الأمريكان وحدهم، ذلك أنه، وكما يقول المثل الشعبي، السارق يغلب العسّاس، والوطن من محيطه إلى خليجه، سراق ولصوص.

لذا فما أن علموا بالنبأ العظيم، حتى ارتدوا ثيابهم الأوروبية، وهرعوا إلى سياراتهم يقودونها بأنفسهم، بعد أن كان من الآسيويين نفس رد الفعل الذي اتّخذه إخوانهم في الإمارات، ولقد حجزوا كلهم لنهار اليوم، في اتجاه إسبانيا، وسواحلها تحديدًا، إذ، من المعلوم، أن هناك مدنًا كاملة، نشأت هناك، يمتلكها الكويتيون.

وقد قيل فيها، إنها أندلس وهميّة. لا ينقصها سوى ولّادة، وابن زيدون، وزرياب، وابن عباد.

وبعد الحجز مباشرة، عادوا إلى بيوتهم، ليأخذوا ما خفّ وزنه، وغلا ثمنه، حتى لا تتكرّر مأساة الغزو الأحمق، حيث جعلتهم المفاجأة يفرّون بجلودهم، وإلى اليوم ما يزال الكثيرون يلحّون على الأمم المتحدة أن تعوّضهم، ما نهب منهم من حلي يمتلكون فواتيرها من باريس.

ها هي، كما تُبيّن الكاميرا، أرتال من السيارات الفخمة تتجه إلى المطار، يطلّ منها الأطفال، بنين وبنات، على رؤوسهم قبّعات من مختلف الألوان الزاهية البهيجة، ما يُضفي على الموكب طابع عرس كبير.

وها هي طوابير الوافدين، رجالاً ونساءً، يكادون جميعًا يكونون في عمر واحد، تقف أمام وكالات الأسفار.

ومعلوم أن مطار الكويت، من أكبر المطارات العالمية، ومن أكثرها نشاطًا وحركة طيران، لذا فمن الممكن أن تخلو دولة الكويت، هذا المساء، إلا من البيدون.

هؤلاء، هم المُرجأة، فهم كويتيون، وعرب ما في ذلك شكّ، لكن، تنقصهم الأصالة، أو بالأصح الانتماء لقبيلة من القبائل، يحصل البعض منهم، باستمرار، على وثائق جنسيّته، وخاصة ما يتعلّق منها بالسفر إلى الخارج، ويترقّى البعض منهم في بعض المسؤوليات، ويحلّون محل الوافدين شيئًا فشيئًا، وعلى مرّ الايام سيحصل ولا ريب الاندماج التّام.

هؤلاء البيدون، هم الذين سيعمّرون من الآن فصاعدًا، مع من لم يستطع السفر من الوافدين، ومع مجموعة من الشباب العرب، الكويت.

يا أخ، يا أخ. أنت كويتي، ما في ذلك شك؟

– يعني .

– ماذا يجري في هذا البلد الطيّب ؟

– النفط .

– ما له النفط .

– يُقال تضب . والناس لم يبق لها ما يشدُّها لهذه الصحاري .

– ألهذا الحدّ ارتبط الناس بالنفط ؟

– المصير غامض ، مجهول يعني .

– وانت ، هل فكرت في الرحيل ؟

– أنا راحل أبدي . فمقامي هنا ، رحيل في حد ذاته .

– أفهم من هذا أنك من البيدون ؟

– من الجدّ للجدّ .

– وما رأيك فيما حدث للنفط ؟

– ربّنا ، سبحانه وتعالى ، له حكمته .

– اتركك يا عبد الرحيم فقراء ، وسأتصل بكم حال أن يجدّ جديد .

نتصل الآن ، سيّداتي سادتي ، بعبد الرحيم فقراء بارض الكنانة ، فنتزل مصر آمنين . اللهم آمين يا رب العالمين . عبد الرحيم فقراء ، هل تسمعني وتراني ؟

– نعم يا عبد الرحيم . والأوضاع هنا تكاد تكون على حالها ، وقد تغلّب التيّار المتشدّد ، على التيّار المعتدل الذي يتجنب القطيعة النهائية مع الولايات المتحدة الامريكية ، فتم إعلان الشيخ بلادن على رأس الدولة المصرية خليفة للمسلمين ، فالثورة ثورته ، كما يقال هنا ، غير ان بعض الإشاعات راجت في الشارع المصري ، فعكّرت أجواء الفرحة التي تعم جميع التيارات الإسلامية ، ومن يتقرّب منهم . هذه الإشاعات ، تردد ما ورد في صحيفة امريكية عليمة ، من ان بلادن ، لا وجود له منذ ما يزيد عن الثلاث سنوات ، فقد مات ليس في معركة ، او نتيجة غارة وقصف ، إنما بسبب ما يعاني منه من مرض في الكلى ، إثر انهيار مغارته في بورا بورا ، وتحطّم المخبر الذي كان يعالجه .

بدون هذا المخبر ، لا يستطيع أسامة بلادن ، أو غيره ، العيش أكثر من بضعة اسابيع . وقد نشرت الصحيفة ، إلى جانب المقال ، صورة لجثمان بلادن وهو يُوارى التراب .

ويصاحب هذه الإشاعات ، التي هي في الحقيقة ترويج لمقال ، وليس لإشاعة ، القول ، بان المعلومة التي نشرتها الصحيفة ، أعطيت لها من طرف متعصّبين لخليفة آخر ، لا يذكرونه ، ولكن المقصود ، هو الشيخ السعودي بن باز .

ويؤكدون أن مثل هذه المعلومات، وهذه الوثائق، لا يمكن أن تتوفّر، إلاّ في المملكة.

فهي التي، وهي التي.

– وعن النفط يا عبد الرحيم؟

– الخبر عمَّ جميع الأوساط، لكن لم ينل اهتمامًا كبيرًا، والكثيرون من الذين تحدّثنا إليهم أبدوا شماتة. فالمصري، كما هو معروف، أكثر العرب تعرضًا للاضطهاد في الدول النفطية. فرغم أنه من خيرة الشغيلة من حيث المردودية، فإن إدراك الناس لحاجته الشديدة للشغل، تجعلهم يبالغون في مطالبته بمزيد من الامتثالية، والصبر، حتى لا أستعمل كلمة أخرى.

– وعن رجالات الحكم المطاح به؟

– أُضيف أولاً ملاحظة عن ردود الفعل لدى شريحة المثقفين المصريين، فقد عمّهم الحزن، وساءهم الأمر، وقد سمعت أحدهم يقول: لنحرق مقالاتنا، حينئذ.

هذا الدكتور، معروف بيساريّته، وبمعاداته للبترودولار، وبموالاته لكل نظام يقوم في مصر، يكتب باسم مستعار وباسمه، في أكثر من مجلة وأكثر من جريدة خليجية، بما في ذلك مجلات هذا الجيش أو ذاك، وأحيانًا يُعيد المقال الواحد أكثر من مرة، مكتفيًا بتغيير العنوان، وبعض الجمل في مقدمة وخاتمة المقال.

بالنّسبة لرجال النظام البائد، فكما هو معلوم، فإن ذاكرة الشعب المصري ضعيفة، أو بالأصح، الشعب المصري متسامح، وابن يومه، كما يقال.

فما أن يختفي حاكم من الذين كان يشكوهم، حتى ينسى أخطاءه. وفي الحقيقة، فإن هناك، دائمًا وأبدًا، جيشًا من المبرّرين والتوفيقيين، ومن فقهاء السياسة، يفتون اليوم بالتحليل، وغدًا بالتحريم، في القضية نفسها.

أي مصري أسأله عن رجل من الحكام السابقين يبادر بالقول: «الله يرحمه»، أو «الله يذكره بالخير». حتى أني سمعت أحدهم يقول عن شارون: «الله يسامحه».

– أتركك يا عبد الرحيم فقراء في القاهرة، لأُحيل الخط، إلى عبد الرحيم، كبير مراسلينا في الأراضي المحتلة.

– هنا. الأفراح تندلع من كل بيت فلسطيني. النواح ينبعثُ من كل بيت يهودي. نعم. نعم. فقد عمَّ بسرعة البرق خبر حلِّ الدولة العبرية، ورحيل جميع اليهود الوافدين، وإعطاء الخيار لليهود من أصل فلسطيني في البقاء أو الرّحيل.

علمنا، أن شارون تلقى برقيّةً مشفَّرةً، ما أن اكتشفت الأقمار الصناعية الإسرائيلية، أن محتوى آبار الشرق الأوسط برمّتها تغيّر، تقول له:

– لا فائدة من صدع الرأس بالحرث في البحر، فالبرّ واسع.

اجتمع الكنيست، في جلسة طارئة، وأقرّ، دون نقاش، تأجيل إقامة دولة صهيون، إلى أن يأذن الرب. كما اجتمعت مجالس جميع الأحزاب، من أقصاها إلى أقصاها، وأقرّت بسرعة خارقة وبالإجماع التام، حلَّ الدولة وتأجيل المشروع، إلى أن تتوفّر الشروط الموضوعية. وقد وجهت كل القوى السياسية إلى شارون، وأصحاب مشروع الجدار الفاصل، النقد اللاذع باعتبار أنهم كسروا مبدأ «هذه أرضك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل».

وهناك من طالب بمحاكمة شارون والحكم عليه بتسليمه لأبي عمار، فما كان من شارون إلا أن ضحك ملء شدقيه.

خُذني معك

– ورام الله يا عبد الرحيم، ماذا يجري فيها؟

– نعم يا عبد الرحيم. أنا هنا في رام الله، وكما ترى أمام مقر السيِّد الرئيس، حيث ينعقد اجتماع مجلس الوزراء والبرلمان، وبعض من أعضاء المجلس التنفيذي، وبعض قياديين من حركة «فتح».

وحسب ما قال لي وزير الثقافة، وهو داخل، فإن الاجتماع مخصَّص للحالة المتولِّدة عن هذا القلْتان العالمي الذي لم يكن ينتظره أحد.

وأشار السيد وزير الثقافة، إلى أن هناك، جدولي عمل، واحد وصلهم من رئيس الحكومة، وآخر من السيد الرئيس بالذات، ومع أن الجدولين يتفقان في كثير من النقاط، خاصة تعزيز قوى الأمن وتوحيدها، فإن نقطة إشكالية إطلاق سراح الأسرى وكيف تواجه اجتماعيًا وأمنيًا، جاءت فقط في مذكّرة السيِّد الرئيس.

يا عبد الرحيم. اسمعني وحدك، رجاءً، فلديّ ما سأقوله لك.

– سيِّداتي سادتي، نعود إليكم بعد هذا الفاصل القصير.

ماذا يا عبد الرحيم؟

– تمكَّنت من إدخال ميكرو للتسمُّع على ما يجري هناك، فهل ترانا، ننقل على المباشر مداولات هذا الاجتماع التاريخي؟!

– أرى أن نسجّل الصوت، وننظر فيما بعد ما إذا كان قابلاً للبثّ العام.

– انتظر يا عبد الرحيم، فها هو السيد الرئيس يخرج بنفسه، ويُشير إلينا.

.. «تعالوا ادخلوا، فلا شيء يمكن أن نخفيه على إخواننا الصحفيين، خاصةً وقد كانوا، وما يزالون، السند الرئيس للشعب الفلسطيني البطل. تفضّلوا. ادخلوا، احضروا معنا هذا الاجتماع التاريخي، أيُّها الأصدقاء الأعزاء»..

ما أن استوى السيد الرئيس في مقعده يترأس الاجتماع، على يمينه رئيس الحكومة، وعلى يساره، رئيس البرلمان، حتى نهض قائلاً:

– دقيقة صمت ترحُّمًا على روح ابني وأخي محمد دحلان، الذي شاءت الأقدار أن يستشهد على يد أحبّ الناس إلى قلبه. قال عزَّ من قائل: «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر».

ابتسم أحدهم، وهو ينظر إلى أحدهم، وكأنما يكرِّر الجملة الأخيرة: «من ينتظر».

شاءت الأقدار، وفي غمرة الظلمة الحالكة التي سلَّطها علينا بوش وعملاؤه في الداخل وفي الخارج، ولولا ستر الله، لكانت الرصاصة الطائشة تستقر في صدري، وأقول لكم الحقيقة، أنني تمنّيت، من صميم قلبي، لو أن ابني دحلان نجا، وكنتُ أنا الفداء له. لكن هي الأقدار، وما أصابكم من مصيبة إلاّ بإذن الله. ولن يصيبنا إلا ما كتب الله.

الله أكبر. تفضّلوا اجلسوا.

أنا جمعتكم اليوم، لنشترك في الفرحة العارمة التي تعمّ شعبنا في أنحاء فلسطين، وكل فلسطين. أكرِّر وأمام الصحافيين: كل فلسطين، كل فلسطين. ولا غالب إلا الله.

يا إخوان، قلت لكم، ومنذ رفع الشعب الفلسطيني يده بالنضال والكفاح، إن النصر دائمًا حليف الشعوب، وإننا سننتصر، وإن فلسطين، كل فلسطين، ستتحرَّر، وستكون عاصمتها القدس الشريف.

«ويا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم، ويثبِّت أقدامكم»، وقد قلت لكم هذا أكثر من مرة.

أنا جمعتكم لأهنئكم، وأهنئ من خلالكم الشعب الفلسطيني البطل، والأمة الإسلامية قاطبة، والإخوة العرب، كلّهم، وفي طليعتهم الشعب المصري ورئيسه الأخ العزيز.

... نعم، نعم يا يحيى. أنا في الصورة، إنما أردت أن أقول، خليفة المسلمين، أمير المؤمنين الصديق العزيز أسامة بلادن. وأعرض عليه، وعلى كافة المسلمين، أن تكون عاصمة الخلافة، القدس الشريف، الله أكبر والعزّة للمسلمين. الجلسة مرفوعة.

فيما بعد. سنلتقي ما في ذلك شك. الأمور الشّخصية، نتركها لما بعد. ثم إن علينا أن نتأكّد، أولاً وقبل كل شيء، من أن المسألة ليست إحدى خدع ومناورات الجلاّد شارون.

فيما بعد. قلت لكم. انصرفوا، وليبق معي فقط صائب. الإخوة الصحافيين. انصرفوا وبلّغوا إخوتنا العرب، أن نصرنا هو نصرهم ونصر لهم أيضاً.

– سادتي سيّداتي، ها هي أبواب مقر السلطة، التي لا أدري، هل تظل مجرّد سلطة كما سمّيت في أوسلو، أم ستتخذ اسمًا آخر. يا عبد الرحيم. الميكرو مفتوح، ويمكن الشُّروع في التسجيل.

– أنا أتابع يا عبد الرحيم. سيّداتي سادتي، نعود إليكم بعد هذا الفاصل.

– ما هي أخبارك يا صائب؟!

– زفت، يا سيّدي الرئيس. اتصلتُ به شخصيًا، وفتحتُ جميع القنوات.

– حتى تلك التي لا أعرفها؟

– أنت الكل في الكل. أنت من لا تخفى عنه خافية، إنني كلّما فتحت نافذة، وجدتُك تطل منها.

– تعرف يا صائب، لقد حفظت أجهزتنا كل ما عند الكلاب الجزائريين، ما عدا أمر واحد مهم..

– ما هو يا سيّدي الرئيس؟

– الجزائريون، كاليهود لا يصطلحون، وجماعتنا، هداهم الله، يعشقون، كلّهم، الظهور في التلفزيون. تصوّر، أنا الرئيس أتصور أقل من أيّ واحد منهم.

أعطني التفاصيل.

– في المقابلة الأولى بادرني هو، ضاحكًا، بأنه كان ينتظر هذا الاتصال، وبأنه إذ يشكر السيد الرئيس، على حسن ثقته فيه شخصيًا، فإنه، وللأسف الشديد، لا يستطيع تأجيل حلّ الدولة العبرية، لحظة واحدة، بعد اكتشاف الخطأ الاستراتيجي الذي وقعنا فيه ببناء الجدار. لقد أفقد أصحابك أولاد صهيون توازنهم، ودوّخوهم.

– يا سيدي نستورد الإسمنت، ونوسّعه، خذوا ما تبقى فنحن نكتفي بالقصر الرئاسي.

– مشروع صهيون، هو ما تعرفونه أنتم أكثر من أي واحد آخر، لكن الأحمق بوش، بالَ في التاريخ.

– يا سيدي، نجعله من الفرات إلى النيل.

– وماذا نعمل بفراتكم أو نيلكم، بعد أن لحقتكم اللعنة، وَغارَ بترولكم؟

– بَلِّغْهُ سلامي، وقل له، السياسة كما يقول لينين، لعنه الله، خطوة إلى الأمام خطوتان إلى وراء، وإن إسرائيل قطعت إلى وراء عشر خطوات كاملة، وهذا بمحض إرادتها.

في المقابلة الثانية، وضع قنينة بوخة بيننا، وبعض كوامخ، وراح يطلعني على التعليمات

التي تلقاها، من مصادر صهيون العليا، وها هي بصوته:

« الهدف الأساسي، البعيد المدى والقريب، هو محو ما لحق اليهود من عار، بحكم تصرُّفات حمقاء، أملتها ظروف غير محسوبة.

« لقد نسينا ما عانيناه، في محاكم التفتيش نحن والعرب. فرحنا نتصرَّف كما لو أن الإيمان انقطع من قلوب الناس، وقد أعاد الأمريكان نفس الخطأ وهم يقتحمون العراق وقبله بلاد الأفغان.

« اليهود ينبغي أن يستعيدوا يهوديتهم فيتخلَّصوا من التأمرك الذي أصابهم، ومن التهتلر الذي لحق ضباطهم.

« على جميع اليهود أن يعودوا إلى مواقعهم، وأن يغسلوا أمخاخ الناس من الآثام التي ارتُكِبَت في أرض الميعاد.

« أطلقوا سراح جميع المساجين، ولا تنسوا أن تكرموهم بتقديم التعويضات لهم ولذويهم.

« قد يطلب منكم بعضهم الذهاب معكم، فافهموهم الحقيقة، وهي أنه لا مقصد لكم.

« أعيدوا طائرة العجوز، فلا مخرج له إلا السماء. والرب وحده غافر الذنوب ».

– هكذا إذن؟

– نعم يا سيِّدي الرئيس.

– ومتى كان اليهود صادقين، ألم يقل رب العزة، « لن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتى تتبع ملّتهم ».

– صدق الله العظيم. ونستغفر الله العظيم، من كل ذنب عظيم، فربَّما يكونون قد رضوا.

– سيِّداتي سادتي، توقَّف هذا التسجيل من إحدى غرف السيِّد رئيس السُّلطة التنفيذية، بعد طَلْقَتَيْ رصاص، لا ندري مصدرهما، ولا نتيجتهما، وفي انتظار أن يتَّصل بنا عبد الرحيم فقراء، نقدِّم لكم التقارير التي وافانا بها مراسلونا من جميع أنحاء العالم.

انقلاب السّحر

عدَّة برقيات، أكَّدها عبد الرحيم من واشنطن، تقول الأولى إن الشرق الأوسط لم يعد يتوفَّر على النفط، وقد فقد، بالتالي، كل قيمة استراتيجية له:

( ) الاستيلاء على كل أموال العرب المودعة في الولايات المتّحدة، وعلى جميع ممتلكات العرب، الثابتة والمنقولة، بما فيها السفارات والقنصليات ومراكز الثقافة، والمساجد، والمطان

التي يلتقي فيها العرب والمسلمون. دون استثناء ممتلكات الصومال وإرتريا وموريتانيا، وبما في ذلك البواخر والطائرات التي تتواجد أو تدخل أمريكا. وطرد كل العرب المقيمين، ومنع القادمين من الشُّرق الأوسط من الدخول.

( ) استعادة كل الجيوش الأمريكيّة المتواجدة في المنطقة، بما فيها العراق، حالاً وبدون تأخير، والتخلّي عن الامتيازات الأمريكية، المترتّبة، سواء عن حروب الخليج، أو عن الحرب الباردة.

( ) وضع جميع القوات الأمريكية، بما فيها حاملة الطائرات أبراهام لنكولن، التي انقطع الاتّصال بها، منذ يومين. وبما فيها القوات ذات الطابع الاستراتيجي، في حالة تأهّب قصوى، وإنذار كل الطائرات المدنيّة والعسكريّة، وكل البواخر في البحار والمحيطات، بأن أي اقتراب منها، يُعتَبرُ إعلانًا للحرب، من طرفها ومن طرف البلد الذي تنتمي إليه.

( ) قطع العلاقات، مع إسرائيل، ومنح كل اليهود في العالم الجنسيّة الأمريكية، وجوازات سفر دبلوماسية.

( ) الاعتراف بانتصار الإرهاب العالمي، وبهزيمة الديموقراطية الغربية في شكلها الحالي.

( ) إعلام العالم أجمع بأن بلادن مات بمرضه هذا ثلاث سنوات خلت، وأن القاعدة، والزرقاوي، مجرد فزّاعة تحركها الأهواء.

- سيّداتي سادتي هذا أهم ما وافانا به عبد الرحيم فقراء من واشنطن، وهو ليس بالقليل.

أما من أوروبا، فلا جديد يُضاف إلى قرارات الأمس، سوى أن مقاطعة الدولار عمّت باقي العواصم الأوروبية بعد الخطوة الجريئة التي قطعتها ألمانيا، وسوى أن الاتحاد الأوروبي أعلن إيقاف جميع السيارات الخاصة، عن الحركة. كما أُعلن عن تخصيص ميزانية ضخمة للتنقيب عن البترول في جميع البحار والمحيطات التي تحيط بأوروبا، أو القريبة منها، وسوى أنها ترفض كل قادم من الشرق الأوسط وبالذّات من البلدان العربية، أكان يهوديًا أم عربيًا، وأن كل طائرة تدخل من المنطقة أجواء أوروبا تُعتبر محجوزة، فالأموال العربية المودعة في البنوك الأوروبية، وكذا ممتلكات الحكام العرب، لا تكفي لسدّ الديون التي عليهم، في نوادي القمار، وفي الفنادق الفخمة، وفي الوكالات العقارية، حيث اشتروا عقارات كبرى ولم يُسدّدوا كل مبالغها.

فيما يتعلّق بالعرب ذوي الجنسيات الأوروبية، أعلن من هم من أصل شمال إفريقيا بقيادة الجزائريين، أنهم سيُلهبون كل خزانات البترول، لو يُتّخذ أي إجراء ضدهم، فأعلنت فرنسا وألمانيا ودول البينيليكس، أنه لا فرق بين مواطنيها مهما كانت أُصولهم ودياناتهم، غير أنها لن تسمح لأي وافد جديد بوطء أراضيها، سواء بصفة شرعيّة أو غير شرعيّة.

الصحف الأوروبية، أكّدت على مقولات الدكتور حنزليقة، خاصّةً مقاله الأخير الذي أوضح فيه، بالحجج الدّامغة، أن العلماء الأمريكيين ارتكبوا خطأً في تركيبة السلاح الجديد، وهم، لهذا السّبب، يسحبون قواتهم، كما يسحبون أصدقاءهم اليهود، وأن العواقب البيولوجية الوخيمة ستظهر فيما بعد، ولئن ظهرت الآن في قمصان العرب وكوفيّاتهم فذلك مقدّمة لما هو آت.

أخطر قرار تشترك فيه أوروبا مع الولايات المتّحدة الامريكية، هو منع المواد الغذائية عن العرب، فلا لبن ولا قمح ولا طحين ولا أرز ولا شعير ولا ذرة، كما أن المواد الأخرى المعتبرة في الغرب كمالية، مثل التبغ والكحول بجميع أنواعها ومواد الزّينة، وصبغ الشعر والشوارب، والنظارات، والعلك بصفة خاصة، كلّها ممنوعة عن العرب.

لقد أثارت إحدى الصحف مسألة التجارة مع العرب، فتساءلت: هل المقصود معاقبة العرب، على ما اقترفه الامريكان، أم خلو جيوبهم مما يُسدّدون به مشترياتهم؟

وقد علّق خبير ألماني موالٍ للعرب، قائلاً، إنه بالفعل لم يبق للعرب ما يسدّدون به فواتير مشترياتهم، فكل احتياطهم يذهب في تسديد ما عليهم من ديون، خاصة المترتّبة عن القمار وعن شراء الأسلحة.

إن الغرب، كلّ الغرب، يمكن أن يُخطئ في أيّ شيء ما عدا حسابات ديونه، وفوائدها، فهي أهم سلاح اخترعه اليهود منذ آلاف السنين.

الخُلاصة التي نخرج بها من أمريكا وأوروبا، هي أنه لا شيء يمكن أن يقف في وجه الأزمة التي عرفتها البشرية في ثلاثينيات القرن العشرين. وكما قال الدكتور حنزليقة، الذي أصبح المرجع الوحيد في الأزمة، السّحر يعود على الساحر، وإذا لم يسُد التعقّل والتبصُّر، فإن البركان الذي سينفجر هذه المرّة ستكوي حممه الخليقة كلّها.

سيّداتي سادتي. وَرَدَنا قبل قليل، أن وزراء دفاع الصين وكل الدول الآسيوية، مضافًا إليها روسيا، شرعوا في اجتماعات تكتنفها السرّية التامة.

ومعلوم أن العملاق الاصفر الذي لا يهمله الألمان من حساباتهم السياسية، لم يعلن عن موقفه مما حدث ويحدث بعد.

ويرى المراقبون، في هذا الاجتماع، خطوةً نحو تشكيل جبهة شرقية، تتمتّع بكل إمكانات الدفاع والهجوم.

ويل العراق يا مويلية

– عبد الرحيم، عبد الرحيم. أنا عبد الرحيم فقراء من بغداد.

- أهلاً عبد الرحيم، ماذا هنالك؟

- ها هو الرئيس السّابق صدام حسين، قاهر السُّنة والشيعة، وقاهر العرب والعجم. ها هو أسير لامرأتين ضاربتين في الكبر، تقولان إنه اقتحم منزلهما قبل ليلة البارحة، مستنيرًا بقطْعة فارسية، وأنهما اغتنمتا فرصة استغراقه في نوم عميق، فشدّتا وثاقه، وقالتا، أيضًا، إننا ارحم عليه من الامريكان، فمهما كان، فإنه يقول لا إله إلا الله، لذا لم نستعمل السلاسل، واكتفينا بحبل من صوف، وإن شئتم الحق، فقد ساعدنا على ربطه وهو يدندن: «ويل العراق يا موينيّة، طعن الخناجر ولا حكم الخسيس فيّ».

كما ترون، سيّداتي سادتي، كما ترى يا عبد الرحيم فقراء، شارع أبو نواس يستقطب آلاف الناس، يأتون من كل حدب وصوب، ساكتين واجمين، على أكتافهم قناطير مُقنطرة من الحزن والكدر، وعلى رؤوسهم سُحُب من الحيرة.

الرجل يقف مستسلمًا، عيناه تتبادلان الدّور، واحدة، تبدو بلهاء تعبة مكدودة، والثانية تلفُّ يمينًا شمالاً متراقصةً، كأنّها لثعلب غدّار.

لأوّل مرّة يقف وسط جمهور غفير دون حراسة.

مواطن من بين ملايين المواطنين. له ما لهم، وعليه ما عليهم.

احضر بعضهم من مقهى مجاور طاولةً وضعه فوقها، بعد أن فكّ وثاقه، وسأله هل يحتاج إلى ماء أو شاي، فأشار يمينًا للمرأتين، بأنهما أكرمتا مثواه، ولا ينقصه شيء.

- ما ترانا فاعلين بك يا صدام حسين؟

- إخوة كرام وأبناء إخوة كرام.

فكّر أن يقول، لكن سأل نفسه، ما الفائدة؟

- حاكموه. حاكموه. نحاكمه جميعًا.

هدرت الأصوات، فاهتزّ لها شارع أبو نواس.

- حاكموني على كل ما فعلت.

فكّر أن يقول، لكن سأل نفسه، ما الفائدة؟

- يا صدام حسين، نحاكمك، فقط على ما لم تفعل.

- لم أفعل أشياء كثيرة.

فكّر أن يقول، لكن سأل نفسه، ما الفائدة؟

ظلّ ساكتًا، كأنّما يفكّر.

قال أحدهم: إنه يتوعّدكم، وقال آخر: إنه يتساءل، لماذا لم يدفنكم جميعًا، أضاف ثالث: ربما يتمنّى لو أنه لم يعرفكم، بينما قال آخر: إنه يقول في قلبه، ليتني لم أحكم.

– نحاكمك، على المسائل التّالية، يا صدام حسين:
( ) لم تسمع لنصيحة فرانسوا ميتران، بالانسحاب من الكويت.
( ) لم تنسحب من الحكم بعد هزيمة الخروج من الكويت.
( ) لم تنتحر إثر سقوط بغداد.
( ) لم تنتحر، والعلوج يلقون عليك القبض.
( ) لم تبصق على وجه القاضي الذي استجوبك.
هل تعترف بما لم تأت يا سيادة الرئيس؟
– رئيس الجمهورية العراقية من فضلك.
فكّر أن يقول، لكن سأل نفسه: ما الفائدة؟
– هل تعترف؟
– نعم أعترف.
فكّر أن يقول، لكن سأل نفسه: ما الفائدة؟
– فما تراه يكون الحكم عليك الآن؟
– اقتلوه. الجبان. اقتلوه، قاتل الأطفال وذوي القربى.
– نحاكمه أوّلاً.
– ويل العراق يا مويليّة. طعن الخناجر ولا حكم العميل فيّ.
اهتزّ شارع أبو نواس بالهدير الذي انطلق من حناجر المحتشدين، وظلّ يتكرّر عدّة مرات.
– الحكم، أن تغسل العار، فتأتي اليوم بعض ما كان بالإمكان إتيانه بالأمس.
– ها هو مسدس.
انتظر الناس لحظات طويلة، أن يمدّ يده إلى رأسه فيطلق النار، ويغسل العار كما قيل له. لكن لم يفعل. تأمّلهم بالعينين معًا، ضحكته الصفراء التي يستعملها في التّهديد والوعيد كما يستعملها في الاستسلام والعجز المطلق، لا تفارقه، ثم فكّر أن يسألهم:
– هل أنتم جادّون؟ كنت أنتظر منكم أن تفرحوا، هل وجدتم من يقودكم؟ ألا يوجد بينكم بعثيون نشامى؟
– أتريد يا صدام أن تعود فتقودنا، إلى عار آخر؟
– ويل العراق يا مويليّة. طعن الخناجر ولا حكم الجبان فيّ.
باغتت امرأة الجميع. وثبت إلى الطاولة التي يقف عليها الرجل.
انتزعت المسدس الذي كان يتّجه إلى القلب، من يده. صوّبته إلى رأسه. ضغطت.
انطلقت الرصاصة. التفتت إلى الجماهير المحتشدة. زعقت:

- فليسترح الجميع. الناس لا ينتحرون بالاوامر.
قال القائلون:
ربّما كانت إحدى بناته.
ربّما كانت زوجته، أو إحدى عشيقاته.
ربّما إحدى من رَمْلَ من العراق او من الكويت.
سنعود إليكم، سيّداتي سادتي، بعد فاصل قصير، فانتظرونا.

شنوة، شاطئ بن حسين
٢١ أوت / آب ٢٠٠٤

١ مُجاّعة بن مرارة شيخ قبيلة بني حنيفة، اسير خالد بن الوليد.
٢ مالك بن نويرة، شاعر صحابي كلّفه الرسول صلعم بجمع الصدقات جفل لما مات الرسول، فاتّهمه خالد بن الوليد بالارتداد وقتله، وطالب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالقصاص من خالد.
٣ سجاح الاّهت النبوّة مع مسيلمة الكذّاب.
٤ مسيلمة الكذّاب الاعى النبوّة في اليمامة.
٥ زوجة مالك بن نويرة تزوجها خالد بن الوليد وحرب الرِدّة قائمة.
٦ ليس هناك.

روائي جزائري مقيم في الجزائر